ولاء كمال

القداس الأخير

رواية

الدار المصرية اللبنانية

maktabbah.blogspot.com

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

القسم الأول

لأن لكل طريق نهايته...

ولكل كتاب خاتمته...

ولكل حياةٍ... موتها

في ذلك اليوم الذي رأيت فيه أشلاء ماري متناثرة أمامي على شاشة التلفزيون، كان قد تبقَّى على موعد انتحاري أربعة أشهر وبضعة أيام.

لم أرد أبدًا تصديق أن تكون ماري.

ولكنها كانت هي.

لا أدري كم من الوقت ظللت جالسًا أطالع صورتها دون أن أعي ما يحدث من حولي. فقط عيني معلقة بالتلفزيون وأنا لا أصدق.

صورتها. تلك هي صورتها التي التقطتها لها على سلم أحد المتاحف. لا أذكر أيها. يومها كانت مكفهرة من الحر، ترتدي حجابًا زاهيًا بالأرجواني، وعلى وجهها نظرة متجهمة، لم نكن نتحدث ذلك اليوم بعد عراك رهيب، لا أذكر سببه الآن.

إنها صورتها، وتحتها الشريط الأزرق يقول إن هذه الـ «انتحارية» فجَّرت نفسها اليوم في كنيسة ببلدة صغيرة في أوربا، مما أسفر عن مقتل العشرات وإصابة المئات، وتصدُّع المبنى، وإن الحريق تتم السيطرة عليه حاليًا، وإن هذا الحادث يُعد هو الأسوأ في تاريخ بلدها الهامشي. كانت هي. بلدتها وبلادها. كانت هي. ذات الكنيسة التي حضرنا فيها زفاف أختها الصغرى. كانت هي. ماري. لقد فجَّرت نفسها. ماتت. ماري. أشلاؤها أمامي الآن على التلفزيون. إنها هي بلا شك.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

روحي كلها تنسحب لأسفل وأنا أرفع الصوت. المذيعة الشقراء المصدومة تقول إن هذه الحادثة هي الأخيرة في سلسلة من الحوادث التي يرتكبها مواطنون أوربيون خضعوا لعمليات غسيل مخ من الإرهابيين في الشرق الأوسط، وإن هذه السيدة قد خضعت للإيهام من زوجها المنتمي لإحدى الجماعات الإرهابية الذي أقنعها بتبني هذه الأفكار الأصولية المتطرفة، وإن قوات الشرطة الإيطالية تبحث عنه.

للحظةٍ من هول الصدمة وشلل مخي ظننت أنهم يتحدثون عني، ولكني استرجعت الوعي مرة أخرى وتذكرت بمرارة أنها قد تزوجت من بعد طلاقنا. ساعدتني القناة الأجنبية على الاستدراك حين وضعت صورة زوجها على الشاشة وتحتها اسمه.

أقفلت صوت التلفزيون أثناء مداخلة صحفي متخصص في شئون الشرق الأوسط عبر الهاتف ليخبر المذيعة بمنهج الجماعات الإرهابية في توظيف أبناء أوربا المهمشين لخدمة أهدافهم وهدم المجتمعات الغربية اللا دينية. أرقب زوجها الذي يظهر كل فترة: وجهه الأسمر العبوس ولحيته محلوقة الشارب. كانت لحية كثيفة شديدة السواد مترامية الأطراف، وليست كلحيتي التي يتخلل الرمادي فوضاها المشعثة والأقصر كثيرًا. كانت لحية طويلة تصل إلى ما أسفل الصورة، ربما إلى صدره. صورة مشوشة، وليست كالصور التي احتفظت بها حينما دخلت على صفحته بعدما عرفت بزواجها منه.

هل كان يجمع مناديلها الورقية ويبقيها في صندوق كما كنت أفعل؟

أيقظني من الصدمة رنين هاتفي عشرات المرات. كارين هي المرسلة. أرادت أن تخبرني قبل أن أعرف من التلفزيون. ابنة عمها التي لم تكلمني طوال أربع سنوات. كارين. لا تزال تذكرني. لا تزال تفكر فيما سأشعر به. كنا نتحدث طوال عام بعد الطلاق، وحين تزوجت ماري قطعت علاقتي بكل مَن يخصها، وأولهم كارين، ولكنها لا تزال تذكرني.

«لا تتركني».

maktabah.blogspot.com

قالت وهي تمسك بذراعي ووجهها المحمر من الاختناق مبلل بالدموع. كان شعرها الأشقر مشعثًا رغم أنها جمعته في ذيلٍ طويلٍ بربطة شعر كانت قد اشترتها أحد أيام الآحاد من سوق بلدتها. نظرت لها ولم أستطع أن أقول شيئًا. ظللت أنظر لها وأنا أريد أن أصرخ في وجهها. أنتِ مَن تريدين الابتعاد وليس أنا. أنتِ مَن تريدين الرحيل وليس أنا. لا أفهم كيف ومتى وصلنا إلى تلك المرحلة.

كانت التساؤلات تنهشني طوال سنوات، ولكني كنت أداوم على صمتي ولا أقول شيئًا. أطلب من الحياة لا شيء سوى أن تسير من تلقاء نفسها دون مشاكل. لم أكن أدرك وقتها أن قلبي مات، وأني لم أعد أشعر بشيء منذ اليوم الذي فزت فيه بالجائزة وأمنت مستقبلي. لا أدري بالتحديد إن كان قد مات مع كل سطر أكتبه في تقاريري، أم مع كل ملاحظة أسجلها في مخي وأنا جالس بالمقهى. أم مات يوم أخذت أقارن بيني وبين العشرات الذين سبقوني إليها، فأرقد بجانبها دون كلام أو حراك متحاشيًا نظراتها المتسائلة. لم أدرِ متى مات قلبي. ربما يكون قد مات حين عايرتها بماضيها العاهر، أو ربما يكون قد مات حين حاولت خيانتها وفشلت.

ولكن المحصلة هي أني كتبت كل ذلك في خطاب وتركته لها لتقرأه وأنا مسافر لحضور الملتقى الوطني للأدباء والمثقفين والمتملقين. لأني كنت جبانًا تركته لها مثبتًا خلف مغناطيس الثلاجة وهربت بعيدًا، إلى أبعد نقطةٍ، ظنًا مني أني سأعود لأجدها في انتظاري وقد تفهمت ما بداخلي بعد أن تقرأه. وهي لم تكن جبانة. لم تهرب. لقد انتظرتني بالفعل، ولكنها كانت قد حزمت حقائبها. فتحت لي الباب واحتضنتني ببكاءٍ حار، كومت نفسها داخل حضني فوق المقعد الوثير الذي طالما ضمَّنا أمام التلفزيون في ليالي الشتاء، وتركت دموعها ومخاطها يبللان صدري وبطني دون خجل. «لا تتركني»، ظلت تقول، ثم أردفت: «احجز لي تذكرة الطائرة، راعِ القطط ولا ترم بها إلى الشارع، لا تتخلص من أشيائي الباقية سأرسل في طلبها ما إن أعود للاستقرار هناك».

maktabah.blogspot.com

اليوم رحلت ماري رحيلها الأخير، ورأيت أشلاءها أمامي على شاشة التلفزيون. اليوم تكمل الرحلة التي كنت تواقًا إلى أن أنهيها قبلها بالانتحار في عيد ميلادي المقبل.

بدأ الأمر بجملةٍ أتتني فجأة. ظهرت لي من العدم. كفكرة. إلهام. من اللا شيء. أذكر تمامًا اللحظة التي جاءتني فيها أول مرة: كنت ممددًا أمام التلفزيون، أشاهد مسلسلًا أسكندنافيًا من مسلسلات الجريمة التي كنا أنا وماري ندمن مشاهدتها. كانت الشقة قد تم تنظيفها وترتيبها للتو. أخذت حمامًا ونزلت تحت الأغطية وفي يدي كوب من الكحول. كانت لحظةً ممتازةً من الصفاء والهدوء الكئيب. وفجأة قفزت الجملة إلى رأسي: «أريد أن أموت».

فقط بهذه البساطة. هذه الجملة القصيرة المكونة من ثلاث كلمات أتتني في ذلك النهار ولم تغادرني أبدًا حتى اليوم. ارتسمت أمام عيني بدون صوت يرددها في أذني. فقط ثقل حروفها يقِر في نفسي اليوم تلو الآخر.

«أريد أن أموت».

منحتني راحةً لم أشعر بها من قبل. وصارت مع تكرارها، ودخولها المفاجئ إلى وعيي وتفكيري بين كل فترةٍ وأخرى، مصدر سلامٍ هائل، ووجدت نفسي أتقبلها، بل وأتعجب من أنها لم تأتِني من قبل. كيف لشيءٍ بديهي مثل هذا أن يخفى على المرء؟ بالطبع أريد أن أموت. وبالطبع كانت هذه الإجابة المنطقية الوحيدة لرجل مثلي.

ليس الانتحار تقليلًا من أهمية الحياة، ولكنه اكتفاء منها فحسب. لا يعجبني ما يقولونه عن إنه متمَّة لاكتئابٍ شديد، ونتيجة الشعور بأن الحياة لا قيمة لها، وأن الإنسان حين يُقدم عليه يكون في غير وعيه. ربما يكون الأمر كذلك بالنسبة لأنصاف الموهوبين ومَن فشلوا في ترك شيءٍ ذي قيمة. ولكن بالنسبة لمَن هم مثلي، هؤلاء الذين يعرفون مقدار موهبتهم وقدراتهم، فإن الانتحار اختيار شجاع، لا يعني الجبن أو

maktabah.blogspot.com

الضعف، ولكنه تصريح، مقولة، كلمة أخيرة، نوع من التبول اللا إرادي على هذا العالم الذي لا يستحق أن يُعاش.

هذا بالضبط هو ما يعنيه الانتحار بالنسبة لي، وهذا هو ما جعلني أقرر أن أتمه، مؤرخًا باليوم والساعة بحلول عيد ميلادي الرابع والأربعين. أما لماذا هذا التاريخ بالتحديد فهو لأني أريد أن أنهي جمع ومراجعة وتنقيح مقالاتي ليضمها كتابي الأخير. ستكون تلك المقالات هي كلمتي الأخيرة التي يذكرها العالم عني، وستكون أروع ما كتبت، وأعظم ما رأى الناس في فن المقال. ربما لم أستطع كتابة الرواية كما تمنيت - رغم ما جاءني من قرائي بأنها أعظم ما قرأوا - ولكني بالتأكيد أستطيع أن أكتب المقالة. هذه المرارة التي أحملها، والسخرية السوداء التي تحملها جملي وهي تحكي عن غباء البشر وقدرتهم الهائلة على ارتكاب الشرور على مر التاريخ، وعلمي الجارف بالفنون البصرية بحكم دراستي الأصلية، كل ذلك سيظهر للعالم في مزيج غريب لا يفهمونه سيتدارسونه لسنوات.

كانت هذه خطتي قبل أن تفجر ماري نفسها، وتدفعني لتغيير كل شيء، والشروع في تدوين هذا الكتاب.. ليصبح آخر ما أكتب.

«أريد أن أموت».

تنهدت بصوتٍ عالٍ وأنا لا أزال أمام التلفزيون، أتذكر السنوات التي مضت، والأيام الأخيرة التي سبقت رحيل ماري الأول.

***

بهيئتي الحالية أكاد أنسى كيف كنت قبل أربع سنوات حين غادرت ماري. كيف زاد وزني إلى هذا الحد لا أدري، ولكني أعرف أن كل شيءٍ تغير في تلك السنوات الطويلة: توقفت عن الذهاب للجامعة بعدما تلقيت عرضًا كان الأكثر مثالية لي في تلك الفترة، ولا أدري إن كان لأصدقائي في الجهاز الفضل فيه أم إنه أتى عن استحقاق، فالاستحقاق

maktabah.blogspot.com

كلمة بِتُ لا أعرفها منذ أمد طويل تمامًا كالبناطيل الأقل مقاسًا بعدة أزواج من الأرقام، ولكنه كان عرضًا ممتازًا: مقالان طويلان في الشهر لجريدة عربية تصدر من لندن، سعر كل مقال يكفي احتياجاتي الأساسية ويفيض، بحيث تبقى أموال الجائزة دون مساس تمارس التكاثر الساحر بفعل الفوائد المصرفية.

كانت الجريدة قد راسلتني في أيامنا الأخيرة حين كانت ماري تستعد للرحيل دون عودة بعد أن تركت لها الخطاب المشئوم قبل أن أسافر لحضور الملتقى. أعجبتهم مقالاتي الإلكترونية عن فنون ولوحات عصر النهضة ونقدي اللاذع للحركة الفنية المعاصرة، والتي ضمنتها معلومات متدفقة عن الجرائم المسلسلة بكل ما تحمله من إثارة وسخرية قاتمة من وضع الإنسان اليوم. كنت أكتب هذه الشذرات بجدية شديدة، مستغلًا قدرتي الذكية على المزج بين عالمين لن يجد أحد الرابط بينهما بسهولة. التقطوا التميز الواضح في ذلك الخليط العجيب، وطلبوا مني التوقف عن نشرها على صفحتي، وأن أكتفي بنشرها لديهم، مع محاولة إطالتها لتغطي المساحة المطلوبة، صفحة كاملة كل أسبوعين، وأن أكمل ما بدأته مع بعض الاجتهاد في توفير المراجع والمصادر حرصًا على المصداقية.

لم أعِر عرضهم الكثير من الاهتمام وقتها لأنها كانت تغادر، ولم يكن شيء آخر يهمني، كما أنهم لم يأتوا على ذكر رواياتي الثلاث أبدًا، ولم يثنوا عليها في معرض مفاوضتهم معي، وكان ذلك مصدر استياء بالغ لي، ولكن ما إن بدأت أستوعب أنها غادرت، وما إن بدأ هذا الزلزال يؤثر على أدائي في الجامعة ويزيد من احتقان الطلبة وعدائية الزملاء، حتى عدت أفكر في عرضهم، وقبلته.

لماذا طلبوا مني ترك الجامعة؟ يقولون لافتراسي الطالبات والمعيدات، واحتقاري لطراوة الذكور منهم. رغم أني موقن أنهم جميعًا يواقعون بعضهم بعضًا برخصة اشتغالهم بالفن ولا يوقفهم شيء، حتى تجاهلهم لأبسط قواعد النظافة الشخصية، إلا أنهم اختاروا إدانة تصرفاتي أنا.

maktabah.blogspot.com

وربما أيضًا لأني بت مشتتًا ولا أتمكن في أحيان كثيرة من إكمال فكرة واضحة أو حتى جملة مفهومة في المحاضرات. أحدهم وشى بي بعد واقعةٍ ساذجةٍ كانت هي بداية اللغط كله. حين ظهرت لوحة «عذراء الصخور» لدافينشي منعكسةً فوق السبورة، ووقفت أمامها لدقائق أتمتم بكلامٍ غير مفهوم، صاحبته دموع تنهمر على وجنتي متلألئةً بفعل شعاع جهاز العرض، ثم خرجت.

ظللت أعاند حتى أخذت الضوء الأخضر من أصدقاء الجهاز بالعمل مع الجريدة العربية، فانكببت على العمل معهم بنشاط، وأخذت إجازة من الجامعة كان رئيس القسم سعيدًا بأن يمنحني إياها. أتيت بالسيدة العجوز التي نظفت المنزل بالكامل وأزاحت أشياء ماري كلها إلى غرفة واحدة، أخفيت مفتاحها لا أدري أين، وهيأت نفسي لجلسة طويلة في المنزل.

هذه الجلسة التي استمرت قرابة أربع سنوات دون أن أشعر. زاد خلالها وزني بشكلٍ ملحوظ، وضاق تنفسي، واضطرب نومي، وباتت حركتي أصعب. أخرج من المنزل بضع مرات فقط في الأسبوع لاستلام الحوالة وتغيير العملة، وزيارة مَن بقي من أهلي، والجلوس على المقهى مع القلة من الأدباء والمثقفين السذج الذين لم يعرفوا بعد، أو لم يعُد يهمهم، أني كنت أكتب فيهم التقارير.

***

حين قابلت ماري كنت أعمل على روايتي الثالثة العظيمة.

رغم علمي بفوزها المسبق بالجائزة والتقدير، فإني لم أكن لأركن إلى هذا فحسب. كان يجب أن يكون الفوز مستحقًا.

وقتها كنت لا أزال أملك جرأة التشبث بقيمة الاستحقاق: لو أن ضميري تجاه نظرائي الأدباء الأعزاء قد مات، فإن ضميري الفني لم يكن قد اضمحل بعد. لم أكن لأسمح له.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

حين جلست لأكتب الرواية الثالثة كنت على علم مسبق بكل ما سيحدث حين أنتهي منها. كانت هذه لعنةً لم أدرك وأنا أوافق على عرض «الرجل» أنها ستصيبني. غادرتني أحلام اليقظة بتمني اللا معلوم وكان هذا يزعجني. كنت أفتقدها. حرمني هذا اليقين متعة التطلع المهتز الذي كان مثل جذوة نار تشتعل وقودًا لإبداعي. كيف تبدع وأنت محروم من انتظار نتيجة ما تبدعه في العالم، بكل ما يحمله انتظار الحدوث من شبق مرتعش أو خيبة مريرة، ليصبح قبل وقوعه وكأنه ذكرى معلومة محفوظة ومستهلكة؟

بكل ما أوتيت من إيمان بموهبتي قاومت ذلك الشعور المُفني، وقررت أن تكون هذه الجائزة المعدة مسبقًا كالوجبات الجاهزة مُستحقة؛ لذلك صببت عليها كل ما في روحي وعلمي وكياني وقدرتي الفنية التي لم يكُن يضاهيها أحد.. حتى لو لم يعترفوا بذلك إلا بالأمر المباشر. ليس بيدي حيلة، وإن احتاجوا لضربة على رؤوسهم حتى يروني وأتوقف عن كوني خيال ظل مجهول بالنسبة لهم، فسأضرب بكل ما أوتيت من قوة.

وكأي كاتبٍ مُلهَم يحترم فنه وكتابته ورسالته، احتجت إلى عزلةٍ تامةٍ كي أنهي ما ستصبح - ولم أكن لأتخيل ذلك أبدًا وقتها - روايتي الأخيرة.

سافرت إلى مدينة ساحلية لأعزل نفسي، وأكتب بعيدًا عن ضوضاء المدينة وضغوط الزحام والالتزامات العائلية الواهية. حبست نفسي في غرفتي ولم أكن أخرج إلا للسباحة أو التأمل عند ساعات الفجر حين يكون الشاطئ خاليًا.. فقط كانت تشاركني فيه فتاة قصيرة ممتلئة بعض الشيء. لم تكن تُحسن الكلام بالإنجليزية، ولكننا استطعنا تبادل بضع كلمات، كاسمينا والغرض من الزيارة، إلخ. ولم يطل حديثنا أكثر من ذلك.

خلال الأيام الأولى تبعتها في صمت. أطيل النظر نحوها حتى تشعر

maktabah.blogspot.com

حين جلست لأكتب الرواية الثالثة كنت على علم مسبق بكل ما سيحدث حين أنتهي منها. كانت هذه لعنةً لم أدرك وأنا أوافق على عرض «الرجل» أنها ستصيبني. غادرتني أحلام اليقظة بتمني اللا معلوم وكان هذا يزعجني. كنت أفتقدها. حرمني هذا اليقين متعة التطلع المهتز الذي كان مثل جذوة نار تشتعل وقودًا لإبداعي. كيف تبدع وأنت محروم من انتظار نتيجة ما تبدعه في العالم، بكل ما يحمله انتظار الحدوث من شبق مرتعش أو خيبة مريرة، ليصبح قبل وقوعه وكأنه ذكرى معلومة محفوظة ومستهلكة؟

بكل ما أوتيت من إيمان بموهبتي قاومت ذلك الشعور المُفني، وقررت أن تكون هذه الجائزة المعدة مسبقًا كالوجبات الجاهزة مُستحقة؛ لذلك صببت عليها كل ما في روحي وعلمي وكياني وقدرتي الفنية التي لم يكُن يضاهيها أحد.. حتى لو لم يعترفوا بذلك إلا بالأمر المباشر. ليس بيدي حيلة، وإن احتاجوا لضربة على رؤوسهم حتى يروني وأتوقف عن كوني خيال ظل مجهول بالنسبة لهم، فسأضرب بكل ما أوتيت من قوة.

وكأي كاتبٍ مُلهَم يحترم فنه وكتابته ورسالته، احتجت إلى عزلةٍ تامةٍ كي أنهي ما ستصبح - ولم أكن لأتخيل ذلك أبدًا وقتها - روايتي الأخيرة.

سافرت إلى مدينة ساحلية لأعزل نفسي، وأكتب بعيدًا عن ضوضاء المدينة وضغوط الزحام والالتزامات العائلية الواهية. حبست نفسي في غرفتي ولم أكن أخرج إلا للسباحة أو التأمل عند ساعات الفجر حين يكون الشاطئ خاليًا.. فقط كانت تشاركني فيه فتاة قصيرة ممتلئة بعض الشيء. لم تكن تُحسن الكلام بالإنجليزية، ولكننا استطعنا تبادل بضع كلمات، كاسمينا والغرض من الزيارة، إلخ. ولم يطل حديثنا أكثر من ذلك.

خلال الأيام الأولى تبعتها في صمت. أطيل النظر نحوها حتى تشعر

maktabah.blogspot.com

بنظراتي فتنظر نحوي هي الأخرى. كانت ذات بياضٍ شاهق، وامتلاءٍ يمزج باتزان ما بين رصانة الأجانب وتهدل فتياتنا الحزينات.

ماري كان اسمها. وكان مدخل حديثنا أسهل ممَّا توقعت: بعد طول تبادل النظرات كان هناك نوع من الألفة غير المنطوقة، وبات من السهل أن نتحدث.. في أول مرةٍ تجاورنا فيها أمام بوفيه الأطعمة وقت العشاء. قلت لها: «هل تعرفين أن ماري العذراء هي الأكثر رسمًا في لوحات عصر النهضة؟ وأنها تُعد رمز العفة والعطاء والتضحية حتى يومنا هذا في الحضارة المسيحية وغيرها من الحضارات أيضًا؟ طيب هل تعرفين أنها تتبوأ مكانةً في اللوحات تُضاهي وفي بعض الأحيان تتجاوز المسيح؟»، قلت وأنا أتلكأ بينما كانت هي تشير للشيف أن يزيد من صلصة البولونيز فوق طبقها.

جلست معي إلى نفس الطاولة بتلقائية شديدة. أفضت بحماس الانتصار في الحديث عن طهر العذراء بينما أختلس نحوها النظر بين لحظةٍ وأخرى لأرى تأثير ذلك عليها. كانت تدحض كلماتي التي تصفها بالسذاجة بقولها إن اسمها لا يحمل دلالةً تُذكر، وإن هذا تراث بالٍ لا تؤمن به، ولا يعني بالنسبة لها شيئًا، وإن ما احتفت به اللوحات من دلالات دينية وتقديس للجمال والبراءة هو الآن في مكانه ومكانته التي يستحقها: جدران المتاحف الصماء.

على مدار أسبوع كنا نجلس ونتحدث كل يوم. بالساعات. كانت هنا بمفردها وحكت لي كيف جابت عدة دول عربية وإسلامية لتتعرف على الحضارة الشرقية. كنا نتكلم ونحن نسير على شاطئ البحر نهارًا، أو نجلس بعد العشاء نحتسي الشيشة التي أصابتها بالجنون الدائخ ونواصل الحديث أكثر وأكثر. نقطع القرية السياحية طولًا وعرضًا وأحميها من نصب بائعي البازارات. كان الكلام يتدفق مني دونما وعي وكأني قد اكتشفت الحديث للتو. وكانت هي تستمع. على الرغم من إنجليزيتها الضعيفة فإنها كانت تنصت. وكنت أقطع حديثي مرغمًا نفسي كي أتصنع الاستماع إليها، وكلامها عن بلدها الصغير بوسط

maktabah.blogspot.com

أوزبا الذي لا أعرف عنه شيئًا، وإخوتها الخمسة، وأمها المرهقة دائمًا، وزيارات أبيها التي لا تنقطع إلى الحانة، وإدمانه مراهنات سباقات الخيل ومباريات الكرة.

ظللنا نتحدث وكان قلبي يخفق خفقانًا كبيرًا. كلمتها عن كتبي، الرواية الأولى، والثانية، والثالثة التي أعمل عليها الآن، وعن نجاح غير حقيقي حققته بين الأوساط الأدبية، قلت كذبًا إن النقاد أشادوا بأعمالي للغاية، وإنني أحد نجوم الصف الأول في الوسط الأدبي هنا، بل وذهبت إلى حد أن نقلت إليها آراءً قيلت من نقاد كبار في أعمالي، والحقيقة أني فقط اقتبست تعليقات بعض معارفي على فيسبوك. حدثتها بالطبع عن نظريات الجمال عند أرسطو وهيغل، عن أفكار جان جاك روسو وأشعار شيللر، عن تماثيل برنيني ورؤى القديسة تيريزا، كل هؤلاء الآلهة الغربيين الذين لم تكن ماري تعرف عنهم شيئًا.

لم تكن تتحدث كثيرًا. تكتفي بالاستماع إليَّ وهز رأسها. كانت مرحة، تلقي النكات في كل مناسبة، وحتى إذا ما تاه الضحك مفقودًا بسبب اختلاف اللغة والثقافة، فإني كنت أرد مزحتها بضحكة مجاملة. ظللت اليوم تلو الآخر أتعجب من عدم معرفتها بأي من هؤلاء الذين أحدثها عنهم بحماس، كانت الفكرة الساذجة التي تبنيتها آنئذٍ هي أن كل الغربيين يعرفون تراثهم ويفخرون به. صدمني جهلها تمامًا كما كان يصدمني جمالها في كل مرةٍ أراها. وجهها المكور وصدرها الثقيل الذي تعجبت كيف يحمله ظهرها المتعرج بطبقاته ذات الانحناءات المثيرة الظاهرة من رداء البحر. يداها كانتا تدفعاني للجنون، وكذلك شعرها حين يبتل تحت أشعة الشمس مخلوطًا بملح البحر.

في اليوم الذي قررت فيه التحرك بخطى مترددة نحو فقدان عذريتي واقتراح أن تعود معي إلى غرفتي كانت ماري قد سافرت دون أن تخبرني.

جن جنوني، وأثارت حنقي بما اعتبرته وقتها تكرارًا لألاعيب الفتيات

maktabah.blogspot.com

الشرقيات اللاتي لا يعرفن الطريق المستقيم أبدًا. تساءلت: هذه الفتاة لا بد وأنها غير عذراء، والقصص التي أسمعها من أصدقائي كل يوم تقول إن شابًا غيري كان يمكنه أن ينام معها بعد لقائهما ببضع ساعات فحسب، الكل هنا يفعل ذلك كما قيل لي، ورغم ذلك لم تسمح هذه الفتاة لعلاقتنا بالتطور على مدار ثمانية أيام، بل وسافرت دون أن تخبرني، وكأن ما شهدته الأيام الماضية من التقاء وقرب بيننا لم يكن يهم. هل استطاعت بنفاذ بصيرة غير متوقع أن تدرك أن كلامي لها عن عفة العذراء لم يكن سوى مدخلٍ لفراشها؟ أم أنها ظنت فعلًا أني مؤمن بهذه المثل وصدقت كل ما قلت؟ أم ربما ببساطة فقدت الأمل في أن آخذ الخطوة وأطلب منها أن ننام سويًا، وفقدت اهتمامها بي لأني لم أكن مقدامًا كفاية؟

أظن أن هذه هي المرة الأولى التي نعتها فيها بالعاهرة.

***

في سنوات العزلة ما بعد الطلاق كانت سلواي الوحيدة لنسيان ماري هي العلاقات النسائية. أدمنت الأمر، وأصبحت أقضي جُل وقتي في تصفح تطبيقات التعارف، سواء المجانية منها أو تلك التي تطلب اشتراكًا شهريًا مكلفًا، وأدمنت فتح المحادثات الكثيرة المتزامنة مع عدة نساء في ذات الوقت. بعضهن أتين لمنزلي وأخريات فضلن الجنس الإلكتروني أو عبر الهاتف. أيًا كان المعروض أقبله دونما ترفع. مع ازدياد وزني المطرد وتحطمي وجمودي آمنت بأني لا أستحق الاختيار. كان كل ما أحاول فعله بوعي أو بدون وعي مني هو أن أثبت لنفسي وللذكرى التي أصبحتها ماري أني أمتلك قدرات هائلة في الفراش، وأني مرغوب، ورجل، وجذاب، إن لم يكن على البعد الجسدي، فعلى الأقل فكريًا وعقليًا.

في الأعوام الثلاثة الماضية - منذ تزوجت ماري بمحمد قابل - عرفت فتيات مضطربات يعشن وحدهن، أو آتيات من محافظات بعيدة، أو

maktabbah.blogspot.com

هؤلاء اللاتي يعشن في ظروف أسرية مستقرة ولكن الشبق يتمكن منهن. قابلت المطلقات اللاتي حصلن على رخصة التحرر من العفة الكاذبة، وتبحثن عن الانتقام من عجز أزواجهن السابقين، وذويهن الذين قذفوا بهن إلى جحيم حياة زوجية كاذبة، وضغوط التربية الأحادية للأطفال، ومعارك الانفصال المريرة. قابلت المتحررات بشعورهن المتموجة وثقوب الأنف والسُرة والسجائر الرفيعة التي تلوث أظافرهن المتكسرة، هؤلاء اللاتي يُقنعن أنفسهن بأنهن أصبحن قساة القلوب كما الرجال لا يبحثن عن الحب أو أي درجة من الشعور، وأن هذه العلاقات تزيد من تحررهن وثورتهن على قيم المجتمع البالية، حتى لو كان كل التحرر الذي أمنحهن إياه هو من رباط الصديري الضيق.

استغللت الشهرة البسيطة التي حققتها كتبي خاصة بعد الجائزة، ودأبت على اصطياد القارئات الحزينات اللاتي كُن يُرسلن رسائل الإعجاب والانبهار. بعضهن كن فعلًا قارئات ملتزمات يُردن مناقشة كاتبهن المفضل فيما كتب، والاستفادة من علمه ونظرته المتعمقة للحياة وفلسفته الأخلاقية المبهرة، وهؤلاء كانت تصيبهن الصدمة حين أبدأ معهن الكلام، خاصة في الساعات الأخيرة من الليل وأنا ممسك بكوب في يدي، وأحدثهن عن ضرورة البحث عن مكنون الروح عبر إشباع الجسد. كان قلبي يخفق مع كل حظر يظهر على شاشة هاتفي لأنه كان يعني مخاطرة مباشرة بسمعتي.. ولكني لم أكترث لأن المردود حين كانت الأمور تسير على ما يرام مع البعض الآخر كان يستحق.

تنازلت كثيرًا عن شروطي الفوقية التي كنت أضعها لنفسي من قبل. ألا أقرب فتاة لم تتزوج، حد أدنى من المشاعر فيما بيننا، الكيمياء والاستلطاف والتفاهم، تنازلت عن شروط الجاذبية والنظافة الشخصية وقراءة الكتب، تنازلت عن احتياجي للحديث والاحتضان قبل وبعد أن ننتهي. ضاجعت فتيات لا تستحم، وفتيات لا تحلق شعور الأماكن الحساسة، وأخريات لا يحلقن شعورهن بالمرة، وأخريات تعملن

maktabah.blogspot.com

في مراكز الاتصالات الحزينة معدومة التهوية وفلاتر التكييفات المسكونة بالجراثيم. جربت لأول مرة شعور عدم الرغبة في الكلام بعد أن أنتهي، وأنا الذي كنت أجثو على ركبتي بين يدي ماري كي أقدم لها كل ما أستطيع من المتعة التي أراها منعكسة في عينيها. جربت فتيات يعانين صعوبة في النطق، وأثداءً غير متساوية الحجم، فتيات بعُقد نفسية وأمراض مزمنة، وبقع داكنة تحت الإبط، وثقوب السيلوليت في بطونهن.

جربت كل شيء وأي شيء فقط لأعرف.. لِمَ تركتني مَن أحببت؟!

كم مرةٍ كنت في غرفة جلوسي تلك، أحدق في ذات التلفزيون الذي أرى عليه الآن أشلاء ماري وهو يعرض في صمت أحد الأفلام الكوميدية الرخيصة، وبجواري فتاة تتحدث عن الحب، وفقدانها الثقة في كل الناس بفضل الندوب الغائرة التي تركها عليها حبيبها. ذلك الحبيب السابق الذي دائمًا ما يكون بالصدفة أول مَن قابلت وأسلمته نفسها - أنا دائمًا الأول أو الثاني على أكذب تقدير - ثم أنظر نحوها بنظراتٍ زائغة بينما يأتيني طنين صوتها وليس في ذهني سوى سؤالين لا يتغيران: ما اسمها؟ وهل فعلا كان أدائي أفضل ممَّن جربت قبلي؟

***

بعد شهور وجدت رسالة منها على فيسبوك. بحثت عني ووجدتني. اعتذرت لي كثيرًا عن اختفائها المفاجئ. «أنت لا تعرف ما مررت به، ولا بأي حالةٍ كنت قد أتيت لهذا المنتجع. لم أكن مستعدةً لأي نوع من الارتباط العاطفي أو حتى الجسدي». أخبرتني بأنها لم تُرد أن تتلوث علاقتنا التي بدأت بحوارات مثيرة ومخلصة حول الفن والتاريخ والدين؛ لتنتهي بنزوةٍ جسديةٍ غير مبررة. أخبرتني بأنها انبهرت من أخلاقي وخجلي وسعة اطلاعي، وسلوكياتي الرقيقة المراعية، وأنها منذ أن عادت إلى بلادها وهي لا تتوقف عن القراءة عن الإسلام، وأنها وجدت فيه إجابات كثيرة عن أسئلة كانت تؤرقها. إحساسها بالضياع

maktabah.blogspot.com

في مراكز الاتصالات الحزينة معدومة التهوية وفلاتر التكييفات المسكونة بالجراثيم. جربت لأول مرة شعور عدم الرغبة في الكلام بعد أن أنتهي، وأنا الذي كنت أجثو على ركبتي بين يدي ماري كي أقدم لها كل ما أستطيع من المتعة التي أراها منعكسة في عينيها. جربت فتيات يعانين صعوبة في النطق، وأثداءً غير متساوية الحجم، فتيات بعُقد نفسية وأمراض مزمنة، وبقع داكنة تحت الإبط، وثقوب السيلوليت في بطونهن.

جربت كل شيء وأي شيء فقط لأعرف.. لِمَ تركتني مَن أحببت؟!

كم مرةٍ كنت في غرفة جلوسي تلك، أحدق في ذات التلفزيون الذي أرى عليه الآن أشلاء ماري وهو يعرض في صمت أحد الأفلام الكوميدية الرخيصة، وبجواري فتاة تتحدث عن الحب، وفقدانها الثقة في كل الناس بفضل الندوب الغائرة التي تركها عليها حبيبها. ذلك الحبيب السابق الذي دائمًا ما يكون بالصدفة أول مَن قابلت وأسلمته نفسها - أنا دائمًا الأول أو الثاني على أكذب تقدير - ثم أنظر نحوها بنظراتٍ زائغة بينما يأتيني طنين صوتها وليس في ذهني سوى سؤالين لا يتغيران: ما اسمها؟ وهل فعلا كان أدائي أفضل ممَّن جربت قبلي؟

***

بعد شهور وجدت رسالة منها على فيسبوك. بحثت عني ووجدتني. اعتذرت لي كثيرًا عن اختفائها المفاجئ. «أنت لا تعرف ما مررت به، ولا بأي حالةٍ كنت قد أتيت لهذا المنتجع. لم أكن مستعدةً لأي نوع من الارتباط العاطفي أو حتى الجسدي». أخبرتني بأنها لم تُرد أن تتلوث علاقتنا التي بدأت بحوارات مثيرة ومخلصة حول الفن والتاريخ والدين؛ لتنتهي بنزوةٍ جسديةٍ غير مبررة. أخبرتني بأنها انبهرت من أخلاقي وخجلي وسعة اطلاعي، وسلوكياتي الرقيقة المراعية، وأنها منذ أن عادت إلى بلادها وهي لا تتوقف عن القراءة عن الإسلام، وأنها وجدت فيه إجابات كثيرة عن أسئلة كانت تؤرقها. إحساسها بالضياع

maktabah.blogspot.com

وفقدانها للبوصلة الأخلاقية وشعورها الدائم بالحزن والعدمية والرغبة الملحة بأن تنهي حياتها. «ليس لديك أدنى فكرة عمَّا مررت به»، كتبت مرةً أخرى. أخبرتني أيضًا أنها تريد أن نواصل حديثنا وكلامنا إن لم أكن أمانع، كما أخبرتني في نهاية رسالتها أنها قد سجلت اسمها في إحدى الدورات التي يقدمها المركز الإسلامي في بلدتها الصغيرة للتعريف بالإسلام، وأنها شديدة الحماس لتلك الخطوة.

أعدت قراءة رسالتها المخبولة عدة مرات. شعرت بالتعجب، ووضعني كلامها في معضلة. متى تغير الوضع من فتاةٍ أجنبيةٍ أحاول اصطيادها لأنام معها إلى فتاةٍ - لسببٍ أو لآخر - قد رأت فيَّ شيئًا يشجعها على دراسة الإسلام. أي إسلام؟ هل كنت غبيًا إلى هذا الحد؟

لم أكن أتمتع بأي مظهر محدد من التدين. كنت حليق الذقن. وقتها تركت شعري الشرقي المجعد يتضخم فوق رأسي ويزيد سمرتي سمرةً. لم أكن أشرب لأن الشراب يصيبني بالحموضة القاتلة التي حذرني الطبيب من أنها ستنقلب إلى قرحة إن لم أتوقف. ولم أكن أدخن لأني مهووس بنظافتي الشخصية. ولم أطلب منها صراحةً أن ننام سويًا لأني كنت خجلًا مترددًا وغير ذي خبرة ولم أرد أن أخيفها. كلامي عن العفة كان مجرد وسيلةٍ لجذبها، فهل انخدعت في هذا كله؟ هل معقول أن تكون بهذا الغباء؟

رددت على رسالتها بكلام فارغ لم أكن أعنيه. فقط أردت أن يظل الحوار دائرًا. كان الفضول قد بدأ يستبد بي، وكانت هذه وسيلتي الوحيدة للخروج منها بصورةٍ أو ربما مقطع فيديو يمكن لي أن أستخدمه فيما بعد. كانت أيضًا تشتيتًا أحتاجه وطبول التوتر تتصاعد دقًا في رأسي وجسدي مع اقتراب انتهائي من الرواية، وخروجي من ظل المجهول إلى ضوء الشهرة والاعتراف.

توقفت مراسلاتنا المكتوبة عبر فيسبوك وأقنعتها بأن نتحدث عبر الفيديو. وعلى مدار المكالمات بدلًا من أن أجد المدخل المناسب

maktabbah.blogspot.com
مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

لإقناعها بخلع ملابسها، وجدت نفسي أمارس الدور الذي توقعته مني وأنا بعد لا أفهم ما يحدث. كان حديثنا المشترك عن الفنون والأفلام والكتب يقل رويدًا رويدًا، وبدلًا منه تزداد مساحة حديثنا عن الإسلام، خاصة حين نتحدث في المساء بعد عودتها من الدورة التعريفية وهي في غاية السعادة، وتسألني بكل حماس أن أصحح لها قراءتها للفاتحة وأذكرها بمعنى السلام عليكم.

حدثتني عن دين السلام، وعن أركانه الخمسة. وكيف أن كل المفاهيم الشائعة بين أهلها عن أنه دين يدعو للعنف هي مفاهيم مغلوطة. كنت أجاريها وأنا لا أستطيع معرفة حقيقة مشاعري، هل أصدق على ما تقول؟ أم أخبرها بأن ما تقوله كلام محفوظ من الكتب؟ أم ربما ما تقوله هو الصحيح وأنا الذي قد ابتعدت عن الطريق منذ أمد طويل حتى نسيت. كنت أجاريها وأشرح لها ما تسأل عنه، وفي بعض الأحيان أماطل أو أتحجج كاذبًا بسوء الاتصال فأقطعه حتى أبحث على الإنترنت عن إجابات لبعض أسئلتها البديهية قبل أن تعاود الاتصال فتجدني جاهزًا بالرد. صدمني جهلي بأشياء بسيطة كنا نتعلمها في المدرسة يوم أن كان الإيمان اليقيني سهلًا، وكنت أعوضه بتفاخري أنا الآخر بمعارفي الموسوعية عن حضارتها التي لا تعلم عنها شيئًا.
استطعت أن ألعب الدور بامتياز، ومع الوقت تلاشت تلميحاتي الجنسية التي كانت غالبًا لا تفهمها، وفرضت هي إيقاع الحوار وموضوعاته.
والحقيقة أنني في بعض الأحيان كنت أقوم من محادثاتنا راضيًا عن نفسي، شاعرًا بأني قد أديت فرضًا دينيًا لمجرد أني قد تحدثت معها وأبهرتها قليلًا بديني الكامل.. وكأني قد أنهيت بضع ركعات لتوي.

مرت ستة أشهر كنا نتكلم فيها كل بضعة أيام، وفي إحداها اتصلت بي فجأة دونما اتفاق مسبق على غير عادتها، وما إن انفتحت الكاميرا حتى ظهرت أمامي وقد غطت رأسها بحجاب وهي تصرخ: مفاجأة!
وكانت مفاجأة بحق. لقد قررت أن ترتديه داخل المنزل كي ترى إن كانت مرتاحة فيه أم لا. وأخبرتني عن خطتها في أن ترتديه رويدًا

maktabah.blogspot.com

رويدًا في الحي وأمام أهلها، وما إن تتأكد من تقبلهم للفكرة ستشهر إسلامها وترتدي الحجاب بشكلٍ معلن. عندما أفقت من الصدمة حاولت أن أستفهم منها: تُشهرين إسلامك؟ هل نويتِ على ذلك فعلًا؟ وكانت إجابتها لي قاطعة وواضحة.. نطقت بالشهادة.

ما إن فعلت حتى أخذت تبكي بحرقة. وجهها في الحجاب ازداد ملائكية، وكانت يداها في الأكمام الطويلة قد ازدادت بياضًا وطهارة وكأنها مغسولة بالضوء لتوها. يدها التي عشقتها منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها. حين بكت وجدت دموعي تسبقني رغمًا عني. وللحظة شعرت بفخر رهيب في أن أنال شرف قيادتها إلى الله. كانت مسئولية كبيرة عن حق.

ما إن هدأ كلانا قليلًا حتى حاولت أن أثنيها عن قرارها، وأن أخبرها بأن الذي تفعله قد يكون تسرعًا، وأن هذا قرار ضخم لا يمكنها التراجع عنه، علا وجهها الغضب واتهمتني بالجنون لأني أحاول أن أثنيها عن الأمر بدلًا من تشجيعها، عكس كل مَن في المركز الذين احتفوا بها احتفاءً عظيمًا، وأتوا لها بكعكة على شكل مصحف حين نطقت الشهادة بالأمس.

شعرت بالخجل، وتراجعت عن كلامي، ثم سألتها إن كانت قد فعلت ذلك من أجل الله وليس من أجلي. وأن هذا هو كل ما يقلقني. طلبت مني أن تؤجل إجابتها عن هذا السؤال لبضعة أيام.

بعد أقل من أسبوع استيقظت على اتصال مستمر من رقم لا أعرفه. أجبت فكانت هي: «أنا في المطار، تعالَ لتقلني».

هرعت إلى هناك غير مصدق. وحين رأيتها واقفةً بين حقائبها على باب صالة الوصول بعباءتها السماوية ووجهها المؤطر بالحجاب.. عرفت أن هذه الفتاة هي التي سأتزوجها يومًا ما. هرعت إليّ وكادت تحتضنني، ولكنها توقفت قبل أقل من خطوة بعد أن فتحت ذراعي لها، وضمت ذراعيها إلى صدرها: «فلنكتفِ بأحضان الهواء الآن». وضحكت. أنستني

ضحكتها المضيئة شعوري بالإحراج.

أخبرتني بأنها أتت لتُعد لي مفاجأة ثانية. إنها تريد أن تراني وتتحدث معي وجهًا لوجه لأنها تعبت من الفيديو. وصارحتني بحبها. وقبل أن أجيب، طلبت مني أن آخذها إلى أحد الجوامع الأثرية. وفي صحن المسجد جلسنا، وأخبرتني بأنها جاهزة الآن للرد على سؤالي.

«لقد كنت أعيش في الضلال. الجاهلية كما عرفت اسمها الآن. اليوم أنا أولد من جديد. كنت أنتظر أن يتقبلني أحد ممَّن حولي. كنت دائمًا أسعى لذلك القبول. لم أكن مجتهدة ولا محبوبة في المدرسة، ولم أكن الأجمل. وفي مدارسنا يكون البحث دائمًا عن الأجمل. لا يمكن أن تنجح أو تتفوق أو تصبح جزءًا من مجموعة إلا إذا كنت جميلًا، رائعًا، أو مضحكًا. غير ذلك فعقابك يكون التنمر الذي يحيل حياتك جحيمًا. تشعر أنك منتهك طوال الوقت، وحياتك مهددة بخوف يلتصق بظهرك كشبح يمتص أجمل أيام الطفولة. وفي سن أكثر تأخرًا، تصبح مطالبًا بتقديم خدمات جنسية لزملائك إذا أردت أن تتفادى مزيدًا من الجحيم. لقد فعلت الكثير الذي أندم عليه. عشت شبابي كما قيل لي إنني يجب أن أعيشه. لم يكن أحد يحترمني. والكل كانوا يتحدثون عني، يقولون عني أبشع الأشياء. ولولا دعم صديقةٍ أو اثنتين، ومنهن كارين ابنة عمي التي حكيت لك عنها، وتفهم إخوتي لكنت قد جُننت. لقد تناولت المخدرات، وسافرت للمنتجعات الساحلية ومارست كل ما يمارسه الشباب هناك من جنون، كنت أظن أن هذه هي الحياة كما قالوا لي. ولكن قلبي كان ينكسر كثيرًا. كثيرًا ما خُدعت. كنت أبحث عن ذلك الحب، بكل جوارحي، كنت أريد الحب والسكينة، ولكنهم كانوا يستغلونني، لفترة، ثم يقذفون بي، وأكتشف أنهم يخدعونني، كنت أصدقهم لأني أريد تصديقهم. لأني لم أكن أتخيل أبدًا أن يخدعني هذا العدد من الناس. الواحد تلو الآخر. لقد شهدت فظائع من البشر لن تتخيلها. لا أريد أن أتذكر كل هذا ولا أن أعود إليه. الحمد لله أني قد أسلمت الآن وصرت إنسانة جديدة، حين أخبروني بأن كل شيءٍ فعلته

maktabah.blogspot.com

قبل الإسلام يُغفر لي وينمحي كأنه لم يكن، شعرت براحة رهيبة ولم أتردد لحظة في أخذ هذه الخطوة. لم أكن أتخيل أبدًا أن هذا ممكن. ولكن ما إن ارتديت هذه الملابس ونطقت بالشهادة حتى ولدت من جديد. لك أنت وحدك يعود الفضل في كل هذا. كنت من القلائل جدًا الذين لم يطلبوا مني شيئًا جسديًا. لقد تحدثنا لساعات وساعات عن كل شيء، ووجدت نفسي لأول مرة كيانًا كاملًا وليس جسدًا فقط. لقد أوشكت على الانتحار عشرات المرات، وحاولت بضع مرات، ولكن بعد أن عدت من هنا لم أفكر في الأمر مرةً أخرى. أنا أحبك، ولا أطلب منك أن تحبني بالمقابل، ولكني أحب الإنسانة التي أصبحتها بفضلك، وهذا يكفيني».

كان من المستحيل بعدها أن أجيبها بأي شيءٍ سوى أني أحبها. لا تسألني إن كنت متأكدًا من مشاعري وقتها أم لا. كنت مسحورًا بكل شيءٍ قالته، ومن هيئتها، ومن رحلتها، ومن ميلادها الجديد. ذلك الانسلاخ التام الذي مرت به، جعلني أراها قديسةً أو ملاكًا. كانت بالفعل تتماهى في نظري مع ماري العذراء التي رأيتها آلاف المرات في اللوحات وتساءلت عن مصدر قدسيتها التي لا تحملها أي امرأةٍ أخرى على وجه الأرض. الآن كانت أمامي ماري التي تخصني، التي تنتمي لي.

لم أكن أدرك لحظتها بأنها لم تكن ماري العذراء، ولكنها كانت الأخرى المجدلية...

***

أرسلت لكارين مترددًا. مذهولًا. رفضت أن أرد على اتصالاتها وطلبت منها أن تكتب لي. ما أخبرتني به عبر الواتساب كان مختصرًا ولكنه كان كافيًا لأفهم: «تزوجت ماري شابًا مسلمًا تعرفت إليه هنا كما تعرف، ثم انتقلت معه إلى إيطاليا حيث كان يقيم لدراسة الدكتوراه، كلما قدمت لزيارتنا في الإجازات كانت تزداد غرابة وعنفًا تجاهنا. تحولت من تلك الفتاة التي كانت سعيدة بتقبلنا ودعمنا لاختيارها بأن تكون مسلمة

maktabah.blogspot.com

ملتزمة لإنسانة رافضة لنا ولكل ما نحيا به. كنا ندرك بالطبع أن ذلك بسبب زوجها الذي كان مطابقًا للصورة النمطية التي محوتها أنت حين عرفناك: الذقن الطويلة والجبين المقطب والنظرة العدائية. وحين جاءت لزيارتنا في آخر مرةٍ مصطحبةً طفلتها كانت حريصة كل الحرص ألا تجالسنا ونحن نشرب، وأنت تعرف كم يحب والداها الشراب، ورويدًا رويدًا أصبحت اتصالاتها الإلكترونية أقل فأقل، وانقطعت عني تمامًا، وحتى والداها لم تكن تحدثهما سوى في المناسبات الدينية الإسلامية، ولم ترد على بطاقات المعايدة التي كانت أولجا ترسلها لها في الكريسماس أو رأس السنة. وخلال العام الماضي بأكمله حاولنا أن نتواصل معها ولكنها لم تهتم بالرد واختفت تمامًا. حتى كان اليوم الذي تلقى فيه فريدريك رسالةً منها تخبره بأنها قادمة لقضاء إجازة عيد الميلاد معنا. كانت مفاجأةً لنا جميعًا، وانتظرنا كلنا قدومها مع ابنتها الصغيرة بفارغ الصبر».

والباقي عرفته من نشرة الأخبار.

***

قصة التقارير والجائزة هذه قصة ملتبسة، وقد كثرت حولها الأقاويل حتى إنها باتت مزعجة لي للغاية. بعضهم قال إنهم هددوني بفضائح جنسية، وآخرون قالوا إن نشأتي الفقيرة وطموحي كانا الدافع وراء محاولتي الوصول إلى النجاح والأموال بأي طريقة، كل هذا لم يكن حقيقيًا، وربما يكون هذا الكتاب فرصةً جيدة كي أوضح ما حدث.

إذا ما اطلعت على الإنترنت ستجد الكثير من المعلومات عني وعن سيرتي الذاتية. لا بد أنك تعرف أنني درست الفنون البصرية، متخصصًا في تاريخ الفن، حتى تم تعييني محاضرًا بالجامعة في ذات التخصص، وبات واضحًا لي ولمَن حولي أن موهبتي في الرسم محدودة، وأن الجانب التاريخي والنظري هو ما برعت فيه، فأكملت التدريس بالجامعة طوال سنوات، إلا أنني كنت في ذلك الوقت قد انجرفت وراء

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

هوسي بالكتابة الروائية، فآثرت استكشاف قدراتي فيها، مشتغلًا قليلًا بالصحافة الثقافية، ومتسكعًا وسط الدوائر الأدبية المختلفة.

على مر السنوات وجدت نفسي وسط هؤلاء الذين يرفضون الاستحمام، ويتشدقون بحسن الكلام، وقراءة الموسوعات المهترئة اهتراء أحذيتهم المقشرة وبناطيلهم المترهلة. هؤلاء الذين يمسكون بالمسابح وهم يحاولون الوصول إلى كنه الوجود بين أفخاذ النساء، هؤلاء الذين يظنون التجريب طريقًا للوصول إلى الجديد، وكسر القوالب، ويظنون أن جلستهم هي محور الكون، والكاشفة عن مستقبل الأدب، والبقعة التي ستضيء العالم، هذا الجهل، والإيهام الذاتي الذي يصل إلى العدم.

كل ذلك كان يثير حنقي، منذ بدايات مجالستي إياهم وأنا لا أزال في الجامعة وحتى صدور الروايتين العظيمتين اللتين قمت بكتابتهما على مدار أعوام. ورغم أني احترفت جلسات المقاهي، وكتبت مقالات مجاملة لا حصر لها في مجلات صغيرة ومواقع مقروءة، ولا يخلو فيسبوك ولا تويتر من إشاداتي بالغثاء الذي يكتبونه، إلا أني لم أصل أبدًا للمكانة التي تسمح لهذا الوسط المتعفن بالاعتراف بي.

يوم أن أعلنت نتائج الجائزة الكبرى ولم تفُز روايتي الثانية أيضًا كدت أجن، سرت على غير هدى والغيظ يعميني حتى افترشت رصيفًا وجلست أراقب المارة في شرود وبيدي قطعة من المعجنات البائتة. جلس بجانبي شخص لا أعرفه، وتحدث معي لساعات عن مدى ظلم العالم، وكيف أن لا شيء يسير كما يجب أن يكون، وأن الفنان، مهما بذل من روحه ونفسه كي يُخرج أفضل ما عنده، سيجد دائمًا مَن يحاولون تحطيمه، سواء جمهور جاحد يستسهل النقد والملل، أو لجان تحكيم إما مرتشية أو فاسدة. أخبرني بأنه قرأ روايتي وأنها بالطبع أفضل ما كُتب هذا العام، ولكنها بالطبع أيضًا لن تفوز؛ لأني بدون علاقات، ولست مشهورًا، ولا أتصدر أرفف الأكثر مبيعًا، ولا يوجد

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

أشخاص بعينهم يرون أني أستحق أن أتصدر الآن.

أثناء حوارنا العفوي كنت أنظر بإعجاب لذلك الشاب الذي يملك هذا القدر من العلم والدراية بكل ما يحدث، وكيف يستطيع أن يضع يده على الجرح ومكمن الأزمة بهذه الدقة، وأتساءل بيني وبين نفسي عن الصدفة التي رمت به أمامي. سألته إن كان كاتبًا، أو مشتغلًا بالكتابة بأي صورة، فابتسم برزانة وأخبرني بأنه قارئ محترف.

تبادلنا الأرقام والحسابات الإلكترونية، وما هي إلا أيام حتى دعاني إلى مكتبه لأشرب معه القهوة. ولم أحتج لأكثر من العنوان لأعرف مَن هو وماذا يشتغل.

كانت طلباته لي واضحة ومحددة.. ولم أتردد لحظة.

والمقابل؟ ستفوز روايتي القادمة بأكبر جائزة مالية تمنحها إحدى المؤسسات الثقافية الدولية التي تتشكل لجنتها هنا، هذه الجائزة كفيلة بأن تؤمّن لي مبلغًا ضخمًا يكفيني لسنوات وربما عقود إن استثمرته ولم أسرف، كما ستضعني داخل دائرة الضوء.

والثمن؟ ستكون المرة الأولى والأخيرة التي أفوز فيها بجائزة. ولن أترأس يومًا لجنة تحكيم أو مهرجانًا. لن أتبوأ منصبًا رسميًا ولن تكون لي أي حظوةٍ عند أي أحد. كان قدري أن أبقى دائمًا في الظل ولا أتصدر الواجهة أبدًا، وكم هو قاسٍ ذلك الحكم.

والمطلوب؟ الاستفادة من هذا الفوز الذي سأناله ما إن أنشر عملًا جديدًا في تعظيم شبكة علاقاتي التي ستضمن لي استمرارية العمل والشهرة، وهو ما سيزيد من اطلاعي واحتكاكي بالوسط، ويعود بالفائدة على مهمتي معه بالطبع.

أخبرني كل هذا بوضوح وآلية كأنه خاض هذا الحوار مائة مرةٍ من قبل. كان يتحدث بوجهٍ جامدٍ واختفت الحميمية التي كان يكلمني بها على الرصيف. كان جموده المهذب يجبرني على الإنصات كرياضي

maktabah.blogspot.com

نجيب يستمع إلى نصائح مدربه. أخبرني بأنه كان يمارس هذا الدور بنفسه ولكنه أصبح منشغلًا بعد ترقيه الأخير، وأنه يفضل أن يقوم أحد أبناء الوسط بهذا الدور الآن. «أثق فيك ثقةً كبيرة، وأعلم أنك تستحق هذه الفرصة لأنك موهوب بحق».

كنت حزينًا أن موهبتي لن تحصل على المزيد من الفرص مرةً أخرى. وكأنه حكم بالإعدام على كل ما سأكتبه فيما بعد. ولكن كانت المسألة حاسمة منذ البداية. الفوز المضمون الآن أم أظل أحاول طوال حياتي مواجهًا السراب والإحباط والتكتلات المنكفئة على ذاتها؟ هذه العلاقات والشبكات كيف سأبنيها وأنا لا أحد - مجرد خيال لا يرونه - إلى متى كنت سأنتظر الفرصة المستحقة التي لا تجيء؟ ألا تكفي السنوات التي عانيت فيها التجاهل المتعمد وأنا أشاهد أقرانًا كانوا يأتون لاستشارتي في شئون الكتابة وهم يحصدون الجائزة تلو الأخرى؟ وتتلقفهم دور النشر من البلاد الأخرى، وتصدر كتبهم في طبعات فخمة منمقة بأغلفةٍ لامعة؟

أصبح من حقي أن أغتنم كل فرصةٍ تأتيني. خسة تقول؟ وهل تفرق الخسة عمَّا يفعلونه هم فيما بينهم؟ أم لأني فقط ذهبت ناحية الجهة الأخرى، الجهة التي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، فأسمَّى خسيسًا، رغم أنهم يقومون بذات الشيء فيما بينهم ولكنهم يسمونه «احتفاء بمشروع روائي مميز».

انكببت على عملي الجديد بكل ما أوتيت من إخلاص. في السنوات الأولى كان يقتصر دوري على جمع المعلومات، وكتابة لمحات شخصية وانطباعات، والتأكيد على المعلومات الواردة من مصادر أخرى، ثم مُنحت خلال السنوات الأخيرة سلطةً مطلقةً لم أكن أتخيل أن أنال شرفها: التوصية.

كنت أكتب التقارير نعم، وكانت تأتيني تقارير أيضًا، مختومة ومرتبة في تناسق غير معتاد من الجهات الرسمية. كان بها توجيهات وفي

maktabah.blogspot.com

بعض الأحيان استعلامات. وطلبات بالتوصية. مَن أرشحه للجنة التحكيم الفلانية؟ ما هي الأسماء التي أوصي بها لرئاسة المهرجان القادم؟ هل هناك غضاضة في منح سيدة الجائزة الأدبية الأكبر هذا العام؟ هل هي عاهرة أم ربة منزل محترمة؟ وطبعًا السؤال الأهم الذي كان يأتيني رأس كل عام: أهم خمس روايات أرشحها للفوز وفقًا للسيرة الذاتية لكتابها وتوجهاتهم المعروفة بالوسط.

في البداية حين سألوني أن أرسل تقريرَ توصيةٍ بالأسماء والأعمال التي تستحق الفوز في المسابقات والمهرجانات المحلية، أصبت بالخيبة حين كانت تعلن أسماء الفائزين ولم تكن تلك التي أوصيت بها، ولكن رويدًا رويدًا بدأت توصياتي تظهر في الصحف وعلى العلن وفوق مسارح التكريم بحذافيرها، وهنا عرفت أني قد حزت ثقة أولي الأمر، واطمأننت إلى أني قد استطعت بعلمي المحدود أن أتوافق مع رؤيتهم.

كانت مسألة متشابكة بحق. لم يدرك أحد من المضارين أن أحقاد دوائرهم الداخلية هي التي قضت عليهم. كنت أرجو رؤية واحد فقط، لا يحقد أو يلسن أو يتلهف، أقسم إني كنت قد منحته بدلًا من الجائزة عشرًا. ولكن لم يصمد واحد منهم في الاختبار أبدًا. كان اختياري للجان التحكيم ومن ثم الفائز اختيار المخرج لممثليه في المسرحية، ويهدف إلى كسر تلك الدائرة وتشجيعها على أن تتعفن وتأكل نفسها بنفسها بسرعة أكبر، وحرفية أفضل.

أخيرًا نلت فرصة معاقبتهم جميعًا، عقابًا استحقوه بلا شك، بأن صرت أنا الإله الذي يرسم على وجوههم خيبة الأمل المفنية يوم تُعلن الجوائز. صرت أنا الإله الذي يلعنونه ليل نهار - دون أن يعرفوه - كلما تولى مَن لا يستحق قيادة فعالية ثقافية أو فنية. وطوال أعوام كنت سعيدًا بتحريك خيباتهم كالماريونيت، وتحطيم إيمانهم المخدوع بمواهبهم، أراه يتهشم أمامي على المقهى وبعضهم يكاد يبكي من القهر وهو يشعر بأنه الأجدر بالفرصة التي حصدها مَن يعلم الكل أنه بلا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

موهبة ولا علم.

شظايا الغل والحسرة تتفجر بداخلهم وهم يقرأون تصريحات كاتب فاشل تتصدر صورته صفحات الجرائد والمواقع الإلكترونية الثقافية في حوارات مطولة بعد فوزه بجائزة مهمة. أو حين تتصدر كتب البلهاء قوائم المبيعات. هؤلاء الأغبياء والمرضى النفسيون. كان ذلك كفيلًا بدفعهم للجنون.

قبل أن تسارع بإدانتي اسمع تبريراتي لآخرها: كلهم يستحقون ذلك الخطأ. إن كنت أنا الخلل في النظام فذلك لأن هناك عطبًا أكبر في هذا النظام، فأنت لا تُحمل الخلل الشاذ المسئولية عن فشل المنظومة التي أنتجته. هؤلاء المتعفنون، محدودو الموهبة والتفكير والرؤية والأفق، لماذا يستحقون فرصًا عادلة؟ لم أكن أنا سوى انعكاس لما هم عليه، ولما يمارسونه منذ استيقاظهم الغافل وحتى غفلة منامهم. وإذا كنت تظن أن ما فعلته ينقص من قدري كفنان حقيقي يؤمن بقيم الحق والخير والجمال، فذلك لا يعني سوى سذاجتك المفرطة، وقدرتك على إطلاق الأحكام الأحادية وجهلك بالإنسان، جهل لا يقل خطورةً وإفراطًا عن جهل هؤلاء «المثقفين» حين يجلسون منتفخين بكروشهم المهترئة يقيمون البشر والفنانين، ويضعونهم في قوائم من العظيم للأعظم، ويفرقون بصلافة بين المجتهد والموهوب. أنا لم أفعل شيئًا سوى وضعهم في النصاب الصحيح، والرسمي، لقد قمت بتقسيمهم، وتفعيل تقسيماتهم، بشكل واضح وعادل.

أنهيت الرواية الثالثة بعد عامٍ من بدء عملي معهم. نُشرت، وفازت بالجائزة كما وعدوني، وفي يوم وليلة انتقلت من ذلك الشاب ثقيل الظل الذي يتواجد في مختلف الفعاليات الثقافية ولم يقرأ له أحد، إلى نجم الوسط الأدبي الذي لا يتحدث أحد عن أحدٍ سواه. كان كل شيءٍ يحدث بصخب لا أستطيع استيعابه، وأكرمني الله أخيرًا بالعدل الذي كنت أستحقه بعد سنوات من التعب والصبر. وتوج هذا النجاح بزواجي

maktabah.blogspot.com

من ماري بعد الجائزة بعام.

بعدها واصلت مهمتي لسنوات حتى أتت نهايتها بعد طلاقي بعامين.

كان السبب في ذلك هو الاكتئاب المزمن الذي داهمني بعد الطلاق، والذي جعلني أهمل في تقاريري وترشيحاتي، وهو إهمال زاد من خطورته إهمال رؤسائي في الجهاز - لا أدري إن كانت تسميتهم برؤسائي هي التسمية الصحيحة فنحن لم تجمعنا علاقة رسمية أبدًا - فتوقفوا عن تدقيق وتوثيق المعلومات من بعدي وباتوا يأخذونها كمسلمات، وأتى الروتين كعادته ليهدم كل منظومة منتظمة تسير من تلقاء نفسها، الروتين والاعتياد والملل والثقة العمياء، ثقتي بنفسي وثقتهم بي.

جاءت السقطة الأخيرة حين أوصيت بمنح جائزة كتاب العام لأديبة شابة كنت أعرف عنها أنها موالية ولا تثير المشاكل. تمتلك جسدًا عظيمًا ووجهًا مثقلا بكمية رهيبة من المساحيق، ولم أحتج لكثير من الوقت حتى أتأكد من أنها ليست عاهرة لأن أيًا من المتفاخرين بغزواتهم الفخذية لم يجزم بنومه معها. كثيرون ادعوا ذلك ولكن بنظرة واحدة على حالهم البائسة أعرف كذبهم، ولذلك فإنها لم تكن لتسيء لسمعة الجائزة من الناحية الأخلاقية، وفي ذات الوقت تحقق الغرض المطلوب، فهي الأكثر رداءةً وفقرًا في كتابتها هذا العام، حيث جمع كتابها ما بين العامية والفصحى الركيكة، والجمل الفقيرة، وتفاهة الأفكار، وانعدام الرؤية بمشروع أدبي واضح، والإفراط في استخدام الكليشيهات السنتمنتالية الرخيصة، والشخصيات المقولبة والمسطحة.

وكانت هذه بالضبط هي المعايير التي أتبعها في اختياري للفائز، إذ تأتي ليس فقط من رغبتي في دحض كل الجالسين على المقاهي الثقافية، ولكن أيضًا تنفيذًا لرؤية مَن أسندوا لي المهمة: الاحتفاء بالرديء سيؤدي حتمًا إلى غلبته، ومن ثم النزول بسقف الوعي إلى أدناه حتى يساوي الأرض، فيسهل الإحكام على الحشرات، ويستمر

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

تدفقها نحو البالوعات لتتعود الظلام ولا تحاول الخروج إلى ضوء المعرفة مرةً أخرى.

ولكن قلة خروجي من المنزل بعد الطلاق، وندرة جلوسي على المقهى، وثقتي الزائدة في أحكامي عليهم، كل ذلك جعلني أفوت معلومة شديدة الأهمية، معلومة لم تكن متداولة ولا معلنة، ولا حتى كشائعةٍ مستترة، معلومة أجهزت على كل شيء: إنها سحاقية.

فوزها بالجائزة جرأها أن تعلن عن ميولها تلك. لا أدري كيف، ولكن بلاهتها لا بد قادتها لهذه الفكرة الحمقاء.

احتفت بها وسائل الإعلام كافة في الخارج، وأصبحت في يوم وليلة مركزًا لبقعة ضوء ظلت تكبر أكثر ممَّا تخيلنا جميعًا، وأكثر ممَّا تخيلت هي، حتى إن أباطرة الصحافة والكتابة الغربية ترجموها ونشروها واحتفوا بها، ووافقوا طوعًا وكرمًا أن تصطبغ مقالاتهم ومراجعاتهم عنها بصبغة الصوابية السياسية المقيتة، فتغاضوا عن فقر إنتاجها في مقابل تعزيز وضعها كرائدة في المجال الحقوقي، ليكرموا ريادتها في فتح الباب أمام كل مَن خفن من قهر القيم الشرقية البالية وصمتن عن الإعلان عن ميولهن الجنسية.

ودون الدخول في تفاصيل لا داعي لها، أنهى فوز مرام رحلتي مع الجهاز وختمها بأسوأ ما يمكن. وكانت المعجزة أنهم لم يجروا بي إلى سلسلة مفنية من العقاب على خطئي. ظللت أحاول رأب الصدع والعودة لنيل رضاهم، ولكن هيهات فقد تأذى مَن تأذى، وظل شبح الخوف من انتقامهم يطاردني كل لحظة.

فقد كنت أنا السبب الأول لهذا كله، وكان يجب أن يتم تصحيح هذا الوضع بأسرع ما يمكن.

سوف أقابل هذه الكاتبة الحزينة فيما بعد ولكني لن أعرفها على الفور بسبب وجهها المشوه تمامًا من أثر ماء النار الذي ألقاه أحد المتعصبين - أو مَن قيل إنه من المتعصبين - عليها وهي خارجة من أحد

maktabah.blogspot.com

المؤتمرات الحقوقية التي كانت تشارك بها.

***

حين وصلت مع ماري إلى بلدتها لأول مرة كانت كارين هي أول مَن استقبلنا، عندما بدت مصدومةً ما إن وقعت عيناها عليَّ كان واضحًا من نظرتها أنها قد سقطت في حبي منذ الوهلة الأولى، أو هكذا قالت ماري، ولم أصدقها موقنًا أنها مجرد غيرة فتيات ساذجة. ولكن كارين، تمامًا مثل بقية عائلة ماري، كانت تظن أنها ستجدني بجلباب ولحية، ممسكًا بالسواك بين أسناني ونازلًا من على ظهر جمل، ولا أستطيع تحدث الإنجليزية، وبالطبع لا أستطيع تحدث لغتهم على الإطلاق.
وحين وجدتني بهيئتي المتحضرة تلك شعرت بالصدمة ولم تستطع أن تخفي إعجابها بي.. هكذا أصرت ماري مرةً أخرى.

من إشارات ماري المبهمة في ذاك الوقت وتفكيري المنطقي، كنت موقنًا أني لست الأول في حياتها، ولذلك تعجبت من إصرار والدها على أن أسافر وأقابله ليتعرف عليَّ، وأن أتقدم لخطبة ابنته رسميًا. لماذا لا ينظرون لزواجنا باعتباره علاقة أخرى من علاقاتها؟ لماذا فجأة تظهر عادات وتقاليد متعارف عليها ما إن تأتي سيرة الزواج؟ وماذا عمَّا قبل ذلك؟ قررت ألا أتسرع في الحكم على هذا العالم الجديد الذي أنا مقبل عليه.

كنت منبهرًا بمشاهدة كل شيءٍ حولي. رغم قراءتي المستفيضة لكل الأعمال المترجمة ومشاهدتي للأفلام، والتي لا أفضلها كثيرًا، فإنها كانت المرة الأولى التي أسافر فيها للخارج. أتى القرار في لحظة اندفاع احتفالية بينما كنت أتكلم مع ماري عبر الفيديو معلنًا لها فوزي بالجائزة العظيمة. «لقد فزت بأكبر جائزةٍ في الشرق الأوسط!» أعلنت بفرح. بكت من السعادة، واستجبت لدموعها بعرضٍ كريم: «سآتي لزيارتك الشهر القادم».

الألوان والروائح والطرق النظيفة والأمطار والمباني الزجاجية

maktabah.blogspot.com

والأضواء في الليل وطعم الأكل وصوت الكعوب على الشوارع المرصوفة بالحجارة، كان كل شيءٍ كاملاً، وشعرت بفرقٍ شاسعٍ ما بين هذه الدولة الهادئة على حدود القارة بساحلها الخلاب وطيور النورس التي تحلق في سمائها طوال الوقت، وبين البالوعة البشرية التي أتيت منها. كنت أشعر بالفضل الكبير للقدر الذي منحني هذه الفرصة ووضع ماري في طريقي.

كان وجودي في بلدتها الصغيرة فرصة لأستكشف العالم كما لم أفهمه من قبل. استطعت وأنا هناك أن أزور المتاحف، وأشاهد لوحات لم أرَها سوى مستنسخات باهتة في طبعات حزينة وبأحجام أصغر من حقيقتها في الكتب أو على الإنترنت. حين وقفت أمام إحدى لوحات رامبراندت القليلة الموجودة خارج هولندا كانت سعادتي لا توصف، وقفت مشدوهًا وفاغرًا فمي وأنا لا أستوعب أني أقف أمامها بينما أكاد أشم رائحة ملابسه الملطخة بالزيت واللون. كانت لحظة تحول كاملة بالنسبة لي.

كان كل شيءٍ يسير على ما يرام إذن. كانت ماري هي أجمل مَن قابلت في حياتي، واستطاعت أن تغير مفهومي ونظرتي نحو الكثير من الأشياء. كنت وقتها لا أزال أنبهر بكل ما أراه، وكل ما أشمه، وأكاد أقبل أحجار المباني والأشجار التي كانت خضرتها تؤلم عيني بعد أن اعتادت الأصفر بكل درجاته الترابية. الشمس حين تشرق هنا تكون بمثابة إعلان بهجة، عكس شمسنا القاحلة، والوجوه المحبطة والكئيبة طوال الشتاء هي ذاتها التي تشع فرحة حين تراها. كل شيءٍ هنا خُلق بمقدار الكمال. حين أخذتني ماري مع أبيها إلى أعالي الجبال وسرت وسط غابة لأول مرة في حياتي، كان قلبي ينسحق في كل خطوة كانسحاق أوراق الشجر تحت قدمي. عرفت يومها أن الله موجود. وأن الجنة موجودة.

maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

هناك، في الغابة، وأشعة الشمس تصارع أفرع الشجر الكثيفة لتمر في خيوط مضيئة تسقط على يدي ماري فتنثر النور الذي غطى عيوننا وأفواهنا، هناك فقط، في تلك اللحظة، عرفت أني لم أقرأ كتابًا ولا أسمع نغمة واحدة أو حتى أشاهد لونًا في حياتي.

عرفت يومها أيضًا أن السبيل الوحيد لاستيعاب الماهية الحقيقية لأي عمل فني هو معايشة البيئة التي عاش فيها مَن خلقوا هذا الفن. كنت طوال سنوات الدراسة، كل عمري تقريبًا، أشاهد اللوحات وأذاكرها وأبتلع تفاصيلها، ولكن اليوم أدرك أني لم أرَها أبدًا، شاهدتها ولكني لم أرَها. لقد فهمت كل شيء. فهمت وشعرت بكل شيء. وكأني أبدأ حياتي من الصفر. هذه هي لحظة الميلاد الحقيقية، التي فيها أتقمص روح برنيني وهو ينحت تمثال نشوة القديسة تيريزا. اليوم فقط فهمت معنى كلمات شكسبير حين جلس على حافة النهر ليكتب قصائده. لا شيء، حقًا لا شيء على الإطلاق، يضاهي هذه اللحظة. أردت أن أعود ركضًا وأقرأ كل كتبي التي قرأتها في حياتي من جديد. أن أدرس اللوحات من جديد. كنت كالعالم المجنون في الأفلام الذي يأتيه الوحي فجأة فيفهم كل أسرار الكون من تفصيلة صغيرة تفتح عينه على كل شيء، وكأنه لم يكن يرى أبدًا من قبل.

وضعت مقطوعة موسيقية أحبها في أذني، وتركتها خافتة بحيث أستطيع الاستماع إلى مَن حولي، وفي خفوت تام ونعومة كاملة تداخلت معها أصوات ماري وأبيها، والعصافير والأشجار المتيبسة، وخرير الماء الذي يتدفق بجوارنا، وحين رأيت سنجابًا يركض نحو بندقةٍ خفق قلبي وانحدر خلفهما.

وكنت أقف هناك ليس وحدي.. ولكن ممسكًا بيد فتاة أحبها.

كان ذلك اليوم هو قمة الكمال التي وصلت لها في حياتي.

***

في تلك الزيارة أيضًا كانت عواصف الشك قد بدأت تتخبط في جنبات

maktabah.blogspot.com

نفسي دون حائل، وكان عراكنا في تلك الزيارة الأولى من أسوأ وأقذر ذكرياتنا معًا، لا أكاد أصدق أننا تزوجنا بعد ذلك العام المرير. ماذا حدث؟ ببساطة تلبست طاقية شيرلوك هولمز وقررت أن أتقصى عن كل الخطايا المدفونة في ماضي ماري. لماذا فعلت ذلك لا أدري، ولكن كارين ساعدتني كثيرًا. كانت الفكرة بالنسبة لي مبررة وفي غاية البساطة: لقد عرفت ماري فجأة. تطورت علاقتنا فجأة. أسلمَت فجأة. قدمت إلى بلدي فجأة، وها أنا في زيارتي الأولى لبلدها لأتعرف إلى أهلها، وأضع أمامهم خطة زمنية تنتهي بعد عام أو أكثر قليلًا بزواجنا. ولكن، مَن تكون تلك التي سأتزوجها؟

في إحدى الصباحات التي تلت وصولي بأيام بسيطة، توجهت ماري لعملها الصيفي في محل الملابس، وقررت كارين أن تستغل اليوم المشمس وتدعوني إلى كوب قهوة في أحد المقاهي المطلة على ميناء اليخوت بالمدينة. هناك جلسنا، تعكس المياه رمادية عينيها الغامضتين، وبمنتهى البراءة بدأت تدس السم في عسل الكاكاو الذي ناولتني إياه.

- هل حكت لك ماري عمًا كانت عليه حياتها قبل أن تسلم؟

سألتني بإنجليزيتها الممتازة ببساطة ونحن نعود إلى طاولتنا حاملين كوبينا. نظرت لها بتساؤل وأنا أعقل ردي الذي لا بد سيأتي من غيرتي على ديني العظيم.

- لا. هناك قاعدة دينية وأنا ملتزم بها ألا نسأل أبدًا عمًا كان قبل الإسلام. الإنسان يولد جديدًا حينما يدخل الإسلام وكأنما حياته من قبل لم تكن.

- أتفهم قصدك. هذا المفهوم لديهم في المسيحية، إعادة الميلاد.

- لديهم؟

- آه. أنا لا أؤمن بشيء. عائلتنا كلها كذلك. ماري كانت أكثرنا شططًا بالطبع. كنا نذهب إلى الكنيسة أيام الآحاد كنوع من الطقس الاجتماعي

maktabbah.blogspot.com

لا أكثر. ما إن نتخطى طور الطفولة حتى نبدأ في استيعاب الأمور كما يراها أهلنا عن حق. في البداية يشعرون بالخجل ربما من تعريفنا بمدى تفاهة الأمر كله، ولكن ما إن ندخل نحن في سنوات الجنون حتى تتكشف لنا كل الأشياء دون مواربة.

صمتت لبرهة قبل أن تواصل.

- ينتابني فضول أن أسألك: أليس منطقيًا أن تعرف مَن ستتزوج؟ هل تظن أن كلامكما عبر الفيديو طوال العام الماضي كان كافيًا لأن تعرفها وتعرفك عن حق؟

تجاهلت سؤالها وأنا أنظر نحوها بتركيز.

- ومتى تبدأ هذه السنوات يا ترى؟ عند البلوغ؟

- وربما قبلها. عند ماري كانت من الثانية عشرة ربما. لقد بدأت مبكرًا جدًا عن بقية شلتنا.

- كانت لديكم شلة إذن؟ من أبناء العمومة؟ عائلتكم كبيرة ومترابطة كما فهمت من ماري.

- يا إلهي! بالطبع لا، أن نتصادق مع أبناء عمومتنا! في عرفنا هذا وكأنه زنا محارم. كنا مجموعة من الأولاد والبنات أصدقاء من الطفولة وحتى وقت قريب. الآن تفرق الكل بعد أن تخصصنا في الدراسة.

ظللت أنظر لها بترقب شديد بينما هي تطالع البحر بين الحين والآخر. وقتها لم أفهم إن كانت ترسل لي إشارات خفية وترمي بالدلائل والإيحاءات أم أنها تتحدث بتلقائية. إنني أكذب الآن، الحقيقة أنني وقتها لم أتساءل حتى إن كانت تقصد شيئًا بكلامها هذا، كل ما كان يسيطر على أفكاري المتلاحقة هو التيقن من كل فكرة تقولها. كنت أسير معميًا وراء الدلائل التي تزرعها الجملة تلو الأخرى. كانت كلمات مثل «أكثرنا شططًا»، و«بدأت سنوات الجنون مبكرًا» و«زنا المحارم»

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

تنير مصابيح حمراء تضوي بإنذار في رأسي دون أن تصمت.

شعرت بصراع ما يصعد بداخلي مثل بركان خامد تحاول حممه شق سطح الأرض.

قررت أن أغير دفة الحوار.

- أنتِ تحدثينني عن ماري منذ أن جلسنا ولم تتحدثي عن نفسك أبدًا.

طالعت البحر مرةً أخرى ثم نظرت نحوي. تصمت للحظة قبل أن تتكلم.

- ليس هناك الكثير الذي يمكن أن أحكيه لك. حياتي عادية للغاية وهادئة. على عكس ماري أنا كنت منغلقة تمامًا، أقضي وقتي بعد المدرسة في مساعدة أمي في محل الملابس، ثم أعود بعدها للمذاكرة. كانت الوحدة في النهاية ذات عائدٍ مجزٍ، حصلت على منحة تفوق ودخلت جامعة العاصمة، أعرق جامعة هنا، لأدرس علوم الأحياء. وهناك قابلت شخصًا وأحببته، وكان أول مَن أعرف - وأشارت بعلامات التنصيص - بالمعنى المفهوم. يا إلهي! لا أصدق، كنت قد تخطيت التاسعة عشرة وأنا لم أزل عذراء، ولا زلت معه حتى الآن، ولكن علاقتنا مضطربة، ولا داعي لأن أزعجك بتفاصيلها الآن. هل جعت؟ هناك مكان رائع يقدم شوربة البط المدخن، يجب أن تجربها.

***

متى هاجمني الشك لأول مرة؟ ربما في جلستي تلك مع كارين. رغم أني تجاهلت الأمر برمته، أو حاولت فعلًا. فور أن عدت إلى ماري احتضنتها بقوة أمام والديها وأمام كارين، إلا أن مسافة ما كانت قد خلقت بالفعل بين جسدينا المتلاصقين، ولم يمر وقت طويل إلا وقد بدأت بعض الأمور تظهر لتعكر صفو أيامي الأولى معها في أوربا.

في مساء يوم لقائي بكارين استرعت انتباهي صورة معلقة على حائط غرفة الجلوس في بيت أهل ماري. كانت صورة لها في عيد ميلادها السادس عشر وقد وقفت شبه عارية في ملهى ليلي. كعادتي سألت

maktabah.blogspot.com

بلطف عن الصورة وظروف التقاطها، ولكن بداخلي كنت أنظر لها برفض وحسد شديدين. أخذت أنظر لها وأنا أفكر في كل مَن رآها ذلك اليوم. وكل مَن يراها حتى اليوم معلقة على الحائط حين يدخل إلى هذا البيت رغم أنها قد أخفت هذا الجسد عني وعن غيري بعباءاتها الطويلة التي تخيطها لها سيدة إيرانية من جالية المركز الإسلامي. شعرت بأن جسدها منتهك. وأنها مهما حاولت أن تخفيه فإن الوقت قد فات. كيف تخفي جسدًا قد انطبع بكليته فوق عشرات الأجساد التي عرفته من قبل؟ بتفاصيله. برائحته وعرقه وسوائله؟ كيف تخفيه وهناك تاريخ موثق بالصور والذكريات المنطبعة في أذهان الكثيرين؟

بالطبع الإنسان يولد جديدًا بعد إسلامه كما قالت، ولكن هذا من الناحية النظرية الإيمانية الجميلة التي تتجلى خلالها كل القيم الحسنة التي يدعو لها الدين، أما الواقع فهو أني لن أستطيع أن أخفي جسد هذه المرأة التي ستصير زوجتي فيما بعد عن الآخرين أبدًا، وسيظل منتهكًا أبدًا، والأهم، كم انتهك فعليًا في غير موضع الصورة. خارج إطار هذه الصورة الصغيرة، كيف كان يستخدم؟ كم من متعةٍ منح لكَم من الأشخاص قبلي؟ شعرت بالغليان والفكرة تتصاعد في رأسي، وشعرت بأذني تسخنان رغم ابتسامتي الصفراء المتسامحة التي لم تغادر وجهي طوال تواجدي مع أهلها.

كانت علاقتي مع والديها تسير على ما يرام. فريدريك وأولجا. ومع إخوتها الخمسة أيضًا كانت تنبني شيئًا فشيئًا.

«هذا الولد هو أفضل مَن قابلتِ في حياتكِ يا ماري، إياكِ أن تتركيه». كان فريدريك يقول لماري بين كل مناسبةٍ وأخرى. مع الوقت لم أعد أصدق حرفًا ممَّا يقول. بالرغم من بساطته في التعامل وحتى ضعف شخصيته البادي في الظاهر، إلا أنه كان يحمل تفكيرًا آخر أستطيع أن أشعر به.

maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

اعتدنا السير وسط الغابات لساعات. كان يعشق النزهات سيرًا وانفرجت أساريره حين وجدني متحمسًا لها أنا الآخر.

في إحدى تلك النزهات تحدث معي ببعض من الصراحة الخادعة: «حين علمت أن ماري غيرت ديانتها بسببك، أو أصبحت معتنقةً لدين بعينه لأكون دقيقًا، كرهتك. وظللت شهورًا لا أتحدث معها. ولكن غريزة الأب بداخلي كانت أقوى مني، ولم أستطع أن أبتعد عنها كثيرًا. إخوتها أيضًا استمالوني كي أنهي هذه القطيعة. لم يكن ذلك الموقف لأنها أسلمت على وجه الخصوص، فليست لديَّ حساسية ضد دينكم بعينه، ولكنه رفضي لكل هذه القيود البالية التي لا يزال البعض يصر على التمسك بها. إن كان لا بد من إيمان فليكن بالإنسانية، ولكن هذه الأفكار الرجعية التي تشجع على القتل، فهي كارثة».

بالطبع كان يكذب، فقد اتضح لي عندما قابلته، ولأول وهلة، أن مشكلته كانت أن يكون حبيب ابنته مسلمًا، مهما ادعى غير ذلك، فهو عنصري كما جميع أهل جيله وجلدته. وكأنه كان يستشرف ما سيحدث. ماذا يفعل لو قابلته الآن؟

السيدات كن أكثر لطفًا تجاهي. والدة ماري وإخوتها، حاولوا منحي شعور الأسرة والدفء قدر الإمكان بصفتي غريبًا في بلدهم. بالطبع كان سوء التفاهم المتوقع يحدث كل فترة والأخرى ولكن لم يكن فيه ما يجعلني أفزع، كأن أطلب من أحدهم أن يناولني شيئًا عبر طاولة الطعام، فيجيبني بحدة: «قُل من فضلك». أو حين آكل من طبق ماري فتنظر إحدى أخواتها نحوي بذعر. أو إذا ما وجدت إخوتها يراقبونني وأنا أغرف لنفسي الطعام فيتهامسون بقلقٍ حول كثرة ما آكل. كنت أشعر بعدم الارتياح ولكني لم أكن متضايقًا، بل على العكس، كان يعجبني أن أثير حفيظة بطونهم الجائعة وأنفسهم المحرومة التي تحسب الجرام قبل أن ينزل إلى جوفهم. هم دائمًا يفضلون العيش على الكفاف. وكأن كل ما أعطاهم الله من نِعَم حرمنا إياها يستكثرونها على أنفسهم، ويخافون أن تنتهي أو تفرغ. هذه الحياة المقتصدة مقارنة بما

maktabah.blogspot.com

يملكونه كانت دائمًا مثار تعجبي.

كنت أتساءل طوال تلك الزيارة وبعدها عن اليوم الذي يحتضنونني فيه كواحدٍ منهم. لم أكن أدري بماذا أشعر تجاههم؟ هذه الازدواجية ما بين الاحتقار الأصيل والانبهار اللا نهائي كان تأرجحي بينها يثير جنوني. هل أردت التقرب لهم بكل الطرق كما اتهمتني ماري بعد ذلك كلما أخذت صفهم حين كان ينفتح الكلام حول الإسلام والتطرف؟ هل كنت أتقرب منهم بينما تحاول ماري الهروب منهم قدر الإمكان، حتى إنها رحلت إلى النصف الثاني من العالم، دينًا وروحًا ووجودًا فيزيائيًا، فقط لتبتعد؟ وهل محاولتي الدائمة لنكء جراح ماضيها كانت محاولة لا واعية مني كي أحافظ على أوربا حية وسطنا؟ حتى لو تحولت القارة الصغيرة إلى حائل بيننا، تُفرقنا، ولكني كنت أريد أن أضع فيها قدمًا، أخطو خطوة، تقربني أكثر.

ولا أعتقد أن هوسي بأوربا قد تشكل في صورته الواضحة أمام عيني إلا بعد رحيل ماري في بداية العام الخامس من زواجنا. حينها فقط أدركت كم كانت رغبتي قوية في أن أعيش هناك. أن أترجم إبداعي وأطور من ذاتي في هذه البيئة النظيفة المتطورة، وكيف شعرت بالغضب أنها تخلت عني وعادت وحدها. لم تتخلَ فقط عن الحياة التي حلمت أن أعيشها معها، ولكنها تخلت دون أن تدري عن هوسي السري بأن أمنح فرصةً لأنعم بالقبول هناك. وسطهم.

أعرف ما كنت أريده من ماري بالتحديد: أردت أن أملكها، أن أحتكرها. بكل تفصيلةٍ، ولذلك لا أستطيع أن أتسامح مع فكرة أني لا أعرف عنها سوى القليل. وأني يجب أن أقبلها كما هي منذ أن أسلمت. وأن هذا يكفي. لا لم يكن يكفي. حياتها وشخصيتها وثقافتها تشكلت طوال سنوات عمرها الطويلة التي عاشتها قبل أن تقابلني. كيف يمكن أن أمحو هذا كله، هذا الذي شكلها وكونها وجعلها الإنسانة التي هي عليها اليوم، كيف يمكن أن أتجاهل وأنكر أثر ذلك عليها، كيف يمكن أن أنكر وأتجاهل أنها كانت لكثيرين غيري قبلي. هذا يعني أني لا أملكها

maktabah.blogspot.com

بالكامل. سيظل تملكي ناقصًا مهما حاولت ادعاء غير ذلك.

في تلك الفترة بات واضحًا بالنسبة لي أن هذه الفكرة ستظل تطاردني بأشكال مختلفة، تثيرها مواقف غريبة ومفاجئة، وأني لن أستطيع التخلص منها بسهولة. ظل كل ذلك حبيسًا بالداخل حتى انفجر رغمًا عني قبل زواجنا بأشهر، في حفل زفاف أختها الصغرى.

***

عدت مرة أخرى لمقعدي وجلست أتصفح الإنترنت لأعرف كل ما له علاقة بهذا الخبر الذي هز أوربا كلها طوال اليوم. عدد الضحايا وصل إلى ما يقارب الخمسين شخصًا، وأكثر من ثمانين مصابًا، ووفاة منفذة التفجير بالطبع. هدم الكنيسة كان أمرًا مفروغًا منه، والاستنفار الأمني الذي وصل إلى ذروته كان رسالة التطمين التي أرسلتها السلطات لأهل البلدة الصغيرة، تلك البلدة الجبلية المنسية التي استطاعت ماري بفعلتها أن تضعها في بؤرة تركيز العالم ولو لساعات معدودة.

لم أصدق وأنا أشاهد رؤساء الجمهورية والوزارة والملوك والأمراء من كل دول العالم يتسابقون في تصريحاتهم لشجب هذا العمل الإرهابي الشنيع، ويستعيدون عباراتهم المألوفة حول ضرورة التكاتف وتضافر الجهود لمواجهة شبح الإرهاب الذي يهدد الجميع دون تفرقة، لم أصدق أن كل هذا الزخم العالمي يحدث بفعل ماري.

يا إلهي يا ماري! كيف صرتِ بهذا الغباء؟ ماذا كان يفعل كي يُحكم سيطرته عليكِ بهذه الدرجة؟ كم كنتِ تائهة من بعدي كي تتركي نفسكِ يتلقفكِ شخص كهذا؟ أهي قدرته في الفراش أم ذكاؤه في التعامل معك؟ أم إنه أعطاكِ حبًا فاق ما منحتكِ إياه؟ أم إن كرامته كانت أقل إلحاحًا عليه فتقبل لسانكِ السليط وتقلباتكِ المزاجية المخيفة؟ هل سامحكِ على ما كنتِ من قبل أم أنه طهركِ من هذا كله؟ هل أحكم سيطرته عليكِ بطغيان وقهر، أم ترككِ تقودينه فأحكم بذلك سيطرته عليك. هل كنت سيئًا في الفراش إلى هذا الحد؟ أم منحكِ هو القبول

maktabah.blogspot.com

الذي طالما بحثتِ عنه؟

ظللت أحاكمها وأنا أشاهد الصورة الوحيدة التي تناقلتها جميع الوكالات، الصورة التي التقطتها لي ولها أمام متحف اللوحات الوطني في ذلك اليوم الحار وكنت أنا في نصفها الثاني الذي اقتطعوه، بنظرتها الساهمة التي تقول إن بداخلها الكثير، تلك النظرة التي لم ألحظها أبدًا وقتها، النظرة التي كانت تقول إن كل ذلك الذي حدث كان قادمًا لا محالة. وكأنها كانت تخطط لهذين اليومين منذ زمنٍ بعيد: يوم أن تتركني، ويوم أن تغادر هذا العالم آخذةً معها كل مَن تحب.

تساءلت من أين أتوا بالصورة؟ لا بد من أهلها. لم تكن ماري بعد ارتدائها النقاب لتتصور مع زوجها الجديد على ما أظن، وربما كانت صوري لها هي كل ما ملكته أولجا. مَن من أهل ماري مات في الحادث؟ هل قتلت والديها؟

قبل أن يزورني وعي الإدراك كان هاتفي يرن مضيئًا برقمٍ محجوب. للحظة ظننتها مكالمة من كارين، ثم ابتسمت لنفسي في مرارة حينما استوعبت مَن المتصل. وبسرعة عرفت بأني شئت أم أبيت قد أصبحت جزءًا من رحلة ماري الأخيرة.

- نحتاج إلى التحدث قليلًا حول حادث زوجتك السابقة.

- هل لي اختيار القبول أو الرفض؟

- لقد فضلت أن أقوم بذلك الأمر بنفسي، حين طلبوا مني معلومات عنك أخبرتهم بأنني سأتمم التحقيق معك إكرامًا لعلاقتنا القديمة. مر عليَّ في السابعة لنحتسي كوبًا من القهوة وندردش قليلًا. لا تقلق. أنا أعلم جيدًا أن لا علاقة لك بهذا الأمر، ولكنه إجراء روتيني.

- هل أحضر غياراتي الداخلية وفرشاة أسناني على سبيل الاحتياط؟ سألته ساخرًا.

maktabah.blogspot.com

أغلق الخط دون أن يجيب.

***

ذهبت إلى المقر كما «طلب» مني. كنت هناك في الموعد المحدد بالضبط، يغالبني النوم وقرص الزاناكس الذي ابتلعته بقليل من الجلينفديتش حتى تتوقف ارتعاشة يدي وينتظم نفَسي قبل النزول. لم يمر بعد ذلك اليوم الثقيل الذي بدأ في الحادية عشرة صباحًا بخبر تفجير ماري لنفسها. لا أزال حتى الآن لا أفهم ما حدث ولا أستوعبه. والمشكلة الأكبر أني لا أستوعب مكاني وسط كل هذا. بشكل أو بآخر أشعر أني صرت مقحمًا في أمر لا علاقة لي به. وفي ذات الوقت وكأن دفقةً كاملةً من المشاعر والحنين تتفجر في كياني من الذكريات وآلاف التفاصيل التي كنت أظنني قد نسيتها. تأتي كلها مشوشةً في وقتٍ واحد، ويلح عليَّ السؤال الذي لا يزال يطاردني: مَن هي ماري التي فجرت نفسها؟ مَن هي؟ كيف صارت هكذا؟ وما علاقتها بماري التي عرفتها؟ كيف انتقلت من تلك الإنسانة إلى هذه التي أستدعى للاستجواب بسببها؟ هل لا تزال موجودة؟ بعد كل تلك السنوات يا ماري، تصرين على أن تأتي على البقية الباقية من حياتي، ليس فقط وأنتِ بعيدة عني بآلاف الأميال، ولكن حتى بعد أن غادرتِ هذا العالم؟ لقد قررت أن أنهي حياتي بحلول نهاية هذا العام، إلى أين يمكنني الابتعاد أكثر من ذلك كي أهرب منك؟

قضينا معظم التحقيق في تدخين السجائر واحتساء القهوة. بدا عليه الضجر. قدرت له كثيرًا حرصه على أن يقود التحقيق بنفسه. بالطبع كان جليًا لي أنه يريد أن يرتب الأوراق ويملأ الصفحات بأي هراء كي يرسله لشرطة بلدة ماري التي تلح عليهم منذ الصباح.

- الأجانب وقرفهم، يظنون أنهم يعرفون كل شيءٍ وأن لديهم الحق في إملائنا بما يجب أن نفعل.. بهائم.

سألني في روتينية عن كيفية معرفتي بماري، متى قابلتها وكيف

maktabah.blogspot.com

تطورت علاقتنا حتى انتهت. سألني إن كنت لاحظت لديها أي أفكار متطرفة أو ميل للعنف. أجبته بسخرية في البداية: «أتقصد إن كانت تخنق القطط أو تطلب مني إطفاء السجائر في رقبتها ونحن نمارس الجنس؟ لا لم تكن كذلك». نظرته الحادة ووجهه العبوس اللذين لم يتغيرا منذ آخر مرةٍ التقينا فيها كانا كافيين لأدرك أن الجملة كانت فاضحة وفي غير مكانها. رغم ذلك أفادتني هذه الجملة وهي خارجة من فمي في تذكر الندوب الصغيرة التي كانت تزين معصميها. «تذكار من فترة مظلمة في حياتي»، كانت تقول. لم يكن تذكارًا لها فقط ولكن لي أيضًا. هذه الندوب كانت كفيلة بتذكيري دائمًا أن ماري التي بين ذراعي وفي قلبي غير تلك التي كانت قبلًا. وها هي تتحول في طورها الأخير إلى كائن ثالث أتى بما هو غير مفهوم بالمرة، حتى لو كان هذا التحول قد ظهرت أعراضه أمامي من قبل دون أن أعيرها اهتمامًا.

***

في أحد الأيام، وحين كنت في المنزل أصحح أوراق الطلاب، دخلت ماري الغرفة وهي تقضم تفاحةً وتمسك هاتفها المحمول دون أن ترفع رأسها عنه. «يا إلهي!» ظلت تردد. رفعت رأسي وأنا أسألها عمَّا حدث. «دخل أحدهم إلى صالة السينما بأمريكا وفتح النار على الحاضرين. قتل 62 شخصًا». سألتها إن كان إرهابيًا. أجابتني بأنه شاب أمريكي صغير. لم يكن هناك دافع ديني وراء ما قام به. «بالطبع لن ينعتوه بالإرهابي، ولكن ما إن يدهس واحد منَّا أحدهم بالسيارة حتى ينعتونا بأقذر الصفات». كانت ماري تقصد بـ «منا» المسلمين. كانت سعيدةً بأن تشير لنفسها دائمًا أنها واحدة منَّا، تنتمي لنا. أما أنا فلم أكن سعيدًا بهذا.

كنت أرفض هذا التقسيم الواضح الذي تحرص دائمًا على أن تذكر نفسها وأهلها به. «لا داعي لأن تذكريهم طوال الوقت بأنكِ تنتمين لشيءٍ آخر يبعد عنهم تمامًا. لا داعي لأن تكوني غريبة. نحن لسنا فريقين في حرب. الفروق ليست كبيرة إلى هذا الحد». كنت دائمًا ما

maktabah.blogspot.com

أقول لها. ولكنها تمتعض حين تسمع مني هذا الكلام. بعنادها التام تتجاهله. وتصر على أني لا أفهم شيئًا. وتتعمد عند كل حادثةٍ يُقتل فيها مسلمون أن تكتب وتستفيض في الاحتجاج على مدونتها. وكانت تتمادى في ذلك إلى حد تبرير حوادث إرهابية تضرب أي مدينة في أوربا أو الولايات المتحدة. كنت أصرخ فيها أن تتوقف. «أنتِ تتسببين في مزيدٍ من الكراهية بكلامكِ هذا، لا أحد يبرر القتل». ولكنها كانت عنيدة عنادًا مجنونًا. «هم مَن بدأوا. مَن يقومون بهذا لا بد أن لديهم أسبابهم. لا أحد يقتل لمجرد القتل. ألا ترى الاعتداء الذي يحدث علينا في كل مكان؟». كنت أحاول دائمًا أن أتحلى بالهدوء والصبر وأنا أشرح لها أن للأمور أبعادًا أكثر تعقيدًا مما تظن هي. وأن صراعات الساسة والجيوش والأيديولوجيات لا يمكن أن تُبرر بأي شكل الاعتداء على عزْل أو أطفال من الطرفين. «أنا لست مجنونًا كي أنكر أن شعوبنا مقهورة ومستعمرة ومنهوبة، ولكن هؤلاء المتطرفين يكرهون المسلمين العاديين مثلي ومثلك بقدر ما يكرهون المعتدين، إن مفاهيمهم مشوهة إلى أبعد حد، لا تنظري إلى الأمر كمعسكرين تنتمين إلى أحدهما».

وكنت أتعجب كثيرًا من تعمدها استفزاز أهلها حين نقوم بزيارتهم. كانت تثير هذه المواضيع وتخبرهم بآرائها بصراحةٍ صادمة وتتعامل معهم بعدوانيةٍ خفية، وكنت أبادر مسرعًا إلى الاعتذار عن أسلوبها وكأني أنفي عن نفسي تهمةً أخاف أن تلتصق بي.. بديني. «لست أنا مَن يخبرها بهذا الكلام، لا تظنوا أننا كمسلمين نفكر جميعًا بهذا الشكل، إنها غبية». وكنت أستفيض في تبرير أن ماري لا تزال جديدةً على الإسلام، وأن الأمور لا تزال بعد ملتبسة لديها. كان ذلك يزيد من حنقها، كانت تراني نتكتل عليها. «أنت منافق، تسعى لرضاهم كي يحبوك على حسابي؛ لأنك متخاذل وضعيف أمام الرجل الأبيض الذي تنتقده وترفضه دائمًا». كانت تصرخ في وجهي حين نعود إلى الفندق. لم أكن أعرف من أين تأتي بهذا الهراء.

maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

بعد انتهاء التحقيق اتصلت بمورد الشراب كي يلاقيني بالمنزل. عرجت على بائع الجرائد لأبتاع السجائر وجرائد الغد. كانت شركة الخدمات قد قامت بتنظيف المنزل في غيابي فعدت ووجدت كل شيءٍ في مكانه.

أظلمت الإضاءة بالكامل عدا المصباح الأثير الذي أفضل الجلوس في إضاءته البرتقالية الخافتة طوال فترات المساء. نثرت الجرائد أمامي وبدأت في قراءتها.

البحث عنه لا يزال جاريًا. هناك تنسيق على أعلى مستوى بين دولة ماري وإيطاليا التي كان يعيش فيها مع ماري حيث كان يحضر رسالة الدكتوراه في الهندسة. يريدون القبض عليه قبل أن يتسلل عبر الحدود إلى أيٍّ من دول الجوار الشرقية التي تعج بالنزاعات الأهلية وسيطرة الجماعات الأصولية هناك.

«يتحدث الأردية والعربية والإنجليزية والإيطالية. يسكن في أوربا منذ عشر سنوات حيث قام بإنهاء دراساته العليا وحصل على رسالة الماجستير من دولة بوسط أوربا ثم انتقل بعد زواجه إلى إيطاليا ليدرس الدكتوراه. معروف عنه الالتزام الشديد والتفوق في دراسته، ولكن لم يكن له أي نشاط يثير الشبهات حوله طوال مدة إقامته في أوربا».

عشر سنوات كانت كافية له كي يكره هذه البلاد وتلك التي تشبهها ويدفع زوجته إلى أن تقتل أكثر من خمسين من ذويها. لماذا لم يفجر هو نفسه، طالما كان مؤمنًا ويبغي الشهادة إلى هذا الحد؟ لماذا أرسل أم ابنته لتلقى حتفها بينما هو قابع في الخفاء؟ جبان هو أم أنه يجهز لشيءٍ أكبر؟ تمنيت أن تكون الأولى ليس خوفًا على حياة المزيد من الضحايا المحتملين، ولكن كي أضيف إلى قائمة نواقصه عنصرًا آخر أحاسب به ماري حين ألقاها نهاية هذا العام.

«وكانت الانتحارية قد سبق لها الزواج من كاتب عربي منذ حوالي عشر سنوات». توقف قلبي عن النبض. بات واقعًا إذن.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

رنَّ هاتفي عدة مرات وتجاهلته. حين عدلت وضعه المقلوب ظهرت قائمة بكل مَن يواصلون الاتصال بي من الصباح: أبي وأصدقائي وكل مَن استطاع أن يميز وجه ماري على التلفزيون ويتذكر مَن كانت.

وهو لا يزال في يدي أضاء الهاتف باسم رئيس تحرير الجريدة يحدثني من الماسنجر.

حدثني بلهجته المغاربية بحماسٍ شديد:

- كيف حالك؟ البقاء لله. لا بد وأنك عرفت ما حدث. أعتقد أنك أفضل مَن يكتب افتتاحية العدد الأسبوعي بعد يومين. اجعلها قطعة من القلب. ذكرياتك معها. كيف كانت. حاول أن تلقي الضوء على ميولها المتطرفة منذ عرفتها، وكيف أن هذا التصرف المجنون الذي قد لا يجد له الكثيرون تفسيرًا حله عندك أنت. إنه مقال ممتاز سيأتي ملائمًا تمامًا لسلسلة الفن والبشاعة التي تكتبها. لا تنسَ، اجعلها قطعة من القلب ولا تخجل من شيء. الأمر شديد السخونة الآن.

***

يوم الحادثة الأمريكية حاولت ماري أن تجرني إلى هذا النوع من الجدالات التي لا تنتهي حول اعتداء الغربيين على المسلمين وتشويه الإعلام لصورتنا. سكت ولم أستجب. كنت أريد أن أعود لتصحيح أوراقي كي أنتهي منها. صمتت ماري لبرهة وهي لا تزال تطالع هاتفها بفضول، ثم علقت ضاحكة: «يا لها من مصادفة غريبة. البلدة اسمها أورورا. هل ترى؟ إنها علامة!»

كانت ماري في اليوم السابق قد ألحت عليَّ للمرة المائة منذ أن عرفتها أن نُعد لرحلةٍ نسافر فيها إلى أقصى شمال أوربا كي نطالع الشفق القطبي، أو ما يُسمى بالأورورا، قرب القطب الشمالي. كان ذلك من أحلامها التي لا تكف عن ترديدها. «إذا كنت أنت مهووسًا بالمتاحف وتريد أن نزورها جميعًا كي ترى لوحاتك المفضلة، فإن لي رحلة واحدة فقط تمنيت أن أقوم بها مع زوجي، وهي أن نشاهد سويًا ونحن نمسك

maktabah.blogspot.com

بأيدي بعضنا أضواء الشمال بألوانها المبهرة، أرجوك هيا بنا نذهب». وتردف كلامها بفتح فيديوهات وصور أخاذة على هاتفها، وتجبرني على مشاهدة الظاهرة الطبيعية الخلابة.

أعتقد أن ماري كانت تكرر هذا الأمر مرةً في الشهر على الأقل. وتزداد وتيرة إلحاحها كلما كنا في أوربا لزيارة والديها. «لن تستغرق الرحلة سوى ساعات. هذه فرصة فالظاهرة في أوجها الآن ولن نجدها حين نعود في الصيف». ولكني كنت أتجاهل طلبها. «حين ننتهي من زيارة المتاحف أولًا». كان ردي الدائم. كنت كسلانًا، لا أريد القيام برحلةٍ بعيدةٍ تتطلب استعدادات كثيرة كي أفعل شيئًا لا أريده. لم تكن الظاهرة تشدني إلى هذا الحد، وكلما أطلعتني ماري على سير الرحلة وتكلفتها كنت أرفض بشدة. إن كانت هي تصطحبني في رحلاتي لمطالعة اللوحات فإن ذلك يعود عليها بالنفع والاستنارة، أما أن أصطحبها أنا لرؤية ظاهرةٍ طبيعيةٍ لن تختلف كثيرًا عما رأيناه في الفيديو، فلم أكن أرى الأمر يستحق. كنت أنانيًا.

***

أغلق رئيس التحرير الخط دون أن ينتظر مني ردًا. كان رأسي يدور ليس من فعل الشراب ولكن من كلماته. لم يدرِ وهو يتحدث أنه قد فتح بداخلي عشرات الأبواب بكل حرف قاله.

الحقير يريد استغلالي أنا وماري لتحقيق المزيد من الإثارة. يأمرني بأن أقول إنني لاحظت بوادر تطرفها منذ زمن. ولكنه محق. كانت ماري متطرفةً. في كل شيءٍ كانت متطرفة. هذا ما استغرقته السنوات الماضية كي أعرفه جيدًا: في حبها كانت متطرفة، في كرهها، في حزنها وفرحها وغضبها، في رغبتها القاتلة بأن تكون مقبولةً ومحبوبةً ممَّن حولها، وفي رفضها القاتل أيضًا لهم. كم عانيتِ يا ماري من البركان الذي كان يثور بداخلكِ ولا تخبرينني من أين يأتي. أمنِّي أم من ماضيكِ، تلك المنطقة المظلمة بسواد عظيم بداخلك. ها قد ارتحت من

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

الندوب والذكريات ومحاولاتك المستميتة لنسيان ما كنتيه رغم كل ما فعلته أنا كي أذكرك به. ها قد ارتحتِ وتركتِ خلفكِ محبًا قديمًا تائهًا، وآلاف المحررين الجائعين لنهش سيرتك، وابنة لا تعرف أين راح أبواها.

أصابني الإدراك الذي بدأ يعتريني بأني رويدًا رويدًا أصبح جزءًا ممًا حدث. افتتاحيته للمكالمة ترن أصداؤها في مخي.. البقاء لله. لم يعزني؟ لماذا اعتبرني صاحب شأن أستحق منه التعاطف والمؤازرة؟ بالطبع قالها من باب الكياسة فحسب، ولكن هذا يعني أنه اعتبرني تلقائيًا ذا علاقة بهذه المسألة. لقد رأى رابطًا بيني وبينها لا يزال قائمًا.

وهو ما قادني إلى السؤال الذي يُلح عليَّ منذ الصباح ولا أجد له إجابة: بِمَ أشعر؟ بِمَ يجب عليَّ أن أشعر؟ ذلك هو أكثر ما يقتلني. أني لا أعرف بماذا أشعر. هل أحزن؟ هل أنهار وأبكي؟ ولكني لست حزينًا. أنا في منطقة خواء رمادية لا ملامح لها. بالنسبة لي ماري ماتت بالفعل يوم أن غادرت. لقد مررت بمظاهر الحداد كلها وانتهيت منها، والآن تفصلني سنوات عنها، إنها بالنسبة لي مجرد صورة باهتة، ذكرى بعيدة، إنسانة لا تمت لي بصلة أيًا كانت. أو هكذا أظن.

هل لا أزال أحبها؟ هل أنا حزين؟ مكلوم؟ أشعر بالتشفي؟ هل تنتابني الآن راحة خفية أخشى البوح بها لنفسي؟ أنها لم تعد معه وأنه لن يلمسها أو يشم رائحتها بعد اليوم؟ هل أندم لأني كنت بشكلٍ ما سببًا فيما حدث؟ هل هي نفس التي عرفتها يومًا؟ بماذا كنت أشعر يوم أن رحلت؟ بعد أن رحلت؟ أريد أن أشعر بشيء.. أي شيء.. أخبط على صدري بعنف محاولًا أن أشعر بشيء.. أي شيء. ولكن هذا الذي يجب أن أحس به لا يجيء.

ولسببٍ لا أعرفه، وأنا ممدد على الأريكة دائخًا بطنين الأسئلة والتيه، قفزت إلى ذهني ذكرى ذلك اليوم البعيد في روما.

***

سرنا طوال ذلك اليوم الحار وسط الزحام. كانت الشمس قد سطعت

maktabban.blogspot.com

منذ الصباح الباكر وخرج الناس إلى الميادين المكتظة بسراويلهم القصيرة والفانلات القطنية يرتدون النظارات الشمسية. العجائز يمسكون بالخرائط بينما نحن الصغار نسير محدقين في هواتفنا المحمولة. وصلنا إلى المتحف ودخلنا بعد صف انتظار طويل. كان شعوري بالإثارة لا يوصف. لطالما كان تمثال «نشوة القديسة تيريزا» لبرنيني أحد التماثيل القليلة التي حلمت طوال حياتي برؤيتها، وها هو أخيرًا يكاد الحلم يتحقق بعد دقائق. حدثت ماري باستفاضة عمَّا سندخل لنراه بعد قليل.

كنت قد عانيت كثيرًا حتى حصلت على تأشيرة أوربا، حتى إنها رُفضت مرتين بدون إبداء أسباب رغم أني قد حصلت عليها من قبل عند زيارتي الأولى لأهل ماري. أخبرت ماري أنني سأقوم وحدي بجولة في بضع دول أوربية تنتهي بإقامة طويلة في بلدتها حتى أستمتع بجوها البارد وسط حرارة أغسطس التي تغلف العالم.

فاجأتني بأنها قد جمعت مبلغًا من المال وأنها ستصحبني في تلك الجولة. أكدت لي بتحفظها المعتاد أن كلًا منَّا سيقيم في غرفة منفصلة بالطبع، لم أعترض ولكني عرضت عليها بإلحاح أن أتكفل بمصاريف سفرها، فهي خطيبتي الآن وفي حكم زوجتي، ولكنها رفضت ذلك باستهجان كبير واعتبرتني مخبولًا كي أعرض مثل هذا الأمر. «كل منَّا لديه استقلاليته المادية، ولست انتهازية كي أحملك عبئًا إضافيًا ولا ضعيفة كي أطلب منك أن تقرضني النقود». قالت.

أما لماذا غرفتان منفصلتان فلأن ماري بعد أن صارحتني بحبها وباتت علاقتنا جدية، زاد احترامي بشكل مذهل لإسلامها، وبت أشعر بمسئولية كبيرة تجاهها، وقررت أني لن أحاول بأي شكل من الأشكال أن أعبث بالثوابت التي أصبحت تؤمن بها، وإن تطلب مني ذلك مجهودًا خرافيًا كي لا أنظر لها كجسد أريد اختراقه، وأن أتوقف عن تركها تعبث بمخيلتي كلما كنت وحدي.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

تلف ذراعها حول رقبتي وتغرقني في قبلةٍ أخرى يتوقف أثناءها قلبي عن النبض. أغمض عيني ورأسي يدور حتى أفتحهما في هلع حين تدفع بلسانها داخل فمي لأجدها مغمضة عينيها هي الأخرى وقد جفت دموعها. أغلقهما مرة أخرى وأتيه في ينبوع الحياة الذي يتفجر بيننا.

***

فرغت نصف الزجاجة. باتت رؤيتي مشوشة وتوازني مختلًا حتى وأنا جالس. أشعر بعطش شديد. أنظر إلى الكوب لأجد الثلج قد ذاب. أقوم مترنحًا إلى المطبخ.

أفتح باب الثلاجة وأقلب مكعبات الثلج في الكوب. أعيد القالب البلاستيكي مرة أخرى وأنا أفكر إن كان يجب أن أعبئه الآن أم أنتظر لوقت لاحق حين أكون قد استعدت توازني.

ما إن أرد باب الثلاجة حتى أنظر لقطع المغناطيس المتناثرة عليه في غير ترتيب.

وأقف أمامها كما لم أقف أمام ثلاجةٍ مغلقةٍ في حياتي...

أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية والمميزة والنادرة بصيغة PDF

تابعونا على الموقع الرسمي

www.maktabbah.blogspot.com

أو على قناة التيليجرام

t.me/alanbyawardmsr

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

القسم الثاني

هل هو مظلم كفاية
كي يرى ضياءك؟
هل تغسلين أسنانك بالفرشاة قبل أن تقبليه؟
هل تفتقدين رائحتي؟
هل هو جريء كفاية كي يستحوذ عليكِ؟
هل تشعرين أنك إليه تنتمين؟
هل يدفعك إلى الجموح؟
أم بالكاد يشعرك بالحرية؟
وماذا عني؟
ماذا عني؟

داميان رايس
أغنية «أطفال الصدفة»
ألبوم «2006 - 9» م

أجلس في مقعدي بالطائرة مستغرقًا بكامل وعيي فيما أنا مقبل عليه، حتى إني لا أشعر بها تنطلق في الهواء ولا بالمطبات العنيفة طوال الرحلة. لا يعكر مزاجي ويشتتني عن أفكاري سوى الشاب الجالس بجانبي بوجهه الباهت من الخوف، يجرني إلى الحديث بصوته المرتعش كلما اهتزت الطائرة، أرقبه في سخط صامت من ارتعابه

maktabbah.blogspot.com

البادي من الطيران، لا أرد على ثرثرته المرتبكة سوى بسؤال عن سبب سفره علّه يستشعر نفاق اهتمامي فيُحرج ويسكت. يخبرني أنه مسافر مع فرقة موسيقية من الشباب يرافقها ليكتب عنهم كتابًا يظن أنه سيغير العالم. أتساءل إن كان بحكم امتهانه الكتابة يعرفني ولكني لا أشعر في داخلي بأي رغبة في إطالة الحوار. أضع السماعات على أذني وأتصنع النوم. أخبره وأنا مغمض العينين ألا يقلق، فالطائرة لن تسقط لأن الطائرات لا تسقط.

حين استسلم الشاب المذعور بعد قليل للمنوم وجدت على رجليه كتابًا وجريدة. سحبتهما لأسلي نفسي قليلًا. في الجريدة وجدت خبرًا يتصدر صفحتها الأولى عن قاتل متسلسل أرهب البلاد لشهور بقتله الممنهج للأئمة والقساوسة، وفي صدر الخبر كانت صورة للمحقق الذي قُتل أثناء المداهمة الأخيرة. رميت بالجريدة جانبًا وأمسكت بالكتاب فوجدته رواية فانتازيا تافهة عن عالم متخيل أصل سكانه من الزهور.

استسلمت للنوم أنا الآخر حتى حطت الطائرة وأفقت على ارتطام عجلاتها.

***

بعد أن أفقت من وقفتي أمام الثلاجة التي استمرت لوقت طويل نزعت قطع المغناطيس من عليها ثم أرسلت لرئيس التحرير: «لديّ فكرة أفضل، سأسافر وأحضر جنازتها. أجمع مادة لتحقيق موسع من عائلتها وأصدقائها. ربما أهالي الضحايا. أرسل لك حلقات أسبوعية. ربما حتى كتاب. تكفل بالمصاريف».

قبل أن يأتيني رده أرسلت للمسئول. حذرني من مواجهة المتاعب هناك ما إن تحط قدمي على أرض المطار، فيما عدا ذلك فالأمر ليس من شأنه ولا يعنيه. أتى رد رئيس التحرير الجائع كما توقعت.

أمرها عجيب الذاكرة. إنها تستحق تلك المكانة التي نمنحها لها نحن الأدباء. قرأت لأحدهم يقول إن الماضي ليس ما حدث من قبل ولكن هو كيف نعيد حكي ما حدث من ذاكرتنا. محق هو بالطبع.

كان هوس ماري بالتصوير وتسجيل كل لحظة تمر علينا في مفكرتها الوردية الصغيرة مثار سخرية مني طوال الوقت. كنت مؤمنًا بأن الذاكرة يجب أن تظل يقظة بتخزين التفاصيل دون مُعين وأن التصوير والتدوين اليومي أمر سطحي شديد السخافة.

رغبتي في تشرب كل تفاصيل ماري، رائحتها وملمسها وصوتها وألوان ملابسها، كانت تدفعني لأن أراقبها بالساعات وهي نائمة إلى جواري، أستمع إلى أنفاسها المنتظمة وأراقب صدرها يتحرك صعودًا وهبوطًا في إيقاع هادئ، إلى أن يتشنج جسمها كله ويرتعش فجأة للحظات، ثم يعود إلى استقراره مرة أخرى. كنت من فرط هوسي بتفاصيلها أعرف في أي ساعة وبأي تكرارية تأتيها الكوابيس أو الأحلام السعيدة التي تبدل تشنجاتها إلى ابتسامات حالمة.

هل كانت تحلم بغيري؟

«ما نعيشه اليوم سيصبح غدًا ذكرى الأمس، وحين نكبر أريد أن نعود لنشاهد كل ذلك سويًا ونتذكر كل لحظة عشناها معًا»، كانت تقول.

ولكن هذه الصور والفيديوهات لم تبقَ كي نشاهدها معًا في شيخوختنا، ولكنها بقيت كي أشاهدها وحدي، وأتجرع مرارتها وحدي. بقيت كي تسرب إحداها مشوشة وتستخدم في المواقع الإلكترونية، تتبدل مع صور لضحايا مضرجين بالدماء، وزجاج مهشم في كنيسة نصف محترقة.

لقد أحببت ماري. كنت دائمًا ما أحاول إنكار حبي لها. وذلك لأني كنت موقنًا بحتمية وقوع النبوءة التي تنبأت بها لنفسي لحظة أن رأيتها بفستان الزفاف: أننا لن نكمل حياتنا سويًا. كنت دائمًا أنكر أني أحب ماري. لا أريد الاعتراف بأني أذوب فيها حقًا. منذ اليوم الأول يطاردني

كابوس افتراقنا. المضحك أني كنت أعلم أن هذا الافتراق سيأتي بسببي، ومع ذلك لم أستطع أن أمنع حدوثه. ومهما كان ما عصف بي فإنه لم يقلل من حقيقة ما كانت ماري تمثله لي اليوم تلو الآخر.

أستفيق من شرودي معترفًا بصواب ما كانت تقوله ماري عن ضرورة تسجيل كل لحظة، كم كان سيفيدني في ذلك التحقيق الأبدي الذي لا يبدو وأنه سينتهي. اصطحبتني ضابطة في ثياب مدنية رجالية: بذلة رمادية وبلوزة قطنية سماوية، وحول وسطها حزام جلدي يحمل جراب المسدس. دخلت إلى غرفة بحوائط من المعدن البارد. تحدثت معي هي وزميل لها أضاءت صلعته تحت وهج النيون الأزرق. كانا بالغي اللطف والتهذيب.

- للمرة الخامسة تسألاني هذا السؤال، ولن تتغير إجابتي، كل شيء عني تعرفونه مسبقًا. استمر زواجنا أربع سنوات، وكانت كأي مسلمة جديدة، تأخذ الدين بحذافيره. لا لم تظهر أي أفكار متطرفة أمامي أبدًا. كانت قد أسلمت في المركز الإسلامي في بلدتها، والذي ينشر الدعوة فيه عدد لا بأس به من المتطوعين والشيوخ من جنسيات متنوعة. أظن أنها كانت في أكثرها جنسيات غير عربية.

- لا لم أذهب للمركز ولا مرة. في بعض الأحيان كانت تصدمني بآراء غريبة قبل زواجنا حين كنا نتكلم عبر سكايب، ولكني كنت أخبرها بأن هذه الآراء المتشددة ليست هي المتفق عليه بين الجموع، وأننا في الأغلب لا نأخذ الدين بهذه الشدة. كنت أحتاج إلى شرح المسألة بهدوء أكثر حتى تستوعب المدارس الفكرية المختلفة، كانت تأخذ الأمور بحذافيرها وهو أمر معتاد عند كل مَن يدخلون لأول مرة إلى الدين الإسلامي. كل ذلك تغير بعد الزواج.

- لأنها حين سافرت لتعيش معي في بلدي المسلم وجدت كل شيء عكس ما تعلمته في الكتب. وصدقني أنها لم تدخر وسعًا في أن تُعلمني بصدمتها، سألتني آلاف المرات عن كل تفصيلةٍ في حياتنا حتى أحالتها

إلى جحيم. لماذا تُقبلني صديقاتي حين أقابلهن بالصدفة في الشارع ونحن مسلمون؟ لماذا تكشف كثير من الفتيات شعورهن؟ لماذا يضعن المساحيق؟ وكيف يمكن لي أن أدخن؟ لماذا تكذب زميلاتها في العمل؟ لماذا يسب الناس؟ لماذا تنقطع الكهرباء؟ والشوارع محطمة؟ والمياه تنقطع؟ كيف تعاملون الحيوانات والفقراء بهذه القسوة؟ سألتني كل تلك الأسئلة البديهية بمنتهى السذاجة المتوقعة، أرادت أن تحاكم تراثًا قدره مئات السنوات من الجهل والاستعمار والفساد وكنت أنا المحامي غير المفوه الذي لم يكن يملك من الإجابة شيئًا.

- تأكد تمامًا أنها قد شعرت بالغبن من كل شيء. نعم ربما تكون طبيعة شخصيتها هي التي تميل إلى التطرف، قبل الإسلام وبعده، وربما أنها حين غادرتني كانت تشعر بالمرارة. تجاهي ربما. تجاه الإسلام الذي لم تجده عندنا. من المؤكد أنها شعرت بالاضطراب وربما الكراهية تجاه ما رأته من تناقضات. ولكنها في النهاية فجرت نفسها في أهلها وأقاربها هنا وليس في بلادي. لا أعرف لِمَ. أما لماذا غادرت ولماذا وقع الطلاق بيننا فهذا شيء يخصني لا أظن أني مضطر لإخباركما به.

- أظن أني أستطيع أن أحكي لك ما حدث بخيالي الروائي: بعد الانفصال عادت إلى هنا وحاولت أن تنسى ما حدث بيننا. قابلت أحدهم سواء في المركز الإسلامي أو غيره لا أعرف حقيقة، بدأ يخبرها أن ما رأته مني وفي بلادي ليس هو الإسلام الحق، وأرادت هي ألا تتخلى عن إيمانها وإسلامها حتى لا تشعر بمزيدٍ من الضياع. كانت في حاجة إلى العطف والاهتمام وقد استطاع ذلك الشخص أن يمنحها ذلك. بعد مرور بعض الوقت استطاع ذلك الزوج أن يستثمر غضبها ويحوله لصالحه. أثناء زواجهما ملأ رأسها بمزيدٍ من الأفكار، واستطاع بشكلٍ ما لا أعرفه أيضًا أن يقنعها بأن العيب في عالمكم هنا، في دنياكم وأفكاركم وحياتكم. ماري لن تختلف بأي حال عن عشرات الحالات التي من المؤكد قمتم بدراستها لمواطنين أوربيين انضموا لجماعات إرهابية. إنها نفس الأسباب ونفس النتائج. في لحظةٍ ما

اقتنعت ماري بأن واجبها هو أن ترسل رسالة للعالم أو أي شيء من هذا الهراء عبر قيامها بما قامت به. أنا بعيد تمامًا عن هذه المسألة، لا تنسَ أني لم أرَ أو أحدث هذه السيدة منذ أكثر من خمس سنوات. وإن كنت مسئولًا عن إسلامها فإني لست مسئولًا بالتأكيد عمَّا فعلته بعد ذلك بعشر سنوات. يمكنكم أن تسألوا عني، ولا بد أن الأمن في بلادي قد أرسل لكم محضر استجوابي الذي لم يختلف كثيرًا عمَّا أخبرتكم به الآن.

- مرة أخرى لا أظن أن هذا من شأنك، ولكني أتيت لأني أريد أن أصل إلى إجابة. ولأني كنت أحب هذه الإنسانة في يومٍ ما، وكانت بيني وبينها العِشرة التي أعرف أنكم لا تقدرونها كثيرًا، وحين ماتت وجدت نفسي أقف في مفترق طرق، ما بين ذكرياتي معها وما كنت أظن أني أعرفه عنها، وبين ما انتهت إليه. أريد أن أفهم. وإن كان لا بد من سبب رسمي تضعونه في أوراقكم فإنني أحمل تكليفًا رسميًا من الجريدة التي أكتب فيها لحضور الجنازة وتغطيتها كسائر الصحفيين.والآن إن لم يكن هناك مانع قانوني أطلقوا سراحي فورًا وإلا أكلم أحدًا من الجريدة وسفارتي.

حين أعادت لي المحققة جواز سفري بتردد وهي لا تزال تواصل نظراتها المتشككة نحوي أكدت بصوتها الخشن أننا سنلتقي مرة أخرى. تناولته من يدها دون أن أرد وعيني معلقة بالمسدس المتدلي من عروة بنطالها الرجالي الذي تغطيه ثنيات بطن أجنبية مترهلة.

***

خرجت إلى ساحة المطار الباردة ونظرت في ساعتي لأجدها الحادية عشرة. كانت الثلوج السوداء تغطي الساحات كلها، غطيت أنفي بالكوفية المنقوشة التي كانت لماري يومًا بينما عيني تدمع من البرد القارس الذي كنت قد نسيت قسوته. عادتي باستخدام ما يصلح استخدامه من أشياء ماري لم تزل تلازمني. مقلمة، كوفية، كوبها

المفضل، وجورب صوفي وردي اللون أرتديه في ليالي الشتاء داخل المنزل. لا أدري إن كانت مرثية مستمرة أم أنها فقط كانت تعبيرًا أوليًا عن افتقادي لها تحول إلى اعتياد يومي أو كسل من التغيير.

تأخر الوقت على سفر الساعات الأربع إلى بلدة ماري، فاستقللت سيارة أجرة إلى فندق قريب كنا نقيم فيه حين نزور العاصمة. عبر النافذة المبللة بنتف الثلج التائهة ظللت أراقب بقايا احتفالات الكريسماس ورأس السنة معلقة بالشوارع المهجورة في هذه الساعة من الليل. حدوات أحصنة وحلقات الأشجار الذابلة. كرات حمراء لامعة وورق مزركش ابتل وذبل هو الآخر. نظرت في ساعتي مرة أخرى.. الخامس من يناير.

وصلت إلى الفندق وتحممت وارتميت على السرير، أخرجت قطع المغناطيس الخمس من حقيبتي ورصصتها بجانب بعضها البعض بجوار مصباح الإضاءة. ظللت أحدق بالسقف لبرهة.

قبل أن أنام رسمت في ذهني خطة للغد، سأذهب إلى أول متحف زرناه معًا، ثم أستقل القطار إلى البلدة لأصل قبل الغروب وأستعد للجنازة بعد غد.

***

في الصباح كانت الشمس تحاول السطوع وسط الغيوم الكثيفة، ورغم أنها لم تنجح في الظهور إلا أنها خففت طبقات الثلج السميكة بعض الشيء.

على هاتفي حجزت تذكرة قطار الرابعة. أمامي خمس ساعات أقضيها في المتحف الوطني بالعاصمة، بما في ذلك وقت الغداء. سلمت مفتاح الغرفة إلى فتاةٍ مرحةٍ جلست خلف البار الخالي من الزبائن، وتركت معها حقائبي. نزلت إلى مترو الأنفاق وقطعت تذكرة وحيدة. جلست أترجرج بين الركاب الذين انقسموا بوجوههم الشاحبة الخالية من التعبير، ما بين التحديق في الفراغ أو الانكباب على هواتفهم. تغير

المشهد قليلًا عن آخر مرةٍ كنت فيها هنا. شح القراء الذين كانوا يدسون رؤوسهم في الكتب الثخينة غارقين في عوالم الحكايات هاربين من وحدتهم ورتابة حياتهم الباردة. معظم الكتب استبدلت بهواتف وألواح إلكترونية.

في كل محطةٍ كنت أنظر للركاب ينزلون ويطلعون في سرعةٍ وتزاحم مرتب. أحدق في لافتة تحمل اسم المحطة، وأتذكر عشرات التفاصيل التي مررنا بها سويًا. حين كنا ننزل مرتبكين بحقائبنا. حين كانت تصر على أنها تعرف كل المداخل والمخارج دون الحاجة إلى قراءة الخرائط الكبيرة التي كنت أفردها بين يدي مرتبكًا. اللحظات التي كانت تبدو لي فيها غريبة عن العاصمة الكئيبة سريعة الحركة تمامًا مثلما كنت أنا. حين كانت توقف هرولتنا المتعجلة للحاق بالقطار لالتقاط صورة «سيلفي» سريعة غالبًا ما تكون مهزوزة وتضطر إلى حذفها. هجوم كاسح على كل حواسي يكاد يعصف بي. أصداء الأصوات والروائح والضجيج والوحدة. كل شيءٍ يصرخ باسمها ها هنا.

خرجت من المحطة صاعدًا على السلالم الكهربية بسرعتها الرتيبة. أوتوماتيكيًا سجل مخي أني قد سافرت، فعدلت من وقفتي العشوائية وانتحيت الجانب الأيمن من السلم. جاء ذلك في اللحظة المناسبة بينما يمر بجانب كتفي شاب من الرحالة، يتقافز ركضًا فوق السلالم على الجانب الأيسر الذي يتركونه خاليًا للمتعجلين. غمرتني رائحة عرقه التي خلفها وراءه، نظرت لظهره باستنكار وهو يصعد مبتعدًا. ثيابه متسخة وشعره معقود في ضفائر أتلفتها الرطوبة وقلة الغسيل. على ظهره حقيبة تخييم بطول جسده كانت يومًا ذات لون.

خرجت من السلم إلى الفضاء الواسع لبهو المتحف مباشرة، فأحد مخارج المحطة ينتهي داخل المتحف ذاته. هالني الشعور الغامر للقبة الزجاجية الضخمة التي هي كل السقف المغطي للساحة بأرضيتها

البيضاء اللامعة. رفعت رأسي وراقبت السحب تسير من فوقنا. الطوابير الطويلة تمتد أمام مكتب الاستعلامات الذي يتوسط الساحة.

حينما رأتني ماري لأول مرة ما إن خرجنا من السلم أخذت تضحك. كانت نظرتي المشدوهة أمام الجمال الذي غمرني دون توقع مضحكة بالنسبة لها. «الذهول الذي يعلو وجهك الآن لا يُقدر بثمن». أجبتها بأني لا أصدق أني في حضرة كل هذا الجمال. وأنني لم أكن أحلم بأن أكون بهذا القرب من هذه اللوحات والتماثيل التي طالعتها آلاف المرات في الكتب. والآن أكتشف بهاءً لا تستوعبه صفحات الكتب اللامعة: جمال المعمار والقدرة الفريدة للإنسان على التشييد. هذا التقديس الذي يحملونه للفن. «وكأنهم يقولون إن الحرم الذي نبنيه لضم هذه الأعمال لن يقل عنها جمالاً وإجلالاً».

«حين أتيت إلى هنا لأول مرة في رحلة مدرسية، كنت أعد الدقائق كي أهرب من هذا المكان». قالت.

الضجر على وجهها الآن يكفيني لأرى بعين خيالي حالها وهي طفلة في تلك الرحلة. بشعرها الأشقر وقميصها الأبيض وبنطالها الكحلي. جذبتها مستعجلًا لنشاهد اللوحة التي أتوجه نحو قاعتها الآن. كنت قد بحثت عنها بسرعة في كتيب المتحف الذي جذبته من على الرف ما إن دخلنا. بعد أن مررنا ببضعة دهاليز وقاعات بإضاءتها الدرامية الخافتة وصلنا إلى القاعة المنشودة.

أكور قبضتي بتوتر حول قطعة المغناطيس في جيبي وأنا أعبر بابها. يخيم الهدوء على القاعة الأقل ازدحامًا من مثيلاتها التي تضم لوحات أكثر شهرة. لا تزال على حالها كما تركتها حين زرناها منذ تسع سنوات. لا شيء تغير البتة. نفس الهدوء الذي لا يقطعه سوى أنفاس الواقفين ونقر أحذيتهم فوق الأرض الخشبية.

رويدًا رويدًا نقترب منها. دون أن أشعر أترك ماري وحدها وأسبقها بخطوات نحو التحفة التي تخطف قلبي وعقلي ما إن أراها. ينفتح

فمي في اندهاش ذاهل. أقترب نحو الكنز الذي تقع عليه عيناي المتعطشتان لتدفق الأحمر الباهر من ثوب الملك الراكع أمام العذراء والمسيح الرضيع في حجرها.

تجري نظراتي في أرجاء اللوحة الواسعة. تمتص تفاصيلها التي تتناثر على عرضها الذي يبلغ قرب المترين ونصف المتر. أقترب منها حتى أكاد أشم رائحة الزيت التي لا تزال متعلقة بها لأكثر من 600 عام.

أفيق من سكرتي التي تركتني فيها ماري حين تتقدم نحوي سيدة الأمن وتحذرني هامسة لأنني تخطيت الحد المسموح به بالاقتراب من اللوحة. تشير ورائي نحو الأرض لأرى الخط الأزرق الزاهي. أعتذر لها محرجًا بينما أعود أدراجي إلى الدكّة التي جلست عليها ماري في حجابها الفضفاض.

أرتمي بجانبها وأنا لا أرفع عيني عن اللوحة.

«يا إلهي! هذه النظرة في عينيك.. لهذا أحبك! تدهشك الأشياء البسيطة». تهمس.

«إنه أحد أبطالي». أقول لها.

«ولكنها لوحة تشبه مئات اللوحات الدينية التي نراها. ما الذي يجعلها ساحرة هكذا؟»

أتنفس بعمق وأنا أستحضر مئات التفاصيل التي أحفظها عن ظهر قلب حول تلك اللوحة التي خلبت لبي لسنوات.

«يا إلهي! تقولين ذلك على دير جويس؟ لو تعرفين كم تحمل هذه اللوحة من تفاصيل وأسرار ما كنتِ قد قلتِ هذا. هل أنتِ مستعدة لسماع الحكاية؟»

***

الآن ماري ليست بجانبي. وليست هنا كي أحكي لها عن تلك التفاصيل.

فقط مفكرتي الصغيرة أدون فيها ما أتذكره. جلستنا وحديثنا. مواقفنا وعراكنا.

منذ قررت أن أدون كل ما أعرفه عن ماري وأنا في حالة تذكر مستمرة. باتت هذه الرحلة ضرورة لا أكاد أحتمل الحياة دون أن أخوضها. لم أفكر في العواقب. فيما سينتظرني. فقط قررت أن أعود إلى هنا بعد كل تلك السنوات لأني أريد أن أعرف مَن هي ماري.

لقد دفنت الكثير والكثير يوم أن غادرت. باتت ممارسة الألم بالنسبة لي طقسًا يوميًا. الوجع بكل صوره. وجع الحنين. وجع التذكر. ألم الفقد. بعد زواجها توقفت ماري عن أن تكون جزءًا من كياني وتحولت مع تكرار الأيام المظلمة إلى بقعةٍ رماديةٍ تقبع بداخلي، فمن الجنون أن أواصل رثاء الحب المفقود في حين منحت هي نفسها لرجلٍ آخر. كان رعبي الأكبر هو أن تكون ماري لغيري، أو أن يكون لا يزال بداخلها بقايا ممَّن سبقوني. منذ اليوم الأول كان هذا هاجسي. وفعلت كل ما يمكن أن أفعله حتى نجحت في تحويل هذا الرعب إلى واقع. حدثني عن كره الذات.

دفنتها إذن. وأصبحت بالنسبة لي كائنًا شاحبًا وذكرى بعيدة لا تمثل لي شيئًا. كنت قد تعبت من كل الأسئلة التي عصفت بي ولم أجد لها إجابة، سواء حين كنا معًا أو بعد أن رحلت. أخرجت كل شيءٍ في الخطاب اللعين لأني كنت قد تعبت. وحين أصرت على ألا تعود عقابًا على غلطتي الشنيعة فعلت كل شيءٍ يمكن لي أن أفعله لأعلن حزني وسخطي: شربت وتناولت المهدئات واعتزلت الناس وكتبت هراءً وقصرت في عملي ونظافتي.. فقدت الإيمان واستعدته عشرات المرات.. الإيمان بالبشر وبالله.

بعدها توقفت عن مشاهدة صورنا ومطالعة أحاديثنا المكتوبة التي قمت بنسخها ألف مرة حتى لا تضيع. توقفت عن هذا. ومرت ثلاث أو أربع سنوات لا أذكر. مرت وظننت حتى الآن أني نسيت ماري. وشغلتني

توابع أفعالي ونسيان العالم لي أكثر ما كانت هي تشغلني.

ثم حين رأيت أشلاءها على التلفزيون، والدمار الذي خلفته، واستوعبت أنها قد رحلت إلى غير عودة. لم أشعر بشيء. أكثر من الذهول المنطقي. غير ذلك لا شيء. فراغ. صدى. موجات هائمة من الذكريات باهتة الملامح، ولكن مع كل ساعةٍ مرت بعدها يتعاظم بداخلي ذلك الشعور المخيف بأن جزءًا ما من وجودي صار هلاميًا وغير مفهوم. وكأن عضوًا قد اقتُطع من جسدي على حين غفلةٍ، وأحاول أن أتحسسه فلا أجده، وأتعجب: كيف لا أشعر بالألم؟

وها أنا الآن أقطع تذكرة وآتي إلى هنا، أعيد سير خطوات رحلتي مع ماري، علّي في اقتفاء الأثر أجد فهمًا لكل ما حدث، وكيف انتهى. علّني أجد في تدوين كل ذلك، كل ما كان وكل ما سيكون من رحلتنا، إجابةً. علّني حين أعيد قطع المغناطيس إلى حيث التقطناها يومًا أتخفف من ثقل حملها في قلبي.

«ماري. هذه اللوحة تخطت الستمائة عام. هل ترين الألوان؟ كم هي ناطقة ومبهرة كأنها صورت بالأمس؟ مَن ذا الذي يستطيع أن يرسم عملًا اليوم ويبقى حيًا بعد كل تلك السنوات؟ ليس هذا فحسب، بل ويظل مبهرًا وحقيقيًا حتى اليوم. انظري لليدين في كل شخصية كم هي معبرة! إن انبهار الملوك بالمعجزة الماثلة أمامهم حولهم إلى عباد زهاد ينسون ملك الدنيا بالكامل، يركعون ويطأطئون رؤوسهم في حضرة هذه الطاقة الإلهية الماثلة أمامهم. كل هذا تستطيعين فهمه من الابتهال الذي رسمت به أناملهم المضمومة. الخدام والملوك يتساوون كبشر دون تفرقة عند مثولهم أمام الطفل. انظري للنقوش الذهبية على ذراع الملك. تفاصيلها المبهرة، هذا أمر غاية في الصعوبة. كيف استطاع الرسام في ورشته البدائية في منتصف القرن الخامس عشر أن يستحضر حدثًا مر عليه أكثر من ألف وخمسمائة عام بهذه الدقة؟ يستحضر جلاله وبهاءه وقدسيته. ماذا كان يرى بعين خياله؟ وماذا كانت ترى عيناه في هذه اللحظة؟ هل كان جالسًا في الظلام والعتمة؟

أم كان في حديقة غنّاء تسطع عليها الشمس المضيئة؟ هل كان يشم رائحة الزيت والألوان وملابسه ملوثة بالصبغة؟ أم كان حوله مريدون يركعون لكل ضربة من ضربات فرشاته ويصرخون إعجابًا؟»

يومها لم أقل كل هذه التفاصيل لماري. لا أذكر. ربما قلت لها شيئًا مشابهًا. كانت تطالع هاتفها المحمول فجأة وسط كلامي. وحين تنظر تهز رأسها محاولة ادعاء أنها تتابعني باهتمام، تخبرني عيناها الخاليتان بأنها لا تكترث بسماع ما أقوله. كنت أتجاهل هذا الإحساس. كانت تنبهر في البداية. ولكن ربما ملت ما لم أكن أنا أمل منه. كنت متعطشًا لعظمة المعرفة. أما هي فكانت تضجر بسرعة. كنت أتجاهل نظرتها الضجرة تلك وأواصل الحديث. متأكدًا أن شيئًا ما سيصل إليها. ينير عقلها. «أنتِ لا تدركين كم أنتِ محظوظة. أن يحوطك كل هذا. على بعد ساعات بالقطار. أن تحاطي بكل هذا ويكون الوصول إليه ميسرًا هكذا. أن تكون أوربا كلها تحت قدميك. أنتِ لا تُقدرين حقًا ما منحكِ القدر إياه بميلادكِ هنا. ذلك الحق المكتسب بالميلاد الذي يعيش الملايين ويموتون دون أن يبلغوه». كنت أقول لها. مرارًا وتكرارًا. وأقول لأهلها. ولكن لم يكن أحد يسمعني. فقط يهزون رؤوسهم بابتسامةٍ سمجةٍ وهم في داخلهم يضحكون على اندهاشي الساذج.

«انظري ناحية اليسار. كيف تمكن من المنظور الخطي بهذه الدقة والنفاذ، وهو الاكتشاف الحديث الذي لم يكن قد مر عليه سوى عشرات السنوات وقتها. كيف استطاع أن يمنح تلك المصداقية لحجم البيوت والحيوانات في هذه الخلفية الغريبة. هذه ليست خلفية تقليدية كتلك التي نجدها في مثل هذه اللوحات، نحن هنا نطالع المنظر الطبيعي من وراء فتحة في يسار السور وكأنه موجود بالمصادفة، وكأنه شيء عفوي وغير مهم. المذهل هنا هو السذاجة التي جعلته يصور البنايات والملابس كما هي في عصره، وليس بالبدائية التي كانت عليها وقت ميلاد المسيح حين جرت الأحداث التي تصورها اللوحة. هذا يخلق معضلة زمنية لو حدثت اليوم لكانت مثار سخرية. ولكن هذه البساطة

والسذاجة في التفكير لم تكن لتنتقص من تلك الموهبة الجبارة ولا أن تقف حائلًا أمام تصديقنا للمشهد الذي تصوره اللوحة، والذي نطالعه بعمق إيماننا. كيف استطاع دير جويس النفاذ من هذه السقطة؟ في ظني أن ذلك ببساطة يعود لقوة الفن الجيد، وإعجازه المتفرد الذي لا يقل عن المعجزة التي تصور اللوحة مشاهدها».

أستفيق من شرودي فجأةً وأنظر بجواري إلى الفراغ فوق الدكة الخالية الآن. لستِ هنا. تمامًا كما هو دير جويس. منذ ستمائة عام ليس هنا. ولكنه لا يزال، كما أنتِ، حاضرًا.

أنظر نحو شابة آسيوية وحيدة تقف على مقربةٍ مني. تصور اللوحة خلسة بهاتفها المحمول. شظايا من بقية حوارنا يومها تتداعى الآن إلى ذاكرتي. إني أتذكر. أخرج مفكرتي بسرعة وأدون.

«دير جويس. لم أسمع به من قبل. هل هو مشهور؟ هل تحبه حبك لذلك الإيطالي الذي تحدثني عنه كثيرًا؟»

«انبهاري بدير جويس لا يأتي من أعماله فحسب، فهي قليلة وما بقي منها مستنسخات نفذها تلاميذه وفنانو عصره، ولكن حبه وهوسه بما يقوم به لطالما اكتسب احترامي. دير جويس يتعبد بحق بأعماله تلك. هذا الإيمان المطلق الذي رسم به لوحاته يجعله مختلفًا عن هؤلاء الذين لم يكونوا يؤمنون سوى بعظمتهم الشخصية، ويسطرون أساطيرهم الشخصية بما يقدمونه من أعمال دينية. انعدام ثقته في نفسه أيضًا مبهر للغاية. لقد أصيب بالجنون أواخر حياته وحاول الانتحار. قبلها انضم إلى دير وأغلق مرسمه وهو في أوج شهرته. داخل الدير كانت له استثناءات. سمحوا له بمواصلة الرسم واحتساء النبيذ. كل مَن زاره كانوا نجوم المجتمع، منهم إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ماذا يعني هذا؟ إنه كان فنانًا عظيمًا ومتحققًا، والتاريخ إلى اليوم يفصل في عبقريته: احتواء هذا المبنى العظيم لإحدى لوحاته، وشغف شاب شرقي مثلي يأتي إلى هنا وكأنه يحج ليرى تلك اللوحة التي

تحكي عن الحجاج الذين زاروا الطفل المعجزة. لقد تحولت أنا من مشاهد للوحة إلى أحد شخوصها. وتحولت هي إلى إعجاز صافٍ.. ورغم كل ذلك كان يمتلك من الأصالة الصادقة ما يجعله يشعر بأنه ضعيف، وبأنه لم يرسم عمله العظيم بعد. كان يهذي في أواخر حياته بهلاوس عن عدم قدرته حتى الآن على تقديم عمل أعظم من مذبح غنت، الذي رسمه فنان مجهول قبل مولد دير جويس ببضع سنوات».

«كل الفنانين مجانين. أعلم أنك ستكون أحدهم. أخاف من اليوم الذي يصيبك فيه الجنون. لا تخاف حبيبي سوف أقدم لك ما تحتاجه من رعاية وأحافظ على حبيبي الفنان المجنون». قالت ضاحكة وهي تربت ظهري.

«بعد وفاته بأربعمائة عام ظهرت وثائق تشرح هذيانه هذا. ووقتها كتب طبيب ألماني عن تلك الهلاوس التي انتابته. ابن أخ هذا الطبيب كان رسامًا. تأثر بما كتبه عمه عن الفنان العظيم، وعبر عنها في لوحة جبارة تصور دير جويس غارقًا في هذيانه جالسًا بنظرة ذاهلة داخل الدير وعلى يمينه جوقة من الأطفال يقودها راهب عجوز. لقد أثرت هذه اللوحة في كثير من الفنانين، وأصبح دير جويس شبحًا يجسد فقدان الفنان لثقته في قدرته أثناء مطاردته لشبح الفن المجنون. حتى إن فان جوخ كتب عن تلك اللوحة حين رآها لأخيه ثيو في أحد خطاباته الشهيرة، وأخبره بأنه يرى نفسه في تلك اللوحة، وأنه قد توحد في التو مع دير جويس، وأنه يعلم تمامًا بماذا يشعر وما يمر داخل عقله المرهق».

يقيني بعبقريتي يقتلني. لا يداهمني الشك أبدًا حول عظم موهبتي. حتى الشك أنا محروم منه. حتى فوزي بجائزة معدةٍ مسبقًا لم يهز ثقتي بنفسي. ولكن حقًا أين أنا من هؤلاء؟

فتحت ماري زجاجة صودا في الخفاء بينما نظرت لها في ذعر. أخذت منها رشفة خلسة.

«ماري أنتِ تعلمين أن هذا ممنوع هنا. سوف يطردوننا».

ضحكت بشقاوة وهي تعيدها إلى مكانها.

«بالله عليك. لا بد من أن تغامر بين الحين والآخر. أنت ممل في التزامك هذا. هيا بنا سيقتلني الضجر».

غادرت القاعة وأنا أنظر خلفي نحو اللوحة، تاركًا ذكرى ماري ترقص مع شبح دير جويس حول أفكاري المعلقة بأقدام الطفل المقدس في حجر أمه. حولهم جميعًا سطع الشعاع الذهبي للحضور الإلهي الأبدي.

قبل أن أغادر المقعد الخشبي كنت قد ألصقت على باطن دعامته المعدنية مصغرًا مغناطيسيًا للوحة «سجود الملوك» للرسام الفلمنكي هيوجو دير جويس.

***

استقللت القطار في الرابعة. تأخر ربع ساعة. لم أستغرب من ذلك، فعلى الرغم مما نتداوله عن دقة مواعيد القطارات هنا إلا أنها لم تكن المرة الأولى. تحرك أخيرًا ولا تزال الشمس ساطعة. شردت في الغابات الخضراء الكثيفة التي نمر وسطها، ثم أخرجت الخطاب اللعين وشرعت في قراءته حتى غفوت.

وصل القطار في الثامنة والنصف مساءً. نزلت إلى المحطة وعاد كل شيءٍ إليَّ في لحظة. وكأن الهواء يحمل رائحة ماري. رائحة المروج التي علقت بملابسها وبيت أهلها. افتقدت كل شيءٍ هنا. رائحة المطر، والبرد الذي ينخر في العظم، والملابس العديدة التي تكتف حركتي. صوت النعال الصامت فوق الحشائش الطويلة وفروع الأشجار وهي تتقصف. صفارات إنذار سيارات البوليس والإسعاف التي تدوي من بعيد طوال الوقت، النساء العجائز محنيات الظهر، بإيشارباتهن القصيرة الملفوفة حول وجوههن المنكمشة، وأقرانهن الرجال يسيرون بعصيانهم الزان المتآكلة وهي تضرب في الأرض بدقات تُنذر بقرب

انتهاء الأيام.

يغوص قلبي بين ضلوعي وأنا أستمع لإحدى أغنياتنا المفضلة عبر سماعتي اللاسلكية وأنا أدخل النزل الذي اعتدت الإقامة به حين أتيت لزيارتها قبل زواجنا.

كان نُزلًا تم بناؤه منذ نحو مائتي عام وهذا أجمل ما فيه، يحمل طرازًا سلافيًا وألمانيًا بأقواسه المتعددة واقتصاد الزخرف، وسيطرة الخشب العتيق الذي يكون أساساته وأثاثه بالكامل. بسقفه المنخفض يذكرني ببيوت الهوبيت الضئيلة في أفلام «ملك الخواتم». البار الضيق لا يندر فيه الجالسون في مثل هذه الساعة، يأتون إلى هنا طلبًا للدفء بمشروبهم الكحولي التقليدي المُحلّى بالعسل. استغربت أن بعضهم حمل ملامح أجنبية.

خلف البار كان يقف رجل أصلع جرم حول وسطه منشفة عريضة، وقف يجفف بطرفها الأكواب وهو ينظر نحوي بعدائية وأنا أتقدم نحوه بحقائبي. هز رأسه لأعلى متحدثًا بالإنجليزية: «هاللو». أجبته التحية بلغة البلد وشرعت في طلبي لغرفة للمبيت. ارتخت ملامحه المتقلصة قليلًا حين وجدني أتحدث بلغته.

أعطاني المفتاح وطلب مني الانتظار ريثما يعدون الغرفة. انتحيت جانبًا على إحدى الطاولات بعد أن أخذت مشروبي من البار.

من على بعد ظل يراقبني بفضول محاولًا أن يتقبل لساني الطليق الذي لا يليق بهيئتي الأجنبية. عدائيته ليست جديدة عليّ في بلد معزول يندر فيه وجود الأجانب غير المرحب بهم.

لذلك لم تُرد ماري أن نحيا هنا، كانت تعلم أنني مهما كنت ومهما حققت سأظل ذلك الأسمر ذا الشعر الخشن، وستظل هي ابنتهم التي أخذتها منهم وغطيتها بأحجبة شفافة.

على الرغم من ذلك لم تألُ ماري جهدًا كي تعلمني لغتها حتى استبدلناها بالإنجليزية بعد عامنا الثاني. حاولت بدون حماس حقيقي أن أعلمها العربية، وهي بعنادها كانت تقاوم وتشتكي حتى استسلمت أنا.

كانت أزمتي الأساسية في مسألة التحدث معها بلغة أخرى غير العربية هي شعوري الدائم بالإرهاق والتهديد. كنت أعود من الجامعة بعد محاضرات طويلة استمرت طوال اليوم وأنا لا أقوى على التحدث، وكانت هي متشوقة للحديث بعد جلستها طوال النهار والليل في المنزل وحدها. كانت فكرة ترجمة ما أريد قوله من العربية إلى لغتها قبل أن أنطق، حتى لو كان ذلك لأجزاء من الثواني، فكرةً مزعجةً للغاية، وكثيرًا ما دفعتني إلى تجنب الحديث معها لأنها تصيبني بالصداع والتوتر. خاصة حينما أحاول البحث عن جملةٍ طويلةٍ توازي ما يمكن أن أقوله في كلمةٍ واحدةٍ فقط بالعربية. كنت أرى اعتماد لغتها اللغة الرسمية لمنزلنا تهديدًا محدقًا لهويتي، لتفكيري وقدرتي على التعبير. ولكنه كان اتفاقًا قبلته منذ اليوم الأول. «إذا كنا سنقيم في بلدك، تتعلم أنت لغتي». كانت براجماتية غربية مقيتة تلك التي مارستها ماري معي في كثير من المواقف بعد زواجنا.كل شيءٍ تحسبه بالورقة والقلم. ما لها، وما عليها. إذا ما اشترينا مشروب الزبادي المفضل لها فإنها تتابع انتقاصه من الزجاجة كل يوم، وتلومني إن شربت منه شيئًا. حين نقابل أصدقائي تنتظر ساعة واحدة بالضبط قبل أن تقوم لتعلن مغادرتنا. «إذا أردت أن أنام فلا شيء يجبرني على أن أجلس رغمًا عني»، كانت تقول ببرود ونحن عائدين في السيارة بينما أستعر أنا غضبًا مكتومًا من أنانيتها تلك. كانت تقوم بواجباتها ولا تطيق على تأخر المقابل صبرًا. أبدًا.

استمتعت بتعلم لغتها وبالاستفاضة من كل ما منحه هذا لي من مصادر جديدة للمعرفة. كانت لغة سهلة وغير معقدة، ولكن الهاجس ظل يطاردني. كنت أخاف طوال الوقت أن يؤثر ذلك الأمر على كتابتي

ومفرداتي، وأن أتحول مثل هؤلاء المدعين الذين يفكرون بالإنجليزية أو الفرنسية ثم يترجمون أفكارهم للعربية وهم يكتبون فتظهر نصوصهم مسخًا غير ذي طعم أو روح. ربما لذلك انغمست في الكتابة أكثر مما كنت أفعل قبل الزواج. في البداية فسرت ذلك بأنه كان استغلالا للاستقرار النفسي والجسدي الذي حظيت به من الزواج، ولكن مع الوقت يتبدى لي أكثر فأكثر أنها محاولة للهروب وتأكيد وجودي، وأنها لن تمحوه، وأن ثقافتها ولغتها لن تكون الأقوى. كانت حربًا ضمنية تدور حفاظًا على هويتي كما أراها.

انتبهت إليه وهو يشير لي من خلف البار أن الغرفة صارت جاهزة. تناولت حقائبي وصعدت بضعة سلالم دائرية إلى الطابق التالي.

حين دخلت طالعت من النافذة المنظر الذي أحفظه عن ظهر قلب: الساحة الصغيرة بإضاءتها البرتقالية الخافتة وفراغها المظلم أثناء الليل. في الصباح الباكر ستأتيني أصوات الطاولات والكراسي وهي تُرص خارج المحال والمقاهي التي تحتل الساحة، تعقبها رائحة القهوة والمخبوزات التي تنطلق مع ساعات الصباح الأولى مختلطة بأصوات مرتادي المقاهي ليفطروا على عجل، أو بعض السياح والمتقاعدين الذين يجلسون هناك طوال الظهيرة.

وضعت حقائبي ونزلت على الفور أسير في الساحة والشوارع الضيقة برصفها الحجري الذي يؤلم قدمي، ولكني أعشق شكله وعبقه. كل شيء صامت ومظلم وكل شيء نائم في هذا الثلج. الصيف هنا نعمة. مليء بالحيوية والسعادة والاسترخاء، أما الشتاء فهو عقاب على كل خطايا الماضي. خطاياي مع ماري وخطايا كل هؤلاء الذين عاشت معهم في تلك البلدة النائمة الهادئة التي تبعد عن العاصمة أربع ساعات بالقطار.

تلك البلدة التي كانت نائمة حتى أيقظتها ماري على دوي انفجار مخيف دمر كل شيء، ولم يعُد شيء قبله كما كان.

هكذا أخبرتني كارين حين وصلت على عجل متدثرة في قبعة صوفية

ومعطف طويل تخبئ ياقته نصف وجهها بعد أن أرسلت إليها أعلمها بوصولي المفاجئ إلى النزل الذي يبعد بضعة كيلو مترات عن الحي الذي تسكنه مع عائلة ماري الكبيرة.

***

احتضنتني بقوة وكأنها تحاول تصديق أنه أنا. أما أنا فحاولت أن أشم فيها ماري بينما أدفس رأسي بين أطراف خصلات شعرها الهاربة من قبعتها، وأدركت لحظتها، إدراكًا فجائيًا كفكرةٍ مجهولةٍ خرجت من رحم السماء، أنني لم أشتم شعر ماري أو أتلمسه بوجهي أبدًا خارج منزلنا. احتضنتها كثيرًا. في الساحات وأمام محال العطور وفي المطارات ووسط الحدائق. حتى اليوم الذي رأيتها فيه آخر مرة وأنا أوصلها إلى المطار لسفرتها الأخيرة. احتضنتها. ولكنها ظلت دائمًا على عادتها منذ أن عرفتها، تدفن خصلاتها الذهبية المتموجة تحت حجابها بطبقات محكمة.

- أنت مجنون! ماذا أتى بك إلى هنا؟ يا إلهي! ماذا تفعل هنا ومتى قررت المجيء؟ لماذا لم تخبرني؟

كانت الكلمات تتدافع من فمها في ذهول تترجمه نظرات عينيها الرماديتين الواسعتين.

- تغير شكلي كثيرًا أليس كذلك؟

حكيت لها عن قطع المغناطيس، وعن الجريدة ورئيس التحرير، وعن عدم تصالحي مع كل ما حدث بيني وبين ماري. حكيت لها عن عدم تصديقي لما فعلته حتى الآن. وشعوري بأن لديَّ دورًا في هذا كله.

- صدقيني لا أدري ما أتى بي إلى هنا. لا أعلم ماذا سيحدث. ولكني أريد أن أكتب. أن أكون قريبًا منها قدر الإمكان. أن أودعها. أن أكتب عنها وعمَّا حدث هنا. أريد أن أفهم ماذا حدث ولمَ.

تمشينا في الشوارع المظلمة. نخرج من طريق لندخل في زقاق. نقابل

كل حين وآخر مخمورًا يتقيأ خارج أحد البارات المتناثرة هنا وهناك. لا تزال أشباح عيد الميلاد تحوم أمام الأبواب وفوق الأرصفة. أشجار نصف ميتة. كلها مظلمة. يغطيها الثلج والكراهية.

- لا أحد منا يفهم. الكل لا يزال في ذهول ولا يدري ماذا حدث. كما أخبرتك كنا نعرف أنها تسير مبتعدة عنّا، ولكن لم يهتم منّا أحد. ربما كنا نظن أنها ستعود، وأن هذه إحدى شطحات ماري التي تعودنا عليها. الذهول يخيم على الجميع الآن. حتى أنا. فقدت العديد من الصديقات والقريبات. حجم الكارثة أكبر من أن نفهمه. مشاعر العدائية نحو عائلتنا تبدو تائهة وسط الحزن ولكنها هناك، نشعر بها في الكلمات والنظرات الحادة الصامتة، لن يمر وقت طويل حتى يبدأ الجميع في لومنا صراحة على ما حدث.

شعرت بالقلق حيال كلماتها. ترى أيُحملني أيٌ من هؤلاء المسئولية؟

- لن يعود شيء كما كان. الصخب هنا رهيب. الصحفيون أتوا واحتلوا البلدة. وكالات الأنباء تتابع وتستجوب كل مَن تقع أعينهم عليه. الشرطة تلاحقنا طوال الوقت بأسئلتها التي لا تملك سواها ولا نملك لها إجابة. عمي وزوجته يكاد يصيبهما الجنون والذهول. كيف يمكن لك أن تدفن ولدك وأنت تعلم أن خمسين جثة سوف تُدفن معه؟ كنا نظن أن هذه الأمور لا تحدث لنا. فقط نشاهدها على التلفزيون. ماذا حدث. أرجوك أخبرني. ماذا حدث؟

وسط دموعها واصلت كارين تساؤلاتها الذاهلة. كنت أستمع لها وأنا أمشي بجوارها مطأطئ الرأس شاخصًا ببصري إلى حيث تسير قدمي، غارقًا في التفكير أحاول استيعاب ما تقوله دون أن أملك إجابة. لقد أتيت بحثًا عن الإجابة.

كنت أحتاج إلى الصبر والهدوء حتى أتمكن من استمالة كارين إلى ما أردت منها القيام به قبل جنازة الغد بأي ثمن.

عادت إليّ ذاكرة الطرقات بيسر وكنت أحسبني نسيتها. قدت مسيرنا

دون أن تدرك هي إلى النزل.

ما إن وصلنا حتى دعوتها لتناول الشراب. دلفنا إلى الداخل. اخترت طاولة في ركن بعيد. جلست هي بينما ذهبت إلى البار وأتيت بكأسين. عدت إليها وأنا أشق طريقي بصعوبة وسط الزحام. كثير منهم من الصحفيين والمراسلين، الآن بعد أن حكت لي كارين أدركت. جميعهم يجلسون إلى هواتفهم المحمولة أو اللابتوب. من جنسيات عديدة. يشربون ويوزعون البطاقات على بعضهم البعض بوجوهٍ جامدةٍ لا تحمل أي قدر من الود أو الاكتراث.

قبل أن أصل للطاولة كنت قد أخرجت هاتفي المحمول ووضعته على وضعية الطيران، ثم ضغطت زر التسجيل. أغلقت الشاشة وأعدته إلى جيبي وأنا أجلس أمامها.

- كارين. أريدكِ الآن أن تغمضي عينيكِ وتحكي لي تفاصيل الأيام الأخيرة كما حدثت بالضبط. لا تتركي شيئًا دون أن تخبريني إياه.

تنهدت ببطء وهي تنظر نحو كأسها بشرود.

***

«لم تكن الأمطار قد توقفت منذ اليوم السابق. استيقظنا جميعًا في الصباح الباكر لنعلق الزينة. خرج أفراد عائلتنا جميعًا لاحتساء القهوة أمام البيوت غير عابئين بالأمطار ولا الشوارع الزلقة. أنت تعلم أن أعمامي وأبي لا يحدثون بعضهم البعض كثيرًا، إذ تركت الخلافات العائلية أثرها بيننا جميعًا، ولكن في النهاية الكل ينتهز ليلة عيد الميلاد فرصة لإبداء التسامح. حتى لو كان مؤقتًا فإنه يظل حقيقيًا وصادقًا.

وسط هذا الصفاء الذي يملأ الأجواء جاءت ماري. كنت واقفة مع أبي نضحك وهو يشب فوق السلم محاولًا أن يعلق الزينة أعلى بابنا حين وصلت السيارة. نزلت من السيارة بعباءتها المزركشة وهي تحمل ابنتها على كتفها بينما هرعت أولجا لتحتضنها بقوة. تقدمت نحوها بضع

خطوات ثم توقفت للحظة وأنا أعبر الطريق الضيق الذي يفصل بين بيوتنا. لعلك تذكر الحي وبيوته الصغيرة. صُدمت حين وجدت وجهها مخفيًا ببرقع من ذات لون عباءتها. كنت قد نسيت أنها قد بدأت في ارتدائه منذ العام الماضي. كنت أرى صورها على إنستجرام وأتساءل عن الحكمة من التصوير ولا شيء يظهر من وجهها. قد تكون ليست هي، أليس كذلك؟ ما المميز في التصوير بوجه مقنَّع؟ لا أعلم إن كانت هذه التفاصيل هي ما تريد أن تسمع أم لا، ولكني أخبرك بكل ما يتداعى في ذهني من أفكار دونما ترتيب».

- هو كذلك بالضبط، أكملي كما أنتِ، لا تقلقي.

من حولنا كانت موسيقى فولكلورية تتسلل بخفوت من أرجاء المكان الذي هدأ صخبه بعض الشيء الآن.

- كل الواقفين في الشارع هرعوا إليها. الشباب الصغار مثل أخي يعلمون الآن ألا يمدوا أيديهم للسلام عليها. اكتفت بتحيتهم بأحضان هوائية كما كانت تسميها. الكل بدا سعيدًا برؤيتها رغم الفظائع التي قالتها لنا على مر السنوات من رفضها لنا. كانت تقول إنها تكرهنا. وتكره أننا أهلها، وأخذت تحثنا على ترك ما نعيش فيه من... من... لا أذكر اللفظ الذي استخدمته، ولكنه كان لفظًا عربيًا كانت تظن لسببٍ ما أننا نعرفه.

- الجاهلية؟

- هذا هو. لكن يومها كانت مختلفة، كانت عيناها تضحكان، حتى لو لم أكن أرى وجهها أستطيع أن أجزم لك أنها كانت تبدو سعيدة عن حق في ذلك اليوم. كانت على غير ما عهدناها. استطاعت في تلك اللحظات الأولى ما إن دخلنا إلى صالة بيت عمي أن تزيل كل التوتر الذي كنا نشعر به قبل قدومها. دائمًا ما كنا نقلق من زياراتها القليلة التي تمت منذ سنوات. كانت ماري غير تلك التي كنا نعرفها حين كنتما متزوجين. نظرة الاستياء والوجه المتجهم طوال الوقت، التعليقات اللاذعة

والاتهامات الطائشة التي قد تطال أيًا منًا دون مقدمات. نوبات الغضب والسلوك العدواني الذي ذكرني بأيام مراهقتها حين كنا صغارًا. ولكن هذه المرة ماري مختلفة. كانت كما كانت معك أو حتى قبلها. أخذت تلقي النكات وتتحدث بسرعة وبتدافع مضحك للأفكار، بدت أكثر هدوءًا وليونة في التعامل.

ابتسمت وأنا أراها وسطهم كما اعتدنا منذ زمن بعيد.

انصب اهتمامنا على روكايا. يا إلهي كم هي جميلة! إن رأيتها ستذهل كيف هي نسخة من ماري، كان الكل يلاعبها ويلاطفها، وطمأنتها أولجا بصوتها العالي، وكانت غالبًا مخمورة بعض الشيء، إن كل شيء مُعد لاستقبال الملاك الصغير، وأخذت تلاعبها بفرحة عارمة، تطلق أصواتًا سخيفة وتفتعل علامات مضحكة بوجهها، كانت أولجا سعيدة وبدت ماري أكثر سعادة حتى إنها أفلتت قبضتها عن الطفلة الجميلة وتركتها لتتناقلها أيادينا ونغدق عليها بالحلوى والمكسرات التي أخذت مكانها على الطاولات وفي الأركان.

- كم عمرها الآن؟

- أظنها في شهرها العاشر.

تدافع الدم إلى رأسي فجأة. نظرت للكأس التي أمامي مذهولًا وتساءلت عن قدر الشراب الذي احتسيت حتى الآن.

كيف لم أدرك الاسم فور أن نطقت به كارين؟

تركت رأسي يدور بينما تكمل ابنة العم حكايتها.

- رويدًا رويدًا خرج أبناء العائلة الشباب ولم يبقَ سوى أولجا وفريدريك، وأبي وأمي، وبعض الأقارب العجائز. خلعت ماري برقعها وبدأت في شرب القهوة التي أعدها أبوها. بدأت تتحدث في أمور شتى أغلبها تخص الطفلة. سألها أبي من باب الكياسة عن زوجها فأجابت باقتضاب أنه بخير، ولا يزال يقضي وقته في إعداد الدكتوراه التي

تأخرت كثيرًا. تذكرت ضاحكة بعض الكلمات الأردية النابية التي علمها إياها. كانت فخورة بأنها الآن تتحدث الإيطالية والأردية بشكل لا بأس به. «لا تزال العربية تطاردني كعقاب. لا أستطيع أن أتخطى هذه اللغة اللعينة». أذكر أنها قالت ذلك.

تذكرت صراخ ماري حين طلبت منها يومًا أن ترد عليَّ بالعربية ولو بكلمةٍ واحدة. أستطاع هو أن يعلمها لغتيه؟ لِمَ؟

نقلت كارين نظراتها بين كأسها الفارغ منذ مدة وبيني. فهمت الإشارة وعدت به إلى البار. بينما يعد النادل الشراب استندت بكفي على المنضدة وأنا أحدق في بضع نقاط تجمعت على الخشب الداكن. رقية؟ لِمَ يا ماري؟ هل كنتِ لا تزالين متعلقة بحبي؟ تريدين ألا تتخلى ذكراي عنكِ؟ ألم يسألكِ عني أبدًا؟ مَن أكون؟ ما اسم أمي؟ لِمَ يا ماري؟ كيف تعودين بعد كل تلك السنوات وتغرزين السكين أكثر في قلبي؟ تلك السكين التي أمسكتِ بها فوق معصمكِ في ليلتنا الأخيرة معًا؟

عدت إلى الطاولة لأجد كارين تطالع شابًا ينظر نحونا بفضول. عرفت منذ الوهلة الأولى أنه فرنسي.

- هل يضايقك؟

- لا، لكنه صحفي أتى إلى حينا بالأمس. أظنه قد بدأ يتعرف إليَّ.

- هل تودين الصعود إلى الغرفة؟ سألتها وأنا أجلس.

- بعد قليل ربما.

صمتت لبرهة وبدا عليها التفكير. «هل تنوي أن تكتب عن ماري حقًّا؟ ماذا ستقول؟ هل تريد أن تكسب بعضًا من المال بالخوض في سيرتها كما يفعل العالم كله الآن؟ أنت تعلم أن فريدريك وأولجا سيقولان ذلك حتمًا. هل فكرت في رد فعلهما حين يجدانك أمامهما فجأة في لحظةٍ مشحونةٍ مثل الغد؟ رد فعل أخوات ماري؟ الحي كله؟»

يطلقون لفظة الحي كناية عن تلك المساحة الضيقة، الشارع الصغير، الذي تسكنه كل عائلة ماري. أخبرني أبوها يومًا بأن الجدود سكنوه جميعًا منذ الحرب العالمية الأولى، ولم يغادره أحدهم منذ يومها. كان هذا أول ما سحرني في تلك العائلة القريبة والمتماسكة. أو هكذا كنت أظن عند زيارتي الأولى. كنت برعونتي آخذ كل شيءٍ من الظاهر.

«أنتِ تعرفينني يا ماري. لست أنا الذي سأتربح من سيرتها. أنتِ من بين كل الناس تعرفين حبي لها كيف كان، وأظنه لا يزال. هذا الحب الذي جئت أقتفي أثره، هذا ما دفعني لأن آتي إلى هنا رغم كل العواقب التي أتوقعها. ولكني لن أهدأ حتى أصل إلى إجابة».

ابتسمت كارين وهي تلف بإصبعها الدقيقة حافة كأسها. فهمت أني أشير إلى تلك الليلة التي حاولت أن تقبلني فيها حين تركتنا ماري نذهب إلى السينما سويًا.

«حتى لو لم أصدقك، يكفي أنك ناديتني باسمها الآن دون أن تدري. سوف أكون بجانبك لا تقلق. ولكن توقع رد فعل عنيف. الحزن والغضب يفعلان الكثير بالبشر».

هززت رأسي ببطءٍ وأنا أنظر لها نظرتي الثاقبة التي طالما أخافت زوجتي. فكرت أن أدافع عن زلة لساني ولكني آثرت الصمت.

- يا إلهي! كم تغيرت!

- أكملي.

احتست رشفة من الجين وتنهدت.

- تأثرت كثيرًا حين دفست ماري رأسها في بطن والدها وهو يناولها كوب القهوة. كان إظهارًا عنيفًا للمشاعر لم نعتده منها. كانت تبتسم وعادت للحظة طفلة صغيرة. لوهلة أدركت أن ماري قد عادت ليس فقط لأول أيام إسلامها حين كانت تشبهنا، ولكن إلى تلك السنوات التي كانت فيها لا تزال ماري الصغيرة الطائشة التي تفعل ما يحلو لها.

ارتبك فريدريك ونظر لنا بعينيه المغرورقتين ثم لفّ ذراعه المترددة حول رأسها وكتفها وغمغم ببضع كلمات لم نسمعها. أنهت أولجا إعداد العشاء وجلسنا جميعًا حول الطاولة الكبيرة. ما إن وضعت ماري ذراعها على الطاولة حتى أصدرت ذلك الصرير الذي نعرفه كلنا. «يا إلهي يا أبي! لم تدفعك أمي بعد إلى أن تصلح تلك الطاولة حتى الآن!». قالت ماري. «ليس الذنب ذنبي»، أجاب فريدريك محرجًا. «إنها البراغي اللعينة لا أستطيع أن أجدها في أي مكان، اللوم على أمك التي اشترت هذه الطاولة من الغجر حين كانوا يمرون من هنا. أخبرتها يومها أننا لن نستطيع إصلاحها أبدًا». وصرخت أولجا من المطبخ دفاعًا عن قرارها: «لقد أخبروني أن عمرها مائة عام. وكنت قد ربحت بضع عشرات في الكازينو ودعوت ريبيكا إلى كاسين. فلتلَم جاك دانيلز على اختياراتي المجنونة».

- وهل كانوا يرتاحون للتحدث عن الشراب أمام ماري؟ لقد كانت تكرهه منذ أن كنا متزوجين.

- كما أخبرتك، كانت في ذلك اليوم مختلفة تمامًا. كلنا للحظة من الزمن، في هذه الساعات القليلة التي سبقت الكارثة، نسينا ماري التي أصبحت وعدنا دون أن ندرك إلى ماري التي كانت. كل شيءٍ كان يسير بسلاسة وراحة حتى إننا بالغنا في أجوائنا الاحتفالية وأخرجنا زجاجة النبيذ المعتق التي أتى بها أبي من بوردو وفتحناها بينما شربت ماري عصير البرتقال المفضل لها في هدوءٍ دون حتى أن تنظر لنا باستغراب.

دمعت عين كارين عند استعادتها لصورة هذه الذكرى. واضح أنها لا تزال حية بداخلها.

- لم نكن نعلم ما تنويه. اللعينة!

صُدمت حين سبَّتها. وكأني أفقت من حلم الذكرى التي كانت ترويها، والتي كنت أشاهدها معها لقطة بلقطة، وأرى نفسي جالسًا معهم على الطاولة، مستعيدًا عشرات الغداءات والعشاءات التي تناولتها على تلك

الطاولة الكبيرة بصريرها المزعج. كانت تلك من اللحظات القليلة التي كنت أشعر فيها بسلام حقيقي. حين كان فريدريك يضع موسيقى الجاز التي يحبها، ادعاءً منه أنه مطلع على الأذواق الرفيعة كما كانت تقول ماري، وحين كانت تطبخ أولجا الأكلات الشعبية والتي كانت بالنسبة لي استكشافًا لعالم جديد من الروائح والنكهات، وحين كانت ماري تحتضنني بتلك النظرات الدافئة المليئة بالحب والحنان، وحين كانوا ينظرون لي جميعًا بإعجاب شديد وأنا أحدثهم عن الجائزة التي حصلت عليها، متناسيًا في تلك اللحظات كيف حصلت عليها، متناسيًا مهمتي الخفية التي لا يعرف أحد عنها شيئًا. كنت أرى نفسي كاملًا في تلك اللحظات. أعيش الحياة الكاملة التي طالما حلمت بها. وأنا أجلس على أريكة فريدريك وأولجا أنظر للمطر الذي يهطل بكثافة وتتكسر قطراته على الزجاج، بينما أستمتع بمعدةٍ ممتلئةٍ ودفء السخانات المنزلية التي لم تتوقف عن العمل أبدًا. كنت أرى نفسي كما تمنيت. لست وحيدًا. كنت أرى نفسي هنا ولم تكن ماري تريد أن نأتي للعيش في مجتمعها أبدًا. أردت أن أترك كل شيءٍ صرت إليه وأصبحته في بلدي وأن آتي إلى هنا لأنسى مَن أكون وأستمتع بذلك الرقي وتلك النظافة وهذا الجمال الذي يحوطني من كل جانب. كنت أريد أن أبتعد عن التراب والفقر والعرق ولهيب الشمس والثرثرة الفارغة، لأغرق نفسي في المتاحف والمسارح ودور الموسيقى والأحاديث التي لا تنتهي حول التفاهات التي لم نملك رفاهية الحديث عنها ولو لنصف ساعة أنا وأهلي. تلك التفاهات التي تستحوذ على كل تفكير فريدريك وأولجا وتستغرق منهم مجهودًا وجدالًا يستمر أيامًا: صرير الطاولة وخدش السيارة التي يجب أن تُستبدل لأنها مر عليها ثلاث سنوات. تقليم الحديقة التي طالت حشائشها أو نضجت ثمارها وآن الأوان لقطفها. زيارة الطبيب لفحص دوري، حفل عيد الميلاد، الاستعداد لعرس سيسافرون لحضوره بعد شهور. تأطير لوحةٍ أو شراء فرشاة أسنان كان مادة لحديث جاد متكاسل قد يستمر لأيام.

أردت كل هذا. ولكن ماري لم تُرده لنا.

«أنت لم تتقبل مَن كنت عليها وأنا صغيرة لأني قادمة من هذا المجتمع، فما بالك لو أتينا لنعيش هنا. ستُحيل حياتنا جحيمًا. أنت ترى كل ما هو خلاب وجميل ولكنك لا تعرف شيئًا عمَّا يدور خلف هذا السطح البراق. هل تظنني أتيت إلى الشرق واحتضنت الإسلام من فراغ؟ هذا الذي يُبهرك هو الذي جعلني أهرب إليك فلا تُعيدني إليه. أرجوك».

هززت رأسي في حركةٍ عنيفة وأنا أحاول أن أطرد صوتها من أذني. أردت أن أكسر كأسي باندفاع مفاجئ للغضب من داخلي.

«هيا بنا. يبدو أن ذلك الصحفي قرر أن يحسم تردده ويأتي ليحدثنا».

***

داخل الغرفة رقدت كارين على السرير. كانت تنظر للسقف بعين تائهة تحاول مقاومة دوار الشراب الذي على ما يبدو قد زاد حين استلقت. جلست على مقعد بجانب النافذة التي تغطيها ستائر كثيفة ومددت رجليَّ المتعبتين على كرسي آخر. أزحت الستارة وراقبت سقوط الثلوج على الساحة الخالية.

تأوهت كارين وهي تنقلب على يسارها وتنظر نحوي. لم أنظر لها بعين الرغبة ولو للحظة. حاولت أن أسترجع آخر مرة نمت فيها مع فتاةٍ ولكني لم أستطع. تذكرت أني نسيت أن آتي بأدوية علاج الضعف. تساءلت إن كنت سأجد صيدليًا واسع الذمة يبيعني إياها بوصفة طبيبي العربية.

- في تلك الليلة طلبت مني ماري أن أبيت معها. أخبرتني أنها لا تريد أن تكون وحدها وأنها متوترة من ملاقاة كل العائلة والجيران من الحي في قداس عيد الميلاد في الغد. كنت أرى توترها كلما قادنا الحديث على العشاء عن الاستعدادات لليوم. كانت تصمت رغم محافظتها على

ابتسامتها، ولكن عيونها كانت تقول إن شيئًا ما يقلقها. «دعينا نسترجع تلك الأيام مرةً أخرى»، رجتني. في غرفتها القديمة جلسنا بينما غرقت روكايا في النوم على طرف السرير، تصدر صريرًا خافتًا وبطنها الصغير يصعد ويهبط بلطف. هذا السرير الذي أمضينا عليه أنا وماري سنوات صبانا دون أن نفترق. نتحدث عن الأولاد في المدرسة ونجرب أدوات التجميل لأول مرة، نستعرض الملابس الداخلية القبيحة التي كنا نشتريها خلسة من المركز التجاري.

وكأن السنوات لم تمر. وكأن ماري لم تُسلِم ولم تتغير ولم تغد تخرج إلى السهرات. وكأنها لم تتزوج مرتين وتُرزق بطفلةٍ وتصبح أمًا وأمَةً مسلمةً كما كانت تشرح لي. كل شيءٍ عاد كما كان. كانت ليلة خارج الزمن. فتحت حقيبتها ورمت كل ما بها في عشوائية رهيبة لم تتخلَ عنها، تمامًا كما كانت حين كنا نسافر إلى إستونيا في عطلات الصيف وكنت أصرخ فيها دائمًا أن تلملم حاجياتها المبعثرة في كل مكان. أخذت تريني ملابسها وتحدثني عن جنون الطليان بالأزياء والموضة، ورغم أن قوام حقيبتها كان يتكون معظمه من مستلزمات الطفلة والكثير من أطقم الملابس المتشابهة، العباءات والأحجبة والبراقع كلها من نفس الطراز، فقط ألوانها تختلف، إلا أن وسط هذه الأشياء كانت هناك مجموعة من الحلي الرائعة. لطالما كان لماري ذوق رائع في الحلي. هذه الإضافات الرقيقة التي كانت تضفيها علينا نحن الفتيات قبل أي مناسبة أو حفل في المدرسة كانت تجعلنا نضوي ونبرز وسط الباقيات، ولكن أيًا منًا لم تكن تضيء في بهاء كبهاء ماري. بالتيارا التي كانت تضعها على رأسها وحلق اللؤلؤ القرمزي والخاتم المربوط بسلسلة إلى إسورة تلف معصمها. الفص الدقيق في أنفها ورموشها الطويلة، والرسومات المجنونة على أظافرها الاصطناعية الطويلة. كل شيءٍ كان يشي بالجمال في ماري.

أخرجت عشرات القطع من الحلي ووضعتها كلها على السرير. بدأت بسرعة في وضعها على وجهي وأصابعي وحول رقبتي. «أريدكِ أن

تحصلي على كل هذا. لقد أتيت لكِ بكل ما جمعت طوال تلك السنوات، خذيهم كلهم». ضحكت وأنا أنظر لها بفضول. «هل أنتِ مريضة؟ منذ متى تعطين شيئًا دون مقابل؟

أنتِ لا تطيقين أن يأخذ أحد أيًا من أشيائك». «هذا لأنكِ كنت تسرقين كل ما أعطيكِ إياه. بل كل ما يخصني كنتِ تحاولين سرقته». أجابتني بوجهٍ جاد. تكهرب الجو فجأة حين سمعتها تقول ذلك. وسرت رعدة في أوصالي وبردت عروقي وأنا أنظر لوجهها الجامد والعابس الذي انطفأ فجأة وهي تقول جملتها هذه. كانت تقصدك دون شك. ولكن سرعان ما عادت لها الابتسامة وكأن تلك السحابة التي مرت على ذهنها قد انقشعت دون أن تبقى للحظة. «أيتها الغبية! أنا أقدر وأفهم كل شيءٍ وأفهم ما شعرتِ به. دعينا ننسى كل ذلك الماضي السخيف وسنوات النضج اللعينة التي سرقتنا. اليوم نحن بنات الحادية عشرة مرة أخرى». واصلنا حديثنا الطفولي وكأنه لم ينقطع، ولكني لم أكن مرتاحة وشعرت أن ذلك الوجه الجامد الذي ظهر فجأة كان هو الوجه الحقيقي الذي تخفيه ماري منذ أن وصلت. أصابتني الكآبة ولمت نفسي لأني قد انخدعت بهذا التغير المفاجئ الذي حدث لها. لقد صدقت لوهلة أنها ستترك زوجها الكريه أو حتى الإسلام وتعود لنا كما كانت. ولكن هذه الإشارة التي أشارتها. ذلك الوجه. ذكرني بكل ما أصبحت عليه حين تزوجته.

- هل حدث ذلك التغير العنيف حين تزوجت، فجأة؟

- لا بالطبع، حدث ذلك بالتدريج كما حكيت لك قبلا. لا أريد أن أؤلمك، ولكننا جميعًا لاحظنا أن هذا التغير المقيت بدأ حين وقع الطلاق بينكما. حين عادت إلينا من عندك كانت ماري غير التي نعرفها. شيء ما انطفأ في عينيها وبدا أنه سينطفئ للأبد.

غصة تعتصر قلبي.

- ولكن يومها لم تكن كذلك؟

- على الإطلاق. كانت كما قالت. ماري ابنة السادسة عشرة.

غاص قلبي بين ضلوعي. بدأت ملامح ذلك اليوم الكارثي تتشكل بداخلها يوم أن تركتني؟ يداي ملطختان بالدماء لا شك. أعلم ذلك. ولذلك كنت أنوي إنهاء حياتي، ولكني كنت أظنني أنهيها لأنها ملطخة بدماء آخرين، وليست ماري. ليست دماء زوجتي.

- بعد أن غلبنا النعاس استلقينا سويًا على السرير. كنا نضحك حتى آلمنا جسدانا حين خضنا في كل ذكرياتنا الطفولية الساذجة. وما إن بدأ يتسلل إليَّ النوم حتى كانت ماري ملتصقة بي كما كانت تفعل ونحن صغار. لفَّت يدها حول رأسي وقرَّبت وجهها من أذني وهي تضع رأسها على الوسادة. وتكلمت كثيرًا. كثيرًا. تكلمت ودموعها تنزلق فوق وجنتيها لتدغدغ أذني. تكلمت بينما كانت دموعي ترتد إلى الداخل وأنا مستلقية على ظهري. تكلمت حتى احتضنتها بكل قوتي وغرقنا بعدها في نوم عميق.

صمتت كارين مطولًا بعد أن أنهت كلامها. أما أنا فظللت أحدق في النافذة. بعد بعض الوقت سألتها.

- أين رقية الآن؟

ولكني لم أتلقَ من كارين جوابًا سوى الأنفاس المنتظمة من نومها العميق.

بعد قليل رحت أنا الآخر في النوم. حلمت بماري وهي تقبل رجل البار أمام لوحة عملاقة لروثكو تغرق في درجات الأحمر الداكن بينما نقف أنا وكارين نتفرج.

***

في الصباح استيقظت فلم أجد كارين. تركت لي رسالة على واتساب بأنها ستسبقني إلى العزاء لتصحب والديها ووالدي ماري. «أثق في أنك لا تزال تذكر الطريق إلى الكنيسة، إن لم يكن، فقط سر مع الصحفيين

المزعجين ها هنا في الفندق، البلدة كلها ستكون هناك».

كانت كارين محقة. حين نزلت وجدت ازدحامًا غير طبيعي في الساحة التي يطل عليها النزل. كل المقاهي والأماكن المخصصة للركنة وغير المخصصة كانت تعج بالناس والحافلات الصغيرة، التقنيون يرتبون المعدات وينقلونها إلى السيارات، بوجوههم المحمرة والنظارات الشمسية المعلقة على رؤوسهم الصلعاء باستفزاز، بينما كان المذيعون والمذيعات المتأنقون يعدلون ملابسهم وهم يمسكون الألواح الرقمية تحت آباطهم بينما يقلبون القهوة ويأكلون الكرواسون على عجل، الكل يتحدث ويصرخ ويضحك بصوتٍ عالٍ في غوغائية شديدة.

لا أتحمل فكرة تناول أي طعام الآن. ولكني لا إراديًا أتوجه إلى أبعد الدكاكين الصغيرة لأبتاع القهوة ورأسي يطن بصداع يخرج من بؤبؤ عيني. أكره النظارات الشمسية. أحمل واحدة في جيبي للاحتياط. بينما أنتظر قهوتي تعدها فتاة صغيرة لا يبدو أنها تعدت السادسة عشرة، عدت أنظر للصخب في الساحة.

كلهم هنا لوداع ماري. حتى الشمس خرجت لتحن علينا نحن المكلومين. ولكن ماذا عن جنازات الضحايا؟ كيف ستكون الشمس يومها؟ كم عددنا الآن، عشرة؟ عشرات؟ وماذا عن الذين يكرهون ماري حول هذا العالم البائس؟ هل تستحق زوجتي كل هذه الكراهية حقًا؟

أدخلت يدي في جيب معطفي الطويل وكورت قبضتي على قطع المغناطيس بكل قوة غيظي.

فتحت تطبيق الرحلات التشاركية وأدخلت اسم الكاتدرائية. أتاني السائق بعدها بدقائق. حين فتح الوجهة امتعض. تحدث بنبرةٍ عدائية.

- هذه خامس مرة أذهب إلى هناك. البلدة كلها تتوجه إلى جنازة هذه الإرهابية اللعينة. أنت صحفي طبعًا!

هززت رأسي دون أن أرد. فكرت أن هذا هو الوقت المناسب لأرتدي

نظارتي.

- لقد أجهزت هذه الملعونة على البلدة بأكملها. ربما الحسنة الوحيدة أننا لم نشهد من قبل هذا الاهتمام ولا العدد من السائحين والصحفيين. بعد أيام ستقام جنازة الضحايا ثم ينفض هذا السيرك وتعودون من حيث أتيتم، ويعود كل شيءٍ كما كان. لا يتبقى لنا سوى الدمار والدماء التي خلفتها.

رغم أني سمعت لفظ «إرهابية» يُطلق على ماري عشرات المرات الآن في الصحف وعلى الإنترنت، إلا أني لم أعتده بعد. أردت أن أستدير وأصرخ فيه «ولكننا لا نراها كذلك. أنت لا تعرف شيئًا عن تلك التي تتحدث عنها»، ولكنني تذكرت أشلاء الخمسين ضحية التي سقطت وراءها، فالتمست له العذر وهدأ الغضب بداخلي قليلًا لتحل محله مرارة جعلتني أتساءل عمَّا أتى بي إلى هنا.

كان قرار السلطات هو السماح لعائلة ماري بإقامة جنازة صغيرة دون صخب. جنازة رمزية بتابوت شبه فارغ، إذ لم يبقَ تقريبًا من أشلاء ماري ما تسلمه جهات التحقيق لوالديها. فكرت في إصرارهما على أن يقيما لها جنازة مسيحية. بلا تفكير كان القرار بأن تدفن على ديانة أهلها. وكأن اختيار ماري طوال السنوات العشر الأخيرة من عمرها لم يكن ليُحترم؛ لأنه كما يرونه أدى لكارثة. وكأنها يوم أن قتلت خمسين روحًا فقدت حق اختيار مَن تكون، وأعطت الحق لمَن بقوا بعدها يلملمون آثار الكارثة أن يعيدوا رسم هويتها من جديد، وكأنها مصالحة شكلية مع الماضي. يريدون للجميع أن يذكروا موتها بأنه كان موتًا مسيحيًا أصيلًا، وليس كما وقع بالفعل، ملطخًا بالدماء.

حاصرتني ذكرياتي في تلك الكاتدرائية ما إن لاحت أنقاضها في الأفق من على الطريق الحصوي الذي كانت تقطعه السيارة ببطء.

***

بدأ قلبي يدق في قلق وتوتر كبير حين نزلت من السيارة وهاتفي يرن

برسالة التطبيق تخبرني بانتهاء رحلتي والمبلغ المسحوب من بطاقتي. الآن وأنا أقترب من الجمع الواقف في الأفق البعيد بات كل شيءٍ واردًا. قد يرمونني بالحجارة. قد ينقض أحدهم عليّ ويقابلني بلكمة في وجهي وسباب رهيب. قد أواجه، وهذا خوفي الأكبر، دموع متألمة وكلمات لوم غاضبة.

كنت قد طلبت من السائق أن ينزلني على مسافة بعيدة حين رأيت الجمع بهذا الحجم. الجنازة الرمزية الصغيرة تحولت إلى كتيبة بشرية صاخبة. مئات الصحفيين يتواجدون بكاميراتهم وحافلاتهم الصغيرة في كل مكان، بينما قوات الشرطة منتشرة بكثافة وكأن الكاتدرائية لا تزال مسرح جريمة لأكبر كارثة تضرب البلدة النائمة في تاريخها.

ظللت أقترب حتى بدأت ملامح الجمع تظهر أمامي. قلبت في الوجوه من خلف نظارتي فعرفت بعضها وإن كنت لم أستطع تذكر الأسماء. خالة هنا، ابنة عم هناك. لا أثر لأبوي ماري أو كارين.

طبقة عدم الاكتراث التي أغلف بها نفسي تضعف شيئًا فشيئًا مع كل خطوة.

في شرودي اقتربت مني فتاة حسناء وأنا على باب الكاتدرائية، ناولتني ورقة صغيرة بألوان لامعة. بأحرف لغتهم كتب عنوان على الوجه: «قداس في ذكرى ماري فريدريك الطاهرة». أما على الظهر فكانت فقرة صغيرة مكتوبة بحروف مائلة: «لاقت ابنتنا العزيزة ماري حتفها في حادث أليم. وتسببت وفاتها في الكثير من الألم لنا تمامًا كما تسببت في ألم لا يمكن وصفه للعشرات من أهل بلدتنا الحبيبة. ولكن لا تنسوا أن ماري هي ابنتنا. كبرت وتربت بيننا جميعًا، وستبقى ذكرى ضحكتها الصافية وروحها المرحة حية معنا. وإذا كان الشيطان قد قبض على روحها البريئة فذلك لأنها كانت أطهر من أن تتحمل شرور هذا العالم، ولذلك نرجوكم أن تذكروا ابنتكم الصغيرة كما كانت، مسيحية محبة، ولا تتركوا كراهية السنوات الأخيرة لماري توصم

ذكراها في قلوبكم. صلواتكم معنا».

كورت الورقة في قبضتي بألم شديد. عدت لأفردها مرة أخرى. بالأسفل كان جدول صغير بمواعيد كل الخطوات التي ستتم أثناء الجنازة. كلمة من القس، تعقبها كلمة من الأب، ثم فقرة موسيقية يعزف خلالها بعض من الشباب أغنية ماري المفضلة، وأخيرًا الصلاة على روحها ثم مراسم الدفن. حددت كل هذه الفقرات في إطار الساعة.

أخذت نفسًا عميقًا مستنشقًا رائحة الثلج الذائب فوق الحقول وأنا أنظر نحو الصحفيين وعربات الشرطة. خشخشة أجهزة اللاسلكي تأتي من بعيد تعقبها أصوات مقبضة. مستحيل أن ينتهي هذا السيرك في خلال ساعة.

***

دخلت إلى حرم الكنيسة المهدمة. نصف المبنى أو أكثر محطم بالكامل. ليس من أثر الانفجار فحسب ولكن لأن العمل بدأ يجري على قدم وساق بعد الحادث بأيام لإعادة بناء الكنيسة لتعود كما كانت، ولمحو آثار الجريمة بأسرع وقت ممكن. كانت البلدة، ممثلة لنهج الحضارة الغربية بأكملها، تحاول محو آثار الاعتداء، ومواصلة سير الحياة بانتظامها وخمولها المعهودين. يريدون أن يؤكدوا لأنفسهم ثم للعالم أن لا شيء قد تغير، وأن صلابتنا أكثر ثباتًا من أن يهزها حادث كهذا. إنه مجرد خدش بسيط في وجه عملاق ضخم لا يموت. أيام ويتحول كل هذا إلى نصب تذكاري، مقطوعات موسيقية مهداة، وجداريات عملاقة تخلد الكارثة.

عبرت من الباب الخلفي فقابلني الهواء المكتوم برائحة خشب المقاعد العتيقة. اصطفت المقاعد الخشبية في صفوف تبدأ من حيث أقف في نهاية القاعة إلى أولها، وأمامها مسرح مربع صغير، يرتفع بضع سنتيمترات عن الأرض، مغطى بسجادة حمراء ذات إطار ذهبي، وفوقها منضدة طويلة عليها ميكروفون. خلف كل هذا كان المذبح وفوقه لوحة

ضخمة للمسيح المصلوب ومريم العذراء تبكي عند قدميه، تعلوها نافذة ضخمة من ألواح زجاجية ملونة تحطم معظمها، بدت قبيحة في دمارها ولكن خيوط الشمس الباهتة التي تخترقها أضفت بعضًا من الجمال الحزين عليها. تصطف تحت اللوحة شموع تضيئها وتضيف إليها بعدًا دراميًا مخيفًا، كذلك الحوائط في الأركان مضاءة بمئات الشموع المثبتة بأعلاها، وعلى الجوانب كانت شرائط «ممنوع الاقتراب» الصفراء تؤطر الكثير من البقاع. الأعمدة الرخامية تمتد في صفين متقابلين على جانبي القاعة، تربطهم وصلات نصف دائرية مشكلة سلسلة من الأقواس، بعضها كان مشروخًا وبعضها الآخر كانت عليه بقع دماء جافة، أخبرتني كارين فيما بعد أنهم قرروا الإبقاء عليها محفوظة دون تغيير كي لا تنسى الأجيال القادمة ما حدث.

سرت بمحاذاة الحائط الضخم في آخر القاعة، والذي اصطفت أمامه مئات باقات الورد والشموع المضاءة في أكواب شفافة وملونة. وسط الباقات كانت صور الضحايا على غير ترتيب وبأحجام متفاوتة. أسير وأنا أنظر في الوجوه المبتسمة التي تطالعني. نساء وأطفال صغار وآباء وأجداد. فلاحون وقساوسة ورجل مطافئ. شعرت بدوار مفاجئ وأنا أردد اسم ماري في خفوت مع كل وجه أمر به. ماري ماري ماري.. ماذا فعلتِ يا ماري؟ هذه بلا شك اللحظة الحقيقية التي أدرك فيها فداحة المصيبة التي اقترفتها زوجتي الحبيبة.

«هل أنت بخير؟»

التفتُّ لأجد كارين في ظهري، مرتدية فستانًا أسود بصدر مغطى بالدانتيل وأكمام طويلة. نظرت لها بعينين يبدو أنهما كانتا مغرورقتين بالدموع، إذ أمسكت بذراعي وقبضت عليها بقوة.

«سأغادر»، قلت.

«لا. لقد قطعت كل هذه المسافة لأجلها». قالت بحسم.

حدثت جلبة مفاجئة. التفتت كارين ثم هرولت لتسند أولجا التي تدخل

الآن من الباب وهي تسير بصعوبة. بسرعة جلست على آخر صف من المقاعد مبتعدًا بمسافةٍ آمنةٍ عن الرعب الماثل أمامي. عائلتها بالكامل يدخلون الواحد تلو الآخر من الباب الخلفي، ويتوجهون نحو المذبح في الأمام.

حتى الآن لم يلاحظني أحد. زيادة وزني ولحيتي الكثيفة ونظارتي كفيلة بإخفائي عنهم.

صعد القسيس وبدأ في التحدث بنبرة خافتة دون أن أسمع شيئًا مما يقول. روائح العطور وأصوات البكاء المكتوم اختلطت بالوجوه الجامدة التي تشي بمشاعر متضاربة، غير عابئةٍ بالفهم، غير مستوعبة. حاولت الشرطة منع الصحفيين من الدخول، رغم ذلك سمعت تكتكات الكاميرات تصدر من النوافذ وفجوات الحوائط التي انحشروا وسطها. كان عدد الحاضرين صغيرًا جدًا، ربما لا يزيد على العشرين. بدت الكنيسة أكثر حزنًا في خلوها من المعزين.

حاولت قدر الإمكان، ولكني رغمًا عني كنت أرى ماري تسير نحوي عابرة الرواق الطويل للقاعة. أراها في فستانها الطويل وحجابها ووجهها المضيء. فستانها الأبيض الذي خاطته لها أمها لزفافنا. كانت هذه الكنيسة ستشهد زواجنا لو كنت قد وافقت على أن نتزوج هنا، ولكني رفضت بكل قوتي أن يكون من حولنا أهلها وأقاربها وأصدقاؤها فقط.

«لن آتي بأبوي وإخوتي من آخر العالم ليشهدوا حفل زفاف. يكفيهم ما يشعرون به من غربة تجاه زواجي بأجنبية». قلت بكل صلف. «ولكني أيضًا سأشعر بالغربة إذا ما كان الزفاف وسطكم. لن أستطيع إلا أن آتي وأمي وأبي، إخوتي لن يدفعوا هذا المبلغ كي يأتوا إلى هنا. ما المشكلة في أن نتزوج هناك، ونبقى بضعة أسابيع، وبعدها سأعيش معك أينما تكون. فقط امنحني هذه الطمأنينة»، ظلت ترجوني بدورها، ولكني رفضت. بكل العند والكراهية نحو عشيرتها رفضت. لن أسمح لأحد

هؤلاء الذين واقعوها أن يشهد غبائي وسذاجتي. لا يهمني كم مرة تخبرني أن لا أحد هنا يفكر بهذا الشكل، لن أصبح أضحوكة واحد منهم حتى بينه وبين نفسه. حتى لو كانت خاطرة عابرة، فكرة، ابتسامة أو غمزة صديق لصديقه. لن أسمح بذلك أبدًا حتى لو كان آخر يوم في عمري.

ثم إن ما حدث في زفاف أختها في نفس هذه الكنيسة كان كفيلًا بأن يقضي على هذه الفكرة للأبد.

***

كنت متوترًا. لم أكن أنا وماري نتحدث طوال البارحة واليوم. اليوم لم أرَها في الأصل لأنها كانت مع أختها عند مصفف الشعر، ولن نلتقي سوى على مائدة العشاء بقاعة الاحتفالات الملحقة بالكنيسة، حيث سيلقي كل من القريبين كلمة للعريس والعروس. كانت فقط كارين هي المهتمة بأن تقتطع وقتًا في هذا اليوم المزدحم الذي انشغل فيه الكل عني في تحضيرات الزفاف، مرت عليّ في الفندق وسألتني إن كنت أحتاج شيئًا. كان ينقصني حذاء، وأخبرتها بأني سأنزل لشرائه ولا داعي لأن تشغل نفسها. اصطحبتني إلى شارع التسوق الرئيسي بالمدينة الصغيرة.

داخل المحل كنت سعيدًا بمراقبة الشاب ذي الشعر المنسدل وهو يخلع عني الحذاء تلو الحذاء ويُلبسني الحذاء تلو الحذاء جاثيًا على ركبةٍ واحدة. كنت قد اخترت بيني وبين نفسي الحذاء الأكثر ملاءمة لملابسي منذ بعض الوقت، ولكني بدافع لا أفهمه قررت أن أتركه يأتيني بالمزيد فقط لأتفرج عليه ينحني أمامي، ظنًا منه أنه يخدم زبونًا تمامًا كما يفعل بإخلاص مع المئات كل يوم، بينما أنا أتلذذ بشعور أن رجل كامل الأوربية بشعر أشقر وبشرة ناصعة ينحني أمام سمرتي الرمادية.

توجهنا للدفع أنا وكارين، انتحت هي جانبًا تجيب على الهاتف الذي كان يرن من أمها كل حين وآخر لتسألها عن بعض ترتيبات الزفاف

المرتقب. رأيت شابين يقفان وراء المنضدة فظننت أن كلًا منهما يخدم صفًا على حدة،، فتقدمت بجوار الصف الواقف أمام أحدهما ظنًا مني أنني سأكون بداية طابور جديد. ما إن وقفت أمامه حتى نظر نحوي بعبوس أليم.

«عُد إلى آخر الطابور، ألا ترى كل هؤلاء واقفين في انتظار دورهم؟»

نظرت حولي بارتباك، وبلغتي المكسرة - كنت في ذلك الوقت لا أزال أخطو خطواتي الأولى نحو تعلّم لغتها - أخبرته بأنني ظننت أن كليهما يستقبلان الزبائن. قلت كلمتي بينما أحمل الحذاء وأستعد للعودة في سلام إلى آخر الصف الذي لم ينظر نحوي أيٌّ من الواقفين به، بينما كنت أغادر رد بعصبية وهو يلوح بيده: «إذن فأنت أذكى من كل هؤلاء الواقفين؟ لو كان هناك صفان ما كان أيٌّ من هؤلاء في الخلف قد انتظر، أليس لديك عينان تريان، هذا هو الكاشير، هذا هو الصف، هذا هو المكان الذي تقف فيه، أم أن ذلك أمر معقد للغاية بالنسبة لشخص مثلك؟»

شعرت بسخونة بأطراف أذني بينما أخذ قلبي ينبض، نظرت له وأنا أبحث عن الكلمات المناسبة وأفكر فيما إن كان عليَّ أن ألكمه في أنفه، أسبه. هل أستحق هذه المذلة عقابًا على فكرتي الشريرة نحو زميله؟ ألا ننجو ببعض العنصرية المضادة حتى ولو لدقائق؟ ولكن ضعفي، الذي تأصل داخل جيناتي عبر سنوات وسنوات من الخنوع، لم يسعفني بالرد المناسب، فقط نظرت له بتحدٍّ والأفكار تتدافع في رأسي، قطعت كارين صمتنا وهي تعيد الهاتف إلى جيبها. «هل كل شيءٍ على ما يرام؟»

خرجت وأنا أغلي بينما تجتاحني رغبة عنيفة في البكاء. شعرت بالإهانة كما لم أشعر بها من قبل. وكرهت نفسي وسكوتي وعدم قدرتي على الرد. علمت من لحظتها أن هذا موقف لن أنساه ما حييت.

حكيت لكارين على ما حدث بينما نحن نسير على الرصيف، هزت رأسها

متفهمة وأخبرتني بأنها تعرف هذا الحقير من أيام المدرسة. «إنه وغد عنصري، دعك منه ولا تُعره اهتمامًا. إن أردت أرسلنا شكوى لإدارة المحل وأخبرناهم بما حدث». قالت وهي تحوط كتفي بذراعها.

هززت رأسي وأكملنا سيرنا صامتين. فكرت في ماري. أفتقدها. مر اليوم دون أن نتحدث بسبب تعليق غبي قلته حين أتت للفندق بالمساء السابق. تركتني ودخلت تغير ملابسها بينما كنت أجلس بالخارج متوترًا للغاية. حين عادت ورأيتها في ثوب مسائي شفاف يكشف جسمها بالكامل احتضنتها وقبلتها، وما إن بدأت الأمور تزداد سخونة بيننا همست في أذنها بسؤال واظبت على طرحه عليها طوال الأيام الماضية بإلحاح: مَن سيحضر زفاف الغد؟

انقلب وجهها في لحظةٍ ودفعتني بعيدًا عنها. «يا إلهي! أنت لن تكف أبدًا أليس كذلك؟»، حاولت في البداية ألا أفسد اللحظة. شعرت بالرعب من أني أفسد شيئًا جميلًا ولكني كان يجب أن أرتاح وهي لا تريحني. سيطرت على توتري وقلت شيئًا غبيًا آخر هذه المرة بنبرةٍ كاذبةٍ مغلفةٍ بالغزل والمزاح: «لا شك أن الشباب كان يجن جنونهم حين يرونكِ مرتدية زيًا مثل هذا، متى كانت آخر مرةٍ ارتديته؟»

عندها كانت قد اكتفت، دفعتني بعيدًا وانفجرت في البكاء. سبَّتني وصرخت بهستيرية وهي تغير ملابسها مرة أخرى. رددت بسباب أقذع وصراخ أعلى. أنهت ارتداء ملابسها وحملت حقيبتها وغادرت.

بعد ليلتنا معًا في إيطاليا بات نومنا مع بعضنا البعض أمرًا اعتياديًا. في البداية شعرنا بندم شديد، خاصة ماري، وعزمنا على ألا نعود إلى هذا مرة أخرى. ظل الاضطراب يزورنا المرة تلو الأخرى كلما تقابلنا في بلدي أو بلدها، ولكننا ضمنًا عرفنا أن الأمر قد حدث ولا فائدة من مقاومة انفجار الرغبة فيما بيننا، لقد انفتح الباب ولا سبيل لإغلاقه مرة أخرى.

وقع بيننا عراك عنيف بعد تلك الليلة حتى إننا قضينا بقية السفرية

بالكاد نتكلم. كان لعراكي معها أسباب عدة. أولها أنها بهذه الخطوة هدمت كل شيء، كل الثوابت، التي كانت علاقتنا قد انبنت عليها. وثانيها كان سببًا لم أدرك خطورته إلا حين كتبت لها الخطاب المشئوم بعد زواجنا بسنوات: شعوري بالإحباط من أن أدائي لم يكن كما توقعت. لم يضاهِ تمتعي بالأمر أو حتى يقترب من الصورة المبالغ فيها التي كونتها من الأفلام الإباحية وخيالي الأوسع ورغبتي المتراكمة كحفر من النار تحرق جسدي بالداخل طوال تلك السنوات منذ أن أتممت البلوغ. طمأنتني ماري أن هذا طبيعي، وأن الأمر سيتحسن مع الوقت. طمأنني كلامها ولكن أزعجني أنه يأتي منها هي. أزعجني أكثر أن الأمور لم تتحسن مع تزايد الهواجس في رأسي. العام تلو العام. المرة تلو المرة.

أما أساس العراك الظاهري فقد كان أني فجأة لم أعرف أين أنا. أين نقف كلانا. مَن أنا ومَن هي. فجأة كان كل واحدٍ منّا ينظر في مرآة الآخر دون أن يرى انعكاسًا لصورته الحقيقية. إذا كنت أنا الشاب الشبق المحروم الذي تغير كي يصبح على قدر المسئولية ويساعد الفتاة الملتزمة حديثة الإسلام على اتباع مبادئها الجديدة، وإذا كانت هي الفتاة التي تخلت بإرادتها عن كل فرص المجون التي أتاحتها لها حياتها من قبل كي تبدأ حياة جديدة من الطهارة، تتخلى فيها عن كل ما شعرت بأنه أهانها وصغّر منها ومن قيمتها كإنسانة، فكيف إذن تقوم هي بأخذ الخطوة الأولى نحو نومنا سويًا؟

في روما، فور أن انتهينا، قامت وركضت نحو الحمام وأخذت تتقيأ وتبكي بحرقة. قمت وراءها ونزلت على الأرض واحتضنتها بشدة. «هل كنت سيئًا إلى هذا الحد؟»، قلت مازحًا. لم تبتسم ولكنها واصلت البكاء وكل دمعةٍ منها تحرق قلبي بينما ترتمي برأسها في صدري. كنت متفهمًا. حقيقة كنت متفهمًا. لقد ضعفت. حاولت وقاومت ولكنها ضعفت. أخبرتها بذلك. همسته في أذنها. أخبرتها بأني أعرف أنها ضعيفة مثلنا جميعًا. أخبرتها ألا تخاف. وأني لن أتخلى عنها. ولن أحكم

عليها. ولن أغير رأيي فيها. كما ضعفت هي ضعفت أنا. أخبرتها بأنني لن أتخلى عنها لأني أحبها. وأن الله سيسامحها لأنه يعرف أنها لا تزال ضعيفة ولا يزال إسلامها غضًا، وأننا نحاول ونحاول ولا بد أن الأمر ليس سهلًا، ولكن لا يعني هذا أن نتخلى عن المحاولة أبدًا. أخبرتها بكل ذلك كي أهدئ من روعها وأطمئنها.. ولكني لم أكن أصدق أيًّا منه.

نامت ماري في حضني بينما نحن لا نزال على أرضية الحمام. أما أنا فبقيت ساهرًا طوال الليل أفكر دون أن أتحرك.

لماذا أريد أن أكمل معها؟ لماذا بعد كل هذا الذي أراه وحكته لي عن ماضيها لا أغادر؟ لأنني لديّ عقدة الشهيد المضحي الذي يريد أن يدعم ويحب ويصبح جزءًا من مصائر المكسورات والمحطمات. لأني أريد أن أجبر كسورها وأعالج جروحها فتصبح ممتنة لي بقية العمر، تمامًا كما كانت تفعل هي باحتضانها للقطط والكلاب التي أسيئت معاملتها وتظل تتحمل خوفها وذعرها وإيذاءها لها. هل رأيت فيها الجوانب التي أحببتها وصدقتها أم أني فقط كنت أريد أن أتمتع بامتنانها، وتذكيرها بفوقيتي وقدرتي الإلهية على التسامح والاحتضان؟ لا أدري بالضبط في تلك اللحظة بماذا كنت أفكر. ولكني كنت قد عزمت على أمر بعينه: وإن لم أكن أفضل مَن نامت معه ماري، فإنني سأكون أفضل مَن عرفت.

أنا مؤمن تمامًا بأن أي علاقة بها أكثر بكثير من مجرد النوم. وأنا أحبها. عرفت لحظتها أني أحبها، ولأني أحبها فإني سأنتصر على ذلك الشرقي المتشكك بداخلي، وسأصبح أكثر اكتمالًا لأني أريد الحفاظ عليها هي. أريد أن أكون أكثر رجولة بقدر ما أريد أن أكون أكثر ذكورية. لا أريد أن أتخلى عنها كما فعل المخنثون هنا. حتى لو كانت ماري بضاعة معطوبة، وحتى لو كانت كائنًا مشوهًا، فإني سأتحمل بكل عظمة وإباء وشهامة ذلك الكسر حتى أجبره. لو كان مَن قبلي قد تمتعوا بجسدها ولم يتحملوا أيًّا من جروحها ووساوسها ولا لسانها اللاذع وألاعيبها الذهنية المستترة وتشوهات نفسها، فإني باحتوائي لها

واستمراري معها سأكون أفضل منهم جميعًا. لا لست الساذج الذي يأخذ البقايا من على المائدة شاكرًا، ولا أنا الغبي الذي يكره نفسه ويريد أن يعذبها باختيار شخص محطم ومشوه ليتحمل خطاياه التي لم يكن لي فيها ذنب. ولكني بكل بساطة إنسان. شهيد. يسع حضني الكون كله. بالطبع أخطأت حين كتبت التقارير في المثقفين الحزانى، وحين قبلت جائزة دون منافسة. ولكني مثل ماري نتاج مجتمع مسمم، وهذه فرصتنا للخلاص.

كل ذلك قلته وصدقته في سواد تلك الليلة التي لن تُنسى بينما أراقب ماري النائمة بهدوء على صدري فوق أرضية الحمام الباردة.

ولكن حين استيقظت كان كل شيء قد عاد إلى ما هو عليه. وظهر وجهي الحقيقي رويدًا رويدًا فيما بعد. كنت أنا الساذج وكنت أنا مَن يأخذ بقايا الآخرين وكنت أنا مَن يتحمل الخراء لأنه غبي وذو تفكير قاصر ويعشق المعاناة. كنت أنا مَن أدفع الثمن لأن على أحدهم دفع الثمن.

تأرجحي بين هذين النقيضين هو ما أحال حياتنا جحيمًا طوال السنوات التالية. لم أرد التخلي عنها، ولكني أيضًا لم أرد أن أدفع الثمن، وأدركت مع الوقت أن حبي لها سيكون نقطة الضعف التي تتملكني، لذلك ظللت أقاوم حبي لماري. ظللت أقاومه طوال زواجنا حتى انهار. مقاومتي لذلك الحب لم تكن يومًا ظاهرة، لم أصرح بها، ولكنها ظلت مستترة في أفعالي وكلماتي الإيحائية وفشلي في السرير. لم يكن فشلًا تامًا، ولكنه كان أداءً مخزيًا. أداءً أخبرني الطبيب حين زرته أنه نتيجة طبيعية لفشلي في الاختيار. «هذه حالة متكررة أراها كل يوم لدى المتزوجين من أجنبيات. لا تفكر في الأمر كثيرًا»، قالها ببساطة وبرود عيادته ذات الإضاءة الخفيفة وروائح التعقيم. «العطب في الجنس أمر طبيعي، إنه جسدك الذي به خلل ما وليست نفسك، ربط هذه العلة بذكورتك أمر غير منطقي، لا أحد ينظر لك باحتقار لأن يدك مكسورة أو يحكم عليك لأنك مصاب بالضغط أليس كذلك؟ إنها نفس المسألة.

فقط حاول أن تكون سعيدًا»، قال بلا اكتراث. «فقط حاول أن تكون سعيدًا». وهل تظن أني لم أفعل؟ «تسربك الوريدي ليس له علاج سوى إصلاح العطب النفسي وبضعة أقراص ومقويات والتوكل على الله قبل كل شيء»، قال وتركني وحدي أحاول الإجابة عن تلك الأسئلة. آلاف الأسئلة. في كل مرة كنت أستعد للاقتراب منها.

ولأني لم أرد أن أدفع الثمن وحدي قررت دون أن أشعر أن أطعن ماري كل الطعنات الممكنة في كل وقت ومكان ومناسبة.

وأتى أول الطفح فوق السطح بعد ساعات من خروجي مهانًا من محل الأحذية.

***

جلسنا جميعًا حول طاولة العشاء الضخمة، المدعوون يزيدون على السبعين شخصًا من مختلف أهل الحي والمدينة. الأهالي وأصدقاء الطفولة والشباب وزملاء أختها في العمل، وعائلة زوجها الذي لم أحبه ولم يحبني أبدًا. كلنا جلسنا هناك. وقبلها بقليل، حين كانت العروس ترقص مع عريسها والباقون يرقصون حولهم، كانت ماري تجلس بعيدة مع صديقاتها، واقترب أحدهم منها وأخذ يكلمها بانبهار بينما هي ترد بخجل وتنظر نحوي كل فترة وكأنها تخبرني بأنها مرعوبة من استجوابي لها عن ذلك الذي كان يحدثها.

أما أنا فلم أكترث كثيرًا. جلست بجانب والدها الذي كان السكر قد تمكن منه بالفعل.

«ماذا تفعل هنا يا ولد؟ تجلس وحدك تاركًا حبيبتك تذهب هنا وهناك؟»، كان يلمح إلى أننا متعاركين ولكنه كأي أب أوربي نموذجي لن يتدخل فيما لا يعنيه.

«أتعلم! أنت ولد جيد. أنت تعجبني. نظيف ومنمق ومثقف. لديك طموح. ولكنك متزمت للغاية، تحتاج إلى أن تتحرر قليلًا من هذا

الاحتقان المزمن. إن فعلت ستصبح في مكان آخر»، قال بينما يدفع بيده كوبًا طويلًا من الكولا.

«تناول بعضًا من الكولا وستصبح بخير. صدقني».

مع أول رشفةٍ تذكرت طعم عصير الموز الفاسد الذي كنت أشربه على القهوة. هناك من حلاوة الكولا الكثير ولكن بها مرارة مقرفة. نظرت له وأنا أعيد الكوب إلى الطاولة. نظرة استفهام وغضب مكتوم. ردها بغمزة وهو ينظر لي بابتسامته الساخرة التي طالما أثارت حنقي. «لا داعي لأن نقول لماري».

سواء كنت أريد أن أجرب شيئًا كانت ماري تعرفه جيدًا ولا أريد أن أكون أضعف من أن أختبره أنا الآخر، أو أني أردت عقابها بفعل شيءٍ ستكرهه، أو كنت أريد الحصول على بعض الموافقة الأبوية البيضاء من حماي، فإني شربت كوب الكولا كله، وصبَّ لي واحدًا آخر. «إنه مجاني، على حساب ابنتي وعريسها اللعين». ظل يردد ضاحكًا. في منتصف الكوب الثاني سرت حرارة فجائية بجسدي، وخبرت درجة من الاسترخاء لم أعرفها من قبل. بدأ فمي يرسم ابتسامة لا إرادية

أظنها كانت بذات سخف ابتسامة فريدريك. وجهي يضج بالسخونة ولا أتكلم، ولكني مستمتع بالدوار الجميل، وكأن يدًا حديدية قد بدأت ترخي قبضتها من حول أحشائي. أدركت وجود هذه القبضة لأول مرة وشعرت بحزن دفين لأني لم أعرف بوجودها من قبل. تلك القبضة المتيبسة التي كانت وستظل السبب في كل المعاناة التي أمر بها. كيف لم يخبرني أحد من قبل بأن هناك دواءً يسكنها؟ كيف لم أختبر هذا الشعور من قبل؟

فجأة سكنت كل الأفكار. وعاد تبريري وتعاطفي مع ماري لأوجه، ليس هذا فحسب، ولكن بسرعة شعرت بتآلف مع ما يحيطني. الزفاف الأجنبي واللغة الأجنبية والأصوات الأجنبية والعطور الأجنبية وكل ما لا يمت لي بصلة بات مفهومًا ومعقولًا. بل أكاد أجزم أني قد شعرت

بالقبول منهم نحوي، وبدأت أتخيل أن تلك الابتسامات الموزعة هنا وهناك موجهة نحوي. لم أعد غريبًا. أنا موجود بكل القيمة التي أحملها بين نفسي. قيمة لا أراها كبيرة لأني مجرد مجموع الفشل الذي كنته طوال حياتي. ولكني موجود بكل ثقلي وبحثي ومحاولتي ولا أكترث لأي أحد. لماذا حقر البائع مني وكلمني بهذه الطريقة أمام الناس؟ ألأني أسمر أم لأني بالفعل غبي كما كان يخبرني أبي وهو يشرح لي الرياضيات؟ أردت أن أنتقم منه أشد الانتقام.. ومن ضعفي.. ومن ماري.. ولكني لم أكن أعرف كيف.

ولكن الغليان كان قد استعر بالفعل ولا سبيل إلى رده، غليان ممزوج بعدم اكتراث نزل على عيني، تمامًا كامتزاج قطع الثلج بالكولا الملوثة بذلك الشيء الجميل الذي دسّه حماي.

***

على طاولة العشاء طلبوا مني أن أقول كلمة. فريدريك هو الذي طلب بالتحديد، وكانوا جميعًا مصدومين من طلبه. تجلس ماري بجواري وهي تتجاهلني لا تزال، ورغم أني لم أتحدث معها حتى الآن إلا أن خبرتها الطويلة لا بد أنها لاحظت ارتعاشة يدي وعدم اتزان جلستي. ربما حتى تميز الرائحة القوية القادمة من ناحيتي. «ماري كانت سكيرة حقيقية»، قالت لي كارين في إحدى المرات.

نظروا لأبيها بحنق صامت ولكنه واصل: «نريد أن نستمع إلى لغتك المكسرة وأفكارك التي تحتفظ بها لنفسك طوال الوقت. آن الأوان لأن تتكلم. فأنت عمًا قريب ستصبح واحدًا منّا، وإذا كانت عزيزتنا ماري قد اختارتك، الله وحده يعلم لِمَ، فلا بد وأنك تستحق أن تكون فردًا من عشيرتنا يا ولد، هيا قَل شيئًا لنسيبك المستقبلي». يحب دائمًا أن يلقبني «بالولد»، لفظ به من الود بقدر ما به من التصغير.

أقف بصعوبة. أتذكر يوم أن مرّرت خاتم الخطوبة بإصبع ماري منذ بضعة أشهر، حين طالعت استدارة أناملها وأظافرها المقصوصة التي

تشع بياضًا كان يجعلني فيما مضى أشهق لجمالها. أرفع كوب الكولا وأتطلع في الوجوه التي لا أميز معظمها فكلهم يشبهون بعضهم البعض. أختها تبدو رائعة الجمال في فستانها. أتحدث بخليط من الإنجليزية ولغتهم.

«إنه لشرف كبير لي أن أكون وسطكم اليوم. دائمًا ما كنت أخاف ألا أحقق رغبة أهلي في الحصول على عائلة كبيرة تحتضنني وتدعم فني، ولكن اليوم وأنا أحضر أول مناسبة عائلية معكم في زيارتي الثالثة إلى هنا أعترف بأني لم أظن يومًا أن تكونوا بهذا الدفء والترحيب. إن رعايتكم لي في كل مرة آتي إلى هنا تخجلني. رغم الفروق الكثيرة فيما بيننا، أولها اهتمامي التاريخي بالنظافة الشخصية التي لا تكترثون لها كثيرًا، ومظهركم المبهر من الخارج الذي يخفي انحدارًا أخلاقيًا صادمًا، فإني رغم ذلك لا أزال أجد نفسي واحدًا منكم. ربما لم يحالفني الحظ بعد أن أواقع ابنتكم الجميلة بعدد المرات التي قد يكون واقعها فيها بعض من الحاضرين هنا، ولكني أتطلع بشغف إلى المستقبل. حقًّا أتطلع إليه. لا تفهموني خطأ. أنا لست من الهمج القادمين من الصحراء راكبي الجمال الذين يستحمون في الرمال، أعلم أن كثيرًا منكم يظنونني هكذا، ولكني سعيد بأنكم ترونني الآن أمامكم مهندمًا ومستأنسًا في بدلتي التي تشبهكم، ورائحتي التي تشبهكم، ولغتي المحطمة التي إلى حد ما تشبهكم أيضًا. ربما جسدي ليس كما أنتم. ربما لم أمتعه وأتفرغ لرغباته كما تفعلون. ولكني أعدكم بأنني لن تكون لي في الحياة غاية أقدس ولا أهم من فتح كل الأبواب التي تركتها مغلقة طوال سنوات حياتي البائسة. هذا النخب لكل مَن شاركوني جسد ماري قبل أن أعرفها، للأسف لا أعرف مَن أنتم على وجه التحديد لأنها ترفض دائمًا أن تخبرني، ولكني أثق في أن بعضًا منكم يجلسون معنا الآن، وأستأذنكم في أن تصبح لي أنا وحدي. ذلك الهمجي القادم من كهوف الشرق المظلمة. اليوم هي تشبهكم بقدر ما أشبهكم أنا. في حجابها الذي يضيء وجهها وجسدها المخفي عنكم. ولكنكم لن تخسروا شيئًا بعدم رؤيته، ففي النهاية رآه بعضكم كاملًا وخبر كل تفصيلة منه، أما

أنا فلا يزال أمامي الكثير لأستكشفه، وكل ما أدعو الله به الآن هو أن يمنحني القدرة والصبر كما سيمنح عريسينا الجميلين حياةً مليئة بالسعادة والرضا، وأن يمنح كل الحضور الرائع بهجة الجنس المبهرة، ولكن مع أخريات غير زوجتي الجميلة».

قبل أن أعود إلى الكرسي كنت أسقط إلى الأرض فاقدًا أي قدرة على التحكم بأطرافي. وأنا أسقط مستمعًا إلى صمت ذهولهم جميعًا حاولت التعلق بطرف مقعد ماري الخالي ولكني سقطت وطرحته معي أرضًا.

***

أفقت من الذكرى على يد تمتد أمام عيني ببطاقة عمل مطبوعة بخط منمق.

- إن لم أكن مخطئًا فأنت الزوج الأول لخديجة، أليس كذلك؟

نظرت له وأنا لا أعرف أين أنا.

- إن لم تكن تمانع هل يمكن أن نتحدث قليلًا؟ لقد حرصت على ألا أخبر أحدًا بهويتك لأمنحك بعضًا من الخصوصية. أتمنى أن تقدر ذلك.

نظرت له في شرود حتى عرفته من لهجته الفرنسية الثقيلة. كان الصحفي الفضولي الذي أخذ يطالعني أنا وكارين ليلة أمس في حانة الفندق. مَن هي خديجة؟

هممت بأن أسأله وأمنحه فرصة للاستفاضة. كنت لا أزال أنتفض بداخلي من الخجل ممَّا قلته يومها.

كيف تزوجتني ماري بعد ذلك اليوم؟ كيف بقيت تحبني وظلت معي؟ ربما لأنها نصف ملاك وهذا ما لم أرَه وقتها. يومها ظننت أن الدونية وصلت بها إلى الحد الذي جعلها تقبل بشخص يهينها بهذه الدرجة، لأنها تعلم أنه لا يوجد إنسان يحترم نفسه سيقبلها، وأنها لن تجد شخصًا بسذاجتي، وأنها تغذي هذه السذاجة بهذا الخنوع الذي تتمتع به أمامي.

حتى هذا قلته لها. لو كانت قد أجابتني حين سألتها مَن من أحبائها السابقين سيكون حاضرًا للزفاف، لو كانت فقط قد أجابتني لأراحتني، ولكنها كانت تقرر ما تخبرني إياه وما تخفيه. ظل هذا طوال سنواتنا الأربع معًا، لم يتغير. كان يظهر كل حين وآخر. لم يغادرنا قط. حتى في حياتنا المسالمة الظاهرية كان هناك. لهذا كتبت لها الخطاب اللعين في آخر أيامنا. لهذا كان يجب أن أنفجر؛ لأنها كانت تثير حنقي بما تخفيه.

مَن قتلكِ يا ماري؟ هو أم أنا؟ هل قتلكِ هو يوم أن أقنعكِ بأن تفجري نفسك؟ أم كنت أنا مَن فعل هذا قبله بسنوات. يومًا تلو الآخر. عامًا تلو الآخر. لحظة تلو الأخرى؟ ألست أنا مَن يده مضرجة بدماء كل هؤلاء الضحايا؟ إن لم يكن أنا إذن فلماذا أشم تراب الكنيسة المحطمة على وجهي؟

كانت نظرتي كفيلة بأن تجعل الصحفي الطفيلي يتراجع. وحين قمت منتفضًا بجسدي لأخرج إلى الممر كان فريدريك يمر بجانبي. نظر نحوي في شرود ولم يعرفني. توقف قلبي للحظة ولكني أشحت بنظري عنه بسرعة مرتديًا نظارتي.

كان سكرانًا.

الآن بت أعرف ذلك الشعور جيدًا.

***

خرجت إلى ساحة الدفن. الصحفيون والمراسلون يهرعون بجانبي، يلحقهم التقنيون مصطحبين معداتهم خلف الجمع الصغير الذي سبقنا. توقفت عن المسير وتواريت خلف شجرة ضخمة على مبعدة من الجميع، أراقب التابوت الراقد بجوار الحفرة التي حفروها مسبقًا. وصل مَن بقي من الأهل والأصدقاء وتحلقوا حوله في صمت. يتلو القسيس صلاة لا أسمعها بينما الكل ينظر ساهمًا نحو الأخدود الضيق. بعد لحظات يُنزلون التابوت ببطءٍ معلقًا بحبال يمسك بها الشباب. يصلني عويل أم ماري وأبيها الذي يقف بصعوبةٍ مستندًا على عكازه. أتخيل

الوعاء الزجاجي محكم الغلق الذي به بقايا ماري يتأرجح داخل التابوت الفارغ. أشعر برغبة في التقيؤ.

مرت سحابة فسطعت الشمس بقوة بينما يهيلون التراب عليها، لو كانت ماري بجواري الآن لكانت قد احتفت بها، واتسعت ابتسامتها، وانطلقت في نكاتها ومعاكستها للجميع بصوتها الرفيع المرتفع. تغيم الشمس ثانية وتعبر المروج نسمة باردة. تسمرت في لحظة من الوحدة والعزلة تشاركتها معها.. لم تقطعها سوى الومضات الشيطانية لمصابيح الإعلاميين.

حين بدأ الجميع في العودة إلى سياراتهم، سرت بمحاذاتهم من بعيد ساهمًا في صمت. فجأة سمعت صوتًا كصوت الرصاص المكتوم. رفعت رأسي في ذعر فوجدت الجميع يهرعون في كل اتجاه. قوات الشرطة تجري ممسكة بشخص ما يُلقي شتائم غاضبة أمام الجمع الذي كان قد بدأ يتفرق. وجدت فريدريك وأخا أولجا وقد غطى جسديهما طلاء أحمر فاقع، غطى بعض منه وجهيهما المذعورين. كان فريدريك يتأرجح ويكاد يقع بينما لحقه البعض وأسندوه. أردت أن أذهب للاطمئنان عليه، ولكني عدلت عن رأيي تاركًا الصحفيين يستمتعون بالسبق وهم يلتقطون له صورًا مخزية.

أردت أن أهرب من سخافة المشهد. الإحراج والصراخ. خاصة صراخ أولجا. أشعر بما تشعر. ذلك الارتباك والألم. أردت فقط الابتعاد عن ألمها المشع الذي يحمله عويلها ليغلفنا جميعًا. يغطي الوديان والهضاب الخضراء التي تحيطنا، يسري مع الأنهار وفي الغابات التي تشغل هذه البقعة الحزينة من العالم.

***

طلبت سيارة وغادرت. تناولت بعضًا من الشاي في مقهى صغير ثم تجولت في أنحاء المدينة على قدمي. لم أشعر بالرغبة في العودة إلى النزل. بدأت كتابة المقالة الأولى عن رحلتي في رأسي. موعد إرسالها

في الغد.

لا أدري كم من الوقت ظللت أسير. ولكني وجدت نفسي أمام محل للحلوى. كان في منطقة بعيدة عن وسط المدينة. لم أستطع الوصول إليه وحدي أبدًا كلما أردت أن أشتري لماري شيئًا منه. كثيرًا ما جاءت بي إلى هنا. كان محلها المفضل. ما إن ندخله حتى تتحول إلى فتاة في التاسعة، مبهورة بالألوان والأطعمة وكميات الحلوى اللا نهائية. تحكي لي قصصًا عن رعونة الصبا: «هذه الشوكولاتة كنت أسرقها أنا وخالتي، هذا الإصدار المحدود من حلوى سكيتلز كانت تثير جنوني، آكلها متخفية تحت السرير مع كارين». كان احتفاء ماري بالطفولة أمرًا لم أشهده من قبل. أنا لا أذكر طفولتي ولا يمكنني مهما حاولت أن أعثر على ذلك الطفل بداخلي.

دلفت إلى الداخل دون سبب محدد، وفي لحظات كانت هي هناك، تركض باستمتاع في أرجاء المكان. ذهبت إلى آخر الدكان ووقفت أمام مرآة مقعرة كانت تجعلني أقف أمامها وهي تضع على رأسي أقنعة مضحكة وتلف رقبتي بأوشحة من الريش الملون.

- ماري، توقفي. شكلنا غبي.

- بالله عليك. لا تكن مملًا. يا إلهي منظرك بشع!

وتنفجر في الضحك بينما تُخرج هاتفها لتصورني. يا إلهي كم كانت تضحك! وكأنها لا تحمل همًا في هذا العالم الواسع.

في المرآة رأيت انعكاسًا لهيئةٍ أعرفها جيدًا. تتحرك ببطءٍ، متشحة بالسواد، وبوجهٍ يعلوه غبار الموت المقبض. لقد كبرت. خمس سنوات منذ رأيتها آخر مرة. تتجول بين الممرات. تلم بيدها ما تستطيع حمله من الحلوى. تسارعت دقات قلبي وهي تقترب حيث أقف. ولكنها استدارت وعادت أدراجها إلى المنضدة. أقترب قليلًا. تعطني ظهرها وهي تحاسب. تنتظر بينما يحسب البائع الحلوى على الماكينة. رويدًا رويدًا يتصاعد صوت بكائها المكتوم. ينحني ظهرها وهي تستند

بمرفقيها على المنضدة لتساعد نفسها على الوقوف. تبكي قلبها كله. أطالع وجه البائع الذي يتوقف عمّا يفعله بنظرةٍ مرتبكة. اثنان من المتسوقين ينظران نحوها. أحدهما مع طفلة صغيرة تنظر نحو أمها وتسألها: «لماذا تبكي هذه السيدة؟»

أتحرك نحوها، وفي صدري الأسمر العريض أدفن رأسها، محتضنًا كتفيها اللتين تهتزان بشدة مع تصاعد نحيبها.

***

رزقت أولجا بابنها الأول وهي في سن الواحدة والعشرين. كانت ماري رابع الأبناء. وضعتها بعد ذلك باثني عشر عامًا.

نجلس في المقهى الذي كنت فيه منذ ساعة. هدأت الآن. أطالع وجهها. أتذكر أمي التي رحلت. أشتم في أولجا رائحة الأمومة التي لا تغيرها أرض ولا ثقافة.

- كنا فقراء. لم نكن يومًا من الأغنياء أو الساعين لامتلاك المال. فقط أردنا أن نعيش ونربي أولادنا. حين حدثتني ماري عنك كنت في غاية الحماس لمقابلتك. أبوها خاف. ظن أن عائلتنا ستضم إرهابيًا متشددًا. أما أنا فلم يخطر ذلك على بالي لحظة. ربما لم أنَل حظي من التعليم ولكني أشاهد التلفزيون باستمرار وأعرف مبالغاتهم. وفي حينا مهاجرون كثيرون كلهم يتميزون باللطف والانطوائية. أكثر ما طمأنني كانت لمعة عينها حين تصفك. شعرت أن الزمن ينصفها أخيرًا. فنان ومحاضر في الجامعة ومن عائلةٍ مرموقةٍ في بلاده. ظَلمت ماري كثيرًا. عانت كثيرًا. لن أدعي أني أحسنت تربيتها. كنت متعبة ومستنزفة. بحلول الوقت الذي ولدتها فيه، ثم قدوم التوأم بعدها بثلاث سنوات، كنت قد أجهدت. لم أولها الاهتمام الذي تستحقه. اللعنة على التزمت الذي جعلني أرزق بست أطفال ونحن لا نقدر. أردت أن يكونوا نظيفين ومتعلمين وأن يعتمدوا على أنفسهم بسرعة. أن يكونوا مثل أبناء عمومتهم الأسعد حظًا. حاول فريدريك كثيرًا. لا ألومه. وأنا أيضًا لم

أكن مثالية. الشراب ونوادي اللعب كانت دواءً لكل هذا الضغط. لم يكن يملك أدنى طموح. فقط أراد الهروب من كل هذا الصخب في المنزل. كنا ننتظر أن يكبر الواحد منهم حتى نسارع بإنزاله عن كاهلنا. ما إن يبلغوا ويبدأوا في الصراخ الهستيري بوجوهنا ورفض آرائنا حتى نتركهم لحالهم. فقط تمنيت أن يبلغ أيٌّ منهم الجامعة. يعمل في مصرفٍ أو يصبح طبيبًا. يشق طريقه نحو حياةٍ أسعد وأقل بؤسًا. البرد والفحم والصخب. الأثاث المستعمل والسخانات المعطوبة والملابس التي نتخاطفها من بعضنا البعض. أردت لهم أفضل من ذلك. حين أخبرتني عنك. يا إلهي! ظننت أن كل هذا سيتغير. «كم أنتِ محظوظة يا ماري!» كنت أكرر على مسامعها.

أنصت إليها بتقديس شديد.

- في ليلتها الأخيرة أخبرتني بأنها تريد الذهاب لمحل الحلوى في الغد. كانت منزعجة أنها لا تجد كل ما تريده في ميلانو. لن أسامحها ما حييت أنها قد أخبرتني برغبتها تلك وهي تعلم أنها لن تكون موجودة في اليوم التالي. حين عادت بعد انفصالكما كانت محطمة. حاولت أن أفهم منها ما حدث ولكنها لم تقُل شيئًا. «فقط لم أحتمل الحياة هناك»، كانت تقول دون زيادة. فقط جلست وانتظرتك. بالساعات كانت تجلس وتنتظر. في الأعياد والمناسبات والإجازات الطويلة في بلدك. كانت تعرفها كلها وتحفظها عن ظهر قلب وتتابعها على الإنترنت. كانت تجلس وتنتظر. تستيقظ متوقعة وصولك في أي لحظة. وفي أحد أيام الانتظار الطويلة تعرفت إلى الحقير في المركز الإسلامي. بعد أشهر قليلة، كانت ابتسامتها قد بدأت تعود رويدًا رويدًا. وبعد عام ونصف العام على انفصالكما أخبرتني: سأتزوج وأنتقل معه إلى إيطاليا حيث يدرس.

كان الظلام قد بدأ يخيم فجأة. هاجمتنا الغيوم لا أدري من أين والآن اكتست السماء برمادية كئيبة. جلست مراقبًا أولجا وهي تمضغ الحلوى

الملونة التي كانت ابنتها يومًا مهووسة بها بينما دموعها تنهمر.

- أنا موقن أنكم تلومونني. ولكنك تعلمين. من بين كل الناس تعلمين أني لم أرد يومًا أن أبتعد عنها. وأن هذا ليس ديني الذي علمته إياها. هذا ليس أنا وليس ما كنت أظن أنها ستذهب إليه. في أسوأ كوابيسي لم يكن هذا ما تخيلت أن يحدث. حين تقولين الآن إنها انتظرتني. هذا يقتلني. لقد حاولت. حاولت الحديث معها. ورجوتها ألف مرة ألا تتركني. حاولت ولكنها أصرت. وحين عادت إلى هنا توقفت عن الرد على رسائلي. فكرت أن آتي إلى هنا. أن أقطع تذكرة وآتي. ولكني كنت مغرورًا. كنت أعد نفسي أكبر من أن أفعل هذا. كنت أظنني سأرتاح حين ترحل من كل ما كان يؤلمني بوجودها. كنت أفكر كثيرًا.. ماذا تفعل ماري الآن؟ في هذه اللحظة. في هذه اللحظة بالضبط.. ماذا تفعل؟ هل تستحم؟ هل تأكل؟ هل تشاهد التلفزيون؟ تقرأ؟ راكبة الحافلة مسندة رأسها على النافذة تراقب هطول المطر وتفكر فيَّ؟ كنت أعرف أنني يجب أن آتي. ولكني خفت ألا تكون لها رغبة في ذلك. أن تصدني. أن أعود مهانًا. وكنت ضعيفًا. مترددًا. متألمًا. كنت أعرف أن ما انكسر بيننا، ما خطته يداي في خطاب مشئوم تركته لها، لن أستطيع أن أمحوه أبدًا. لقد كنت ضعيفًا. ولكني لم أرد لها أبدًا أن تموت. لم أرد لأحد أن يموت. أبدًا.. يجب أن تصدقيني..

ربتت أولجا يدي وضمت أصابعها بقوة حول كفي. بيدها الأخرى كانت تمسح دموعي بمنديل ورقي.

- لقد ماتت ماري لأنها اختارت ذلك؛ لأنها لم تدرِ إلى أين تذهب، لم تكن تعرف مَن هي. الرب وحده يعلم ماذا كان يدور في رأسها. كنت أشعر بها. كنت أشعر بأن شيئًا ليس على ما يرام. بالأمس لم تكن ماري التي كنا نسمع منها طوال السنوات الماضية، ماري المتزمتة المتشددة التي تكرهنا، كانت وكأنها عادت فجأة ابنتي الصغيرة التي أعرفها جيدًا. في ذلك اليوم، ونحن في طريقنا إلى الكنيسة، تأكدت من فرط شرودها أن شيئًا ليس على ما يرام. سكت. لأننا هنا نحسن الصمت

وكبت مشاعرنا دون تعبير. سكت وقلت لنفسي لعلها استفاقت من تشددها الغبي، وقررت أن تترك ذلك الخنزير الذي تزوجته. تمنيت لا أن تترك الإسلام، ولكن أن تعود كما كانت. تمنيت أن تعود لك. كلنا كنا نحبك.

- عدا فريدريك. وبضع عشرات من جيرتكم. قلت مبتسمًا بمرارة.

***

ظلت أولجا ممسكة بيدي ونحن نعبر البوابة الخشبية لمنزلهم.

ما إن استدارت السيارة على الطريق وظهرت ملامح شارعهم حتى غاص قلبي بين ضلوعي. كان بنفس الهيئة تمامًا كما رأيته آخر مرة. وحين اقتربنا نحو البيت ذي الطابقين والسقف المائل كان يحوطه نفس السياج الخشبي، الآن مطلي بأخضر داكن وليس بالبني كما كان. نفس الأشجار. نفس قوالب القرميد.

أصرت أولجا على أن أعود معها إلى المنزل. أردت ذلك أيضًا. ولكني كنت أخافه. نزلنا من السيارة وترددت. كان قلبي يغوص أكثر فأكثر ويكاد يتشظى من ثقل وجود شبح ماري. سحبتني أولجا من يدي بلطف نحو الداخل. حين عبرنا إلى داخل الحديقة رأيت رسومًا بطلاء مرشوش على الأرض. سواستيكا نازية و«اللعنة على الإرهابية» بلون أزرق كريه ومغسول.. يبدو أنهم حاولوا إزالته بقوة.

على السلمين الحجريين المؤديين للمنزل وقفت قريبة ممتلئة بوجهٍ قلق: «أين كنتِ بحق السماء؟ لقد أصبتنا جميعًا بالقلق». كانت توجه كلماتها لأولجا ولكن بعينين تتفحصاني بفضولٍ شديد. تبادلتا بضع كلمات ثم دلفنا إلى الداخل.

في صالة الاستقبال كان الكل محشورًا. أقرباء، أصدقاء قدامى، أطفال صغار يركضون بين أقدامهم، رجال وسيدات طاعنون في السن يجلسون على الكراسي الوثيرة. بعضهم كانوا مدرسي ماري بالمدرسة

كما أخبرتني كارين فيما بعد. كثير من الأثاث تغير عن ذلك الذي أذكره.

لم يكن جمعًا ضخمًا. هناك حس من الارتباك والتوتر عالق في الأجواء. وأنا أراقبهم من خلف نظارتي أشعر أنهم يخافون من أن يعدوا من المنبوذين لأنهم يحيون ذكرى الإرهابية، وكأنهم يشعرون بالذنب أنهم أتوا ليقدموا الدعم هنا بينما بقية البلدة تنعي ضحاياها. هم الآن في منزل سفاحة يحتفون بموتها ويتذكرونها بينما من المفترض أن يقذفوا بذكراها إلى المحرقة كما كانوا يفعلون بالسحرة في الزمن القديم.

ولكن تعاطفهم مع العائلة الحزينة والشعور الغامر بالخير الذي يكتنفهم هو ما أتى بهم إلى هنا. هؤلاء الموجودون هنا، تحلوا بما يكفي من الإنسانية كي يدركوا في نهاية الأمر أن أصحاب هذا البيت ما هم إلا أب وأم مكلومين لابنة ضالة. ربما لم يأتوا جميعهم للجنازة، ولكنهم على الأقل قاموا بمؤازرتهم بزيارة. لطالما تأثرت من حس التماسك الذي يميز عائلة ماري وأبناء حيهم، على عكس عائلتي التي لا يعرف فيها الواحد منّا الآخر.

عرفت في الواقفين صديقًا قديمًا لماري. من القلائل الذين قابلتهم من قبل. شديد النحافة. يرتدي نظارة طبية ضخمة بشعر أحمر ملتف ووجه تملؤه البثور. كان يسبح في قميص أخضر قبيح وفوقه رابطة عنق زرقاء. لماذا بحق السماء يمكن أن تنام مع شخص مثل هذا، إن فعلت؟ طردت الفكرة من رأسي قبل أن أستطرد فيها كثيرًا وتبدأ أذناي في الاحتراق. هاجمتني موجة متكررة من الرغبة في إنهاء حياتي. «أريد أن أموت»، تتردد في ذهني المرة تلو الأخرى كطنين لا يحتمل. عدت لأنظر في بقية الجمع لأشتت نفسي، حتى قاطعتني صرخة رضيع يزحف على الأرض بين قدمي.

نظرت لأسفل، وهناك كانت على يديها وقدميها. تنظر نحوي لأعلى، تريد مني أن أحملها. نظرت حولي بينما قلبي يتوقف لحظة عن الدق قبل أن يعود ليستأنف عمله الرتيب مرة أخرى. لم يكن أحد ينتبه لنا.

انحنيت وحملتها بين كفي ثم إلى صدري بينما أستقيم واقفًا.

وسط روائح الرضع المحببة كانت هناك. رائحة ماري التي لا أخطئها مهما حييت. رائحة حلمت ليالي طويلة أن أشمها مرة أخرى. رائحة كنت أنتظر طوال اليوم حتى أعود لأجدها تملأ أرجاء البيت. رائحة أمضيت ساعات طوال أحترق من تخيل امتزاجها بجسد آخر. لا أخطئها أينما ذهبت ومهما ابتعدت هي. لا يهم كم مرة ترحل ماري، فإني لن أنسى رائحتها أبدًا. ولن تتوقف على أن تثير في نفسي آلاف الذكريات التي تتدافع مرة واحدة، دونما ترتيب أو نظام أو تحكم. لا أريدها أن تنتظم. فقط أتركها تُستدعى إلى الوعي والوجدان. حطميني.

بين جنبات ملابسها الوردية التي تغطي أطرافها الرقيقة وأناملها الدقيقة التي تكاد تتكسر من فرط جمالها، كانت رقية تحمل كل ما هو أمها. تقتلني بكل صوت وحركة تند عنها. تنظر إليَّ بعينيها الواسعتين بفضول كبير. يرتج رأسها الضخم وهي تعطس فيذوب قلبي وتنهمر الدموع على وجنتي. رقية. لا أحد يحتاج إلى أن يخبرني بأنها هي. برائحة أمها التي لم تغادرها بعد. بعينَي أمها وبشعر أمها الأشقر. إنها هي. قطعة منها. قطعة مني.

توقفت دموعي وعوضًا عنها أخذت أستنشق ربيع الحياة من بين ثنايا الطفلة. ضممتها إليَّ برفق وبكل الشوق الذي في الدنيا. هذه الرائحة التي عما قريب ستبهت، وتستبدل بها رائحة مربية أخرى. تفضل أنواعًا أخرى من المنظفات. تضيف توابل أخرى للطعام. ترش بيتها بمعطر آخر. تضع عطرًا آخر. عما قريب شيء من ماري التي تحملها رقية سيذهب إلى غير رجعة، ولا سبيل للاحتفاظ به.

رقية. أمي التي رحلت. أمي التي كانت ماري تحبها. حين أرسلت لها أخبرها أن «ماما ماتت» لم ترد لساعات. في المساء ردت بتعزية قصيرة، وأعلمتني بنيتها الزواج قريبًا. ما هي إلا لحظات واختفت

صورتها من على واتساب. كانت هذه أول مرة ترد عليّ منذ أن سافرت، وكانت هذه أول مرة أرسل لها رسالة منذ أن توقفت عن ذلك قبلها بعام وتقبلت مصيري. وكانت أيضًا هذه آخر كلمات وصلتني منها.

غرقت في عينيها المستنسختين من عينَي ماري. أخضر الكوبالت. لا أنساه أبدًا. غرقت فيهما وأنا أجلس على كرسي وثير في ركن هادئ من قاعة الاستقبال. ظللت ألاعبها. أهز رجلَي وهي فوقهما. أدغدغها في شرود. أتركها تعبث بنظارتي الشمسية، تحاول وضعها في فمها فيسيل لعابها. أراحت قدميها المثاليتين في كفي. كانت ثقيلة. موفورة الصحة. كانت البراءة المولودة من رحم الموت والوحشية. كانت التجسيد الحي لكل ما خفته في حياتي. كانت الابنة التي كنا أحق بها. كانت الآن لي.

لا أدري متى حدث هذا ولكننا نمنا. غطت رقية في نوم عميق بعد أن دفست رأسها في بطني. ظللت أراقبها ناسيًا العالم الذي تناسى وجودي وأنا في هذا الركن البعيد من الغرفة. ظللت أراقب وجهها الملائكي، وأشعر بأنفاسها العطرة المنتظمة على ظهر يدي، بينما يتردد صدى دقات قلبها في صدري. أراقبها تمامًا كما كنت أراقب أمها في وضعية لا تختلف كثيرًا كانت تتخذها ماري في حجري كل ليلة، لسنوات.

لا أدري متى حدث هذا، ولكني أنا الآخر لحقتها في نومٍ عميق.

***

«ماذا يفعل هذا الملعون هنا؟»

استيقظت على صوت كالرعد وقدم تركلني بقوة. تلفت في ذعر أبحث عن رقية بين يدي ولكني لم أجدها. نظرت له وكان وجهه المخمور الذي أكرهه.

«لولاك ما كانت قد ماتت. ماذا أتيت لتفعل؟»

حاولت الرد والقيام من الكرسي، ولكنه عاجلني بلكمة في وجهي. لم أصدق ما يحدث وكدت أبكي من الإحراج وأنا أنظر حولي فأجدهم

يتفرجون. «فريدريك»، صرخت أولجا بصوتٍ باكٍ. «كفى بحق السماء.. هل جننت؟»، حاول أن يضربني ثانية ولكني دفعته عني فسقط على الأرض متهاويًا بفعل سكره. قبل أن أدرك ما فعلته وجدت أحد الشباب يمسك بي من الخلف، وآخر يكبلني ويحاولان جرّي للخارج وسط صراخ النساء والأطفال. كان مشهدًا عبثيًا يوازي عبثية الكارثة التي جمعتنا هنا.

ركلت أحدهما في بطنه بينما خلصت نفسي من الآخر. وقبل أن أستدير لأواجه فريدريك مرة أخرى ارتفع صوت التلفزيون فجأة بشكلٍ مبالغٍ فيه. التفتنا جميعًا ونظرنا تجاه الشاشة الضخمة المثبتة بالحائط.

بملء الشاشة كانت صورة محمد قابل.

لقد ألقوا القبض على زوجها.

***

مر يومان تجنبنا فيهما بعضنا البعض قدر الإمكان. تقبل فريدريك وجودي كأمر واقع. حكت له أولجا عن سبب وجودي هنا، وهو كتابة مقالات أو ربما كتاب عن ماري، وأني أتيت لأني أريد أن أوضح للعالم مَن كانت هي حقًا، وأنها ليست مثلما يحاولون تصويرها مضطربة مجنونة. حينها فقط بدأ يقتنع بأن وجودي شر لا بد منه لعله يغير من الأمور شيئًا.

ولكن جفاء فريدريك كان يؤرقني. كنت أذهب كل صباح لألعب مع رقية، أتحدث بعض الوقت مع أولجا وكارين ومَن أجده من أخوات ماري، وفي كل مرةٍ كان فريدريك يغادر آخذًا عكازه ويعبر الطريق إلى منزل أخيه.

على الناحية الأخرى كان رئيس التحرير يصرخ مطالبًا بالمقال الأول. ظللت أؤجل الجلوس إلى كتابته حتى فعلت أخيرًا. جعلته توثيقًا لرحلتي منذ أتيت إلى هنا، جنازة ماري، وبعضًا عن حياتها كما عرفتها.

كذلك قررت أن أشرح بوضوح الأجواء العدائية التي تواجهها العائلة هنا. كانت مسألة صعبة، أن أفصل نفسي عما أكتب، أن أكون حياديًا، لذا اكتفيت بتدوين مشاهداتي ووصف الجنازة وسرد الأجواء المشحونة لبلدةٍ ضربتها كارثة. سألت أولجا إن كانت تمانع أن أقتبس منها بعض الكلمات للتقرير. «كل ما فيه مصلحة ماري أوافقك عليه»، قالت وهي تقشر البطاطس.

صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى المنزل وكان فريدريك جالسًا وحده إلى طاولة المطبخ أمام كوب من القهوة يحدق في البخار صامتًا. بجانبه جلست رقية في عربتها تلوح بلعبةٍ موسيقية ملونة. حين دخلت ألقيت عليه السلام ولكنه لم يرد. أراد أن يغادر كعادته. استوقفته.

«هيا بنا نأخذ رقية ونتمشى بها قليلًا. هل تذكر تلك النزهات الطويلة التي كنا نأخذها معًا في الغابة؟ أفتقدها».

حاول أن يقاوم، ولكن قلبي المثقل بحنين صادق إلى ماري رسم على وجهي أمارات الألم بما يكفي لإقناعه بالقيام معي.

ركبنا سيارته حتى وصلنا إلى مدخل الغابة. هناك أنزلنا رقية إلى عربتها وتأكدنا أنها مغطاة بشكل كامل يحميها من البرد. بالرغم من أن الجو كان جافًا والشمس تداعبنا من حين إلى آخر، إلا أن تغير الجو المفاجئ أمر متوقع في أي وقت.

كنا كأي جد وأب وحفيدة يستمتعون معًا بنهار يوم صحو. للحظة بينما نسير وتتكسر من تحتنا الحشائش المبللة شعرت أن هذه اللحظة حقيقية فعلًا. سمعت صوت ماري وهي تضحك حين كنا نتمهل أنا وأبوها غارقين في حديث حول الرأسمالية والعدالة الاشتراكية، بينما هي تسبقنا وهي تنعتني بالسمين وأباها بالعجوز. «كيف أسأت اختيار رفقاء الرحلة إلى هذا الحد؟»

ارتعد قلبي وضحكتها ترن في أرجاء المكان بينما أبحث عن الكلمات المناسبة كي أبادله الحديث.

ثم تذكرت مقالة قديمة نشرتها بالجريدة منذ بضع سنوات.

وهناك، ونحن نصعد الطريق المتعرج للغابة الباردة، وبينما نشرع في دفع رقية بلطف بين أغصان الأشجار المتكسرة، حكيت لأبي زوجتي حكاية.

***

في عام 1988 سافر السيد جوزيف فريتزل إلى تايلاند في إجازة احتفالاً بعيد ميلاده الثالث والستين. هناك قضى شهرًا مع صديق مقرب. تنقلا خلالها بين الشواطئ الساحرة، الأسواق الشعبية التي تبيع الملابس المقلدة بسعر رخيص، والحانات المنتشرة لخدمة آلاف السائحين الذين يزورون جزيرة باتايا السياحية. في أحد هذه الأسواق ابتاع السيد فريتزل فستانًا ساخنًا بمقاس صغير للغاية. حين رآه صديقه وأبدى استغرابه غمز له فريتزل: «إنه لعشيقتي، إياك أن تخبر زوجتي». وضحكا.

وبينما يرتع فريتزل على شواطئ تايلاند، كانت ترقد ابنته إليزابيث ذات الاثنين وعشرين ربيعًا في قبو منزله بإحدى ضواحي فيينا، محتضنة ابنيها من والدها في سرير لا يسع سوى طفل صغير.

كان قد مر على محبسها هذا أربعة عشر عامًا، ولا تزال تنتظرها عشرة أعوام أخرى حتى يتم إطلاق سراحها.

على مدار السنوات الأربع والعشرين التي أسر فيها فريتزل ابنته إليزابيث، قام باغتصابها ما يقرب من 3 آلاف مرة. أنجب منها سبعة أطفال، مات أحدهم، وقام بتربية اثنين مع زوجته في الطابق الأعلى، وترك ثلاثة منهم لابنته كي تربيهم. كان فريتزل - كما قال في التحقيقات إثر القبض عليه - يخاف على إليزابيث من السقوط في

الانحلال، بسبب رفقة السوء والمخدرات التي كانت تتعاطاها في شبابها، ولذلك على حسب قوله قرر عزلها بعيدًا عن تلك المؤثرات السيئة في قبو المنزل الذي كانت تعيش به أسرته المكونة منه وزوجته وسبعة أبناء إحداهن كانت إليزابيث التي ولدت عام 1966.

في أغسطس من عام 1984 دخلت إليزابيث إلى هذا القبو، ولم ترَ النور سوى عام 2008.

رزق السيد فريتزل - ولا تستهجن استخدامي للفظ الرزق فالأطفال رزق أليس كذلك؟ - من ابنته بسبعة أطفال، ترك أولهم على باب منزله لتجده زوجته، وبين طيات لفافته كان خطاب من الابنة الكبرى المختفية، تخبر فيه أمها أنها أنجبت هذا الطفل من علاقةٍ بشاب التقته بعد هروبها إلى فيينا، وأنها ليست لديها الموارد الكافية ولا القدرة على أن تعيله، لذا فإنها تستحلف أمها بكل ما هو غالٍ أن تعتني بحفيدها، وأنها سوف تعود لها يومًا حين تتمكن من الخروج من حياة المجون التي تعيشها في العاصمة، ووعدتها بأنها ستعوضها عن سنوات اللوعة والفقدان التي تمر بها. تكرر هذا السيناريو ثلاث مرات. مع ثلاثة أطفال من أصل السبعة. مات الرابع. وقامت إليزابيث، ابنة فريتزل الكبرى وأم أولاده، بتربية الثلاثة الآخرين في القبو السري.

ما لم يُرد فريتزل الاعتراف به عند القبض عليه هو أنه كان يجبر ابنته على إعادة تمثيل مشاهد إباحية عنيفة من أفلامه المفضلة، وأنها حين ولدت ابنًا منه ومات بعد بضعة أشهر جراء التهاب رئوي، قام بحرقه في محرقته الخاصة. كذلك رفض أن يصدق أنه كان يقطع الكهرباء لأيام عن ابنته وأطفالها/أطفاله حين يسيئون التصرف، تاركًا إياهم يختنقون في قبو بلا نوافذ أو مداخل للهواء بمساحة 35 مترًا مربعًا وسقف منخفض. كان بالعكس يرى أنه أب خير كان يزورهم كل يوم آتيًا بالطعام والحلوى. اشترى لهم تلفزيونًا وفيديو وراديو وثلاجة، وطائر كناريا مغرد، وشجرة كريسماس كان يستعيرها من شقة أسرته

بالطابق العلوي في الأعياد.

لقد تمكن هذا المهندس النمساوي الجاد من أن يحافظ على حياة متزنة تمامًا طوال 24 عامًا. كان يربي أولاده بأفضل ما يمكن، زوجته تراه زوجًا ممتازًا، له أصدقاء يدعوهم دائمًا للعشاء، وكان عضوًا فعالًا في مجتمع بلدتهم النمساوية الصغيرة. كل ما هنالك هو أنه كان يتسلل كل ليلةٍ بعد نوم الجميع ليقضي بعض الوقت الممتع أسفل المنزل، في ذلك القبو المعزول الذي لم يكن يعلم أي أحد بوجوده.

في هذه القصة الواقعية رغم خرافيتها يمكننا أن نطرح مئات الأسئلة التي إن طرحت في حال كانت هذه قصة فيلم رعب مقرف أو رواية نفسية رخيصة لكانت كفيلة بأن تجعل العمل مهترئًا دراميًا ومثار سخرية المشاهدين والقراء أيًا كان الوسيط. كيف عاشت الأم خمسة وعشرين عامًا وهي لا تدرك أن ابنتها تعيش أسيرة تحتها ببضعة أمتار؟ كيف لم تلحظ غياب زوجها كل ليلة بعد خلود الأسرة للنوم لساعات ثم العودة مرة أخرى لسريره؟ الجيران الذين أجر لهم السيد فريتزل أربع شقق في بنايته تلك والذين تغيروا وتبدلوا على مر السنوات كيف لم يلحظوا أن هناك أسرة بائسة تعيش تحتهم؟ والأهم: كيف لم يلحظ أي شخص من هؤلاء الذين تعاملوا مع هذا المهندس الناجح المتزن الذي ظل عضوًا بارزًا في مجتمع الضاحية النمساوية الهادئة طوال 45 عامًا، خاصة أنه قد أدين من قبل بتهمتي اغتصاب وتحرش حين كان شابًا. والأهم: كيف تكررت هذه القصة بحذافيرها عدة مرات في أماكن متفرقة حول العالم خلال القرن الحالي؟

إنه الإنسان يا سادة...

***

جلسنا أنا وفريدريك على دكة وسط الأشجار تطل على بحيرة صغيرة. على صفحة الماء كانت تطفو أسراب صغيرة من البط والإوز تزعق على بعضها بين فترة وأخرى. أمسك تُرمُس المياه بيده الثخينة وصب

لنفسه بعض القهوة في الغطاء دون أن يدعوني إلى تناولها معه.

«هل هذه قصة حقيقية؟»، سألني.

«كل كلمة فيها».

«وماذا تريد أن تخبرني بها؟»

«لا أدري. ربما أريد أن أخبرك بأن الإنسان، أي إنسان، قادر على فعل أي شيء، وكل شيء. لا تظن أنك أنت أو أنا أضعف من أن نقدم على ما أقدم عليه فريتزل. ولا تستغربه. ولا تصدم منه. ولكن أن تصدم ممَّن حوله، ربما يكون ذلك مبررًا. ولكنه الإنسان، الوحيد، الحزين، المغترب والذي لا يكترث بأحد أو بشيءٍ غير نفسه، الإنسان البارد الميت اللا منتمي إلا لمادته ومتعه وعزلته، هذا هو الإنسان الذي شجع السيد فريتزل على أن يدمر حياة ابنته لمدة خمسة وعشرين عامًا دون خوف أو قلق. هذه البشاعة لا تقل عن بشاعة ما اقترفته ماري. سواء كان زوجها هو الذي حرضها أم لا. لا تقل بشاعة عن كل الذين يقتلون سواء باسم الدين أو غيره. لا تهم المسميات. ربما يكون الأصح الآن هو أن نتغاضى عن كل هذه المسميات، وأن نتوقف عن تبادل الاتهامات..»

«ماذا تريد بعد؟ تنفي التهمة عنك وعن دينك؟ هل هذا ما أتيت من أجله؟»، قاطعني بحدة بينما رقية تضم كفيها الصغيرتين حول إصبعه وتضحك.

«أن تظل مقتنعًا بأن الدين، أي دين، هو السبب الوحيد وراء كل شرور العالم فهذه سذاجة. أن تظن أن كلنا كذلك فهذه سذاجة أكبر. أيًا كان ما حدث لماري، لمخها، فإنه ليس بسبب الدين، بداخلي يقين بذلك. وسوف أصل إلى كنه ذلك. أريدك أن تساعدني. لست عدوًا لك. ربما أنا نتاج تراث فرَّق بيني وبينها، تمامًا مثلما هي نتاج تراث فرقنا، كلانا ضحية اختلاف عالمين. لقد خسرتها. ربما لا أستطيع أن أغير هذا. لن أعيد ماري، ولكني على الأقل سأترك شيئًا لهذه الطفلة، لرقية، كي تكبر وتعرف مَن كانت أمها عن حق. أيًا كانت مَن هي، ولكنها ليست قاتلة.

من بين كل ما كانته لم تكن ماري قاتلة، وأنت تعرف ذلك أكثر مني».

شعرت بالإنهاك حين سكت. بثقل العالم كله معلق بكاهلي. صمته وهو يرتشف القهوة وينظر أمامه إلى الفراغ دون أن يقول شيئًا ينهكني أكثر. شعرت أني ضعيف وتائه أكثر من أي وقت مضى في حياتي. وضع الكوب بجانبه ثم داعب رقية قليلًا.

«ربما يكون كلامك صحيحًا. الوحشية تسيطر على العالم وتدفعه للجنون كل يوم أكثر فأكثر. وما يأتينا من الخارج، من الإسلام وغير الإسلام يدفعنا للجنون أكثر فأكثر. ولكن كما قلت، أنت لن تعيد إليَّ ابنتي. ربما يكون ما فعلته من الظاهر بسبب ما أقنعها به هذا الحقير، وربما تكون الأمور بداخلها كانت أبعد من ذلك. ولكن تظل الحقيقة واحدة. لا ريب فيها ولا شك ولا جدال. أنت مَن دققت أول مسمار في تابوتها. حين وقعت في حبك. وحين جرحتها. حين عادت ماري لم تقل شيئًا أبدًا عما دار بينكما. لم نسأل لأننا احترمنا رغبتها في أن تطوي هذه الصفحة بالكامل، ولكني كنت أعلم أن ابنتي جُرحت. لقد كانت تحبك بجنون لن تدركه أبدًا. عرفت يومها أنها ذهبت إلى مكان لا رجعة فيه. عقلها، ضحكتها، حتى حركات جسمها وكلماتها، كل ذلك تغير. كل ذلك أنت السبب فيه».

كانت كلماته غاضبة، ولكن شعوره بالعجز يثقله. صمت لبرهة بينما قمت أنا لأحمل رقية من عربتها. كانت قد بدأت في التململ، وبدا أنها على وشك البكاء. وضعتها على ركبتي وبدأت ألاعبها قليلًا وهي تنظر مذهولة للبط السابح أمامنا. بينما كنت أبحث عن شيءٍ أقوله وجدت صوت فريدريك يأتيني وكأنه قادم من أعماق الغابة المظلمة.. بعيد وأسطوري:

«ولكني لم أكن أبًا جيدًا. هذه حقيقة أخرى. لم أحسن تربيتها ولم أكن أفيق من السكر كي أستمع حقًا إلى ما يؤلمها. طوال طفولتها كنت أهرب من البيت المزدحم إلى العمل ثم الحانة، ومن الحانة أعود

مخمورًا لأنام. لم أكن من هؤلاء السكيرين الذين يصرخون ويلعنون طوال الوقت. بل كنت صامتًا، وهادئًا. هادئًا لدرجة أنهم كانوا ينسون وجودي. كان بيتًا مزدحمًا، ولم يكن لي فيه مكان. لم أشعر يومًا بأنهم أبنائي بقدر ما كانوا أبناء أمهم. كان البيت لا يسع أبًا وأمًا وستة أطفال. ربما كانت ماري هي الوحيدة التي تُشفق عليّ، تحاول أن تضحكني وتنخرط معي في الأحاديث طوال الوقت لأنها تعلم أنني في صمتي صرت منسيًا، ولكني أيضًا لم أكن أريد أن أشارك. ظننت أني أقوم بواجبي حين أستيقظ كل يوم للذهاب للعمل والعودة بما يكفي هؤلاء. حين كانت تعود إلى المنزل باكية لم أكن أسألها عما حدث. كنت أعرف بعد ذلك من أولجا أنهم تحرشوا بها وتنمروا بها بسبب وزنها، أو درجاتها في المدرسة، أو لأنها ارتدت فستان أختها الكبرى من العام السابق لأننا لم يكن لدينا ما يكفي لنشتري لها فستانًا جديدًا في حفل التخرج. كنت أشيح بوجهي منفضًا يدي عن كل ذلك. هكذا هم الأطفال، غدًا تكبر وتنسى كل هذا العبث. وكبرت ماري. ودخلت المدرسة الثانوية، ولكنهم تنمروا بها أكثر، وفجأة أصبحت الفتاة الوديعة التائهة التي تبحث عن مكانها وسط إخوتها مصدرًا للمشاكل. تقذف واجهات المحال بالطوب ويقبض عليها وهي مخمورة ولم تتم بعد الرابعة عشرة».

للمرة الثانية تنام رقية متكومة داخل بطني، شددت طرفي معطفي حولها لأدفئها.

«حين كنت أذهب لاصطحابها من قسم الشرطة كنت أنظر للباسها وشعرها على طراز البانك ومكياجها الصارخ ووجهها العبوس الذي يتفادى التواصل بالنظر ولو بالخطأ، وأفكر: أين ذهبت ماري؟ ولكني لم أكن أقول شيئًا. فقط أقول لنفسي: كلنا كنا هكذا، ويومًا ما ستهدأ وتستقر. لم أرد أبدًا أن أعرف عن أصدقائها، الأولاد أو البنات، وكنت أتجنب سماع أي شيء يخص مغامراتها الليلية. لا يهمني أين تبيت أو تسافر طالما أنها تعود لنا آخر الأمر سليمة دون جروح أو خدوش.

اكتفيت بترك مهمة رقابتها لإخوتها الأكبر. ولكن أولادنا لديهم سمة قاتلة هنا، أنهم يفصلون أنفسهم تمامًا عنّا، ما يتقولونه على بعضهم البعض يظل بعيدًا عن الأهل. لذلك لم أعرف السمعة التي اكتسبتها ماري، ابنتي الجميلة التي كانت تضحكني بنكاتها، إلا حين أسلمت وارتدت الحجاب وبدأ الناس يتلمزون عليها. ساقطة الحي مسلمة الآن؟! سمعتها بأذني وكان اليوم الوحيد في حياتي الذي خرجت فيه عن شعوري ولكمت الولد على وجهه. كنت مخمورًا وكان الأوان قد فات. ورميت كل ذلك وراء ظهري، لأني لا أريد أن أسمع أو أعرف. ظللت كما أنا، أذهب لعملي، منتظرًا اقتراب التقاعد والراحة، أقبض الشيك، أذهب للحانة كل مساء لأضع الرهان البائس على مباريات الكرة علها تنتشلنا يومًا مما نحن فيه، وأفصل نفسي عن كل شيء. حتى يوم أن أسلمت، عرفت أن أمرًا ما سيحدث، أمرًا ما لا يريحني، ولكنها يومها، وأنا أصرخ في فورة غضبي النادرة، نظرت لي نظرة كتلك التي نظرتها لي ليلة الحادث، تلك النظرة التي لم أفهم معناها إلا في اليوم التالي: أنت أيضًا تركتني، كانت تقول. أنت أيضًا تخليت عني».

تركته ينتحب في صمت. تحاشيت النظر نحوه حتى لا أحرجه. قمت لأضع رقية في عربتها.

بعض ما قاله كنت أعرفه، وكثيره كان جديدًا أسمعه لأول مرة. ولكن المؤكد أن هذه أطول كلمات سمعتها من فريدريك منذ أن عرفته، وربما أكثرها مكاشفة.

قمنا لنعود أدراجنا. سرنا بخطواتٍ أثقل من تلك التي أتينا بها. نظرت من النافذة طوال طريق عودتنا بينما يقود فريدريك السيارة في صمت.

أردت أن أمنع نفسي عن الكلام، ألا أحطمه أكثر، ولكني، كعادتي، لم أستطع في نهاية الأمر.

«أنا أسامحك يا فريدريك على ما فعلته يوم زفاف جيرترود. حين وضعت الشراب في كأسي؟ أعلم أنك كنت مخمورًا بدورك وتريد أن

تضحك قليلًا. أعلم أني بالنسبة لك لم أكن سوى أضحوكة. وأريد منك أن تعلم جيدًا أن انهيار علاقتي بماري بدأ منذ ذلك اليوم. لقد سامحتني ماري، وقبلت أن نكمل زواجنا، ربما لأنها كانت تحبني عن حق، ربما لأنها كانت ملاكًا، لا أعرف. ولكنها لم تنسَ. وأنا أيضًا لم أنسَ. أنا لا أحملك المسئولية، فقط أخبرك بأنني الآن أسامحك لأنك كنت سببًا. وأحاول بشكلٍ ما أن أجيب عن سؤالك أنت وأولجا، لماذا تركنا بعضنا البعض. لا أصدق أنكم منذ اليوم التالي لهذا الزفاف اللعين تجاهلتم جميعًا ما حدث. كيف ألقيتم باللائمة على الشراب فحسب؟ كيف لم يجلس واحد منكم مع ماري ويخبرها بأن تتركني؟ كيف لم يعنفني أحد؟ لماذا أنتم هكذا دائمًا تفضلون الصمت على المواجهة؟ لماذا تفضلون الهروب؟ هذا منبع مصائبكم كلها. ذلك الاحتواء الداخلي الصامت لكل شيء. ذلك الكبر وذلك العند. ذلك الصمت. أكرهه. أكرهه. ليتها كانت تتكلم. ليت ماري كانت تتكلم. ليتها صرخت في وجهي. ليتها سبتني. ليتها قالت شيئًا. أي شيء. ربما.. ربما.. ولكنه ميراث الصمت اللعين.. أكرهه.. أكرهه وأكرهكم جميعًا».

واصل فريدريك القيادة دون أن يرد. دون أن يقول شيئًا. فقط وجهه يزداد حمرة ببكاء مكتوم.

كلما نظرت إليه تساءلت إن كان سيسامحني حين أرحل عن حق.

***

على مدار الأيام التالية، عكفت على إعادة تركيب تاريخ حياة ماري فريدريك القصيرة، كنت أعرف أشياء من قبل بالطبع، أشياء حكتها لي من نفسها أو ردًا على أسئلتي الفضولية المؤلمة، وهناك أمور أخرى أعرفها الآن من والديها، وإخوتها، ومن كارين، التي سرعان ما أبدت تململها من وجودي على عكس ما توقعت، ومن كل مَن قابلت في رحلتي القصيرة هذه وكانت له بها صلة عبر مختلف مراحل حياتها.

كانت ماري فتاة أوزبية نموذجية لا تختلف عن مثيلاتها كثيرًا. ولدت

في منتصف إخوتها الستة فكان لها نصيب من التيه في البيت المزدحم. أبوها عامل المصنع المرهق كان يقضي جل وقته خارج البيت في عمله المرهق طوال النهار وفي الحانات بالليل، أما أمها فكانت تعمل مصففة شعر في الشارع المجاور، تمتلك دكانها الخاص الذي ترتاده سيدات الحي اللاتي كن كلهن زوجات لرفاق فريدريك، فالكل هنا يعرفون بعضهم البعض، وأولاد الجميع يرتادون ذات المدرسة.

استفادت ماري من الحياة شبه القروية التي وفرتها لها المدينة الصغيرة. على عكسي أنا، إذ كنت ابنًا للمدينة الكبيرة حيث لا مكان للحميمية خارج حدود العائلة. كانت ماري تنتقل على قدميها من مكان لآخر، تتمتع بالدلال الذي يوفره الغربيون المعزولون والمرتاحون للأطفال الصغار. الكل يعرف الكل والكل يراعي أبناء الكل.

ولكن داخل أسوار المدرسة كانت الأمور مختلفة. كانت ماري طفلة وسطى مسالمة وهادئة لا تجيد جذب الانتباه أو التحدث كثيرًا، وكانت طفلة ممتلئة - ربما حتى بدينة بمقاييسهم التي لا ترحم - أضف إلى ذلك صعوبات التعلم التي عانت منها بسبب معاناتها من اضطراب عُسر القراءة، أصبحت ماري الجميلة منذ طفولتها المبكرة مثار تنمر عدد من الأشقياء سواء داخل الفصل أو هؤلاء الأكبر سنًّا.

لم تحكِ ماري لأهلها عن سرقة ملابسها الرياضية في إحدى الحصص، وكيف أنها وجدتها مكومة في الوحل، حتى عندما عنفتها أمها حين عادت بها مبللة ومتسخة من المدرسة، ولم تحكِ عن الرمل الذي كانت تجده داخل كيس سندوتشاتها التي اضطرت لأكلها لأن أمها لم تكن تعطيها مصروفًا للمقصف. لم تحكِ ماري لأحد من إخوتها الأكبر أو والديها عن مذكراتها التي سُرقت من خزانتها وتقطعت أوراقها ووزعت على كل مَن بالمدرسة، لتصبح مثار سخرية الجميع طوال أسبوع كامل. ولم تحكِ حين تكاثروا عليها في الحمام وأغرقوا وجهها في إحدى دورات المياه التي لم تكن قد تم تفريغها من الفضلات. ولم تحكِ لأحد عن عشرات المواقف التي كانت تحدث لها كل يوم، طوال سنوات،

والتي ازدادت عنفًا وتعقيدًا حين وصلت إلى سن البلوغ. الفوط الصحية المقصوصة التي اضطرتها للسير ببقعة دم على ملابسها طوال اليوم المدرسي. لم تحكِ عن شعورها بالعزلة حين كانت الفتيات يتظاهرن بأنها صديقتهن ثم يخبئن عنها أسرارًا كثيرة. حين كانت تعلم أنهن خرجن لملاقاة الفتيان في دور السينما، أو للتنزه، أو حتى ارتياد النوادي الليلية الصاخبة وهي تظن أنهن في المنزل يذاكرن دروسهن.

أدى كل ذلك إلى أن تمتنع ماري عن المذاكرة، والأكل، وارتياد الألعاب الرياضية الجماعية. والاكتفاء بالرياضة الوحيدة التي وجدت فيها السلام: السباحة. كان مدربها مشجعًا ومحتضنًا لها، متفهمًا لكل ما تلاقيه، وكان الماء صديقها الوحيد. كانت ماري كما حكت لي تسبح كل يوم، سبعة أيام في الأسبوع، في الفجر قبل الدراسة بساعة ثم بعدها بساعتين في مسبح المدرسة المغطى. في الصيف كان البحر ملاذها. السباحة والمذاكرة والمشي والموسيقى والكتب، كان هذا قوام حياة ماري طوال فترة طفولتها وحتى بعد سن الثانية عشرة بوقت بسيط.

أدت هذه العزلة وما حوطها من كآبة إلى أن تفقد ماري الكثير من وزنها. وحين وصلت إلى سن البلوغ حدث أمران: أصبحت جذابة في أعين الشبان الصغار وجوعهم الشبق مع تفتح أجسادهم، وازدادت انطواءً وعزلة وأصبحت أكثر جذبًا للتنمر عن ذي قبل.

حكت لي ماري أن قُبلتها الأولى كانت في التاسعة. أما تجربتها الجنسية الكاملة فكانت وهي بعد لم تبلغ الثالثة عشرة. كان ذلك مع ولد مهذب اسمه مايكل. كان مايكل واحدًا من المجموعة التي تسمي نفسها عصابة الستة. أربعة أولاد وفتاتان يسيرون معًا في كل مكان، يشكلون قوة وحماية لبعضهم البعض، ويتمتعون بالغطرسة والعنفوان وقلة التربية التي أتاحت لهم فعل كل ما يريدونه. كانت هي في عزلتها تتجنبهم قدر الإمكان، فقد كانوا في أغلب هذه المواقف مصدر الشرور التي أصابتها، حتى وإن لم يكن بشكل مباشر. ولكن مايكل كان أظرفهم، مع الوقت بدأ يتقرب لها ويمنع أذاهم عنها. يخبرها كم هي

جميلة وكم يشعر بالندم أنه شارك معهم في أذيتها من قبل. كان يتغزل بها طوال الوقت ويرسل لها أشعارًا ويقابلها في المكتبة.. مكانها المفضل بالمدرسة. شعرت وهي مترددة بالود نحوه. كانت تعلم أنه ينتمي للأشرار ولكنها كانت تقنع نفسها بأنه مختلف عنهم. كما أنه كان وسيمًا للغاية. حاولت أن تقاومه ولكن كيف يمكن لفتاة يافعة بقلب غر كقلبها أن تصمد أمام حلو الكلام؟ قبّلها مرة ثم مرات بعدها، حتى خاضا معًا التجربة كاملة. يومها أحبته بكل ما يمكن لفتاة ساذجة لا تعرف شيئًا عن الحياة أن تحب.

في اليوم التالي لنومهما معًا كانت ماري تسير فوق السحاب متألمة من جرح الأمس، ولكنها كانت سعيدة، وشعرت بالسلام كما لم تشعر من قبل. وكان أكثر ما منحها ذلك السلام أنها وجدت مَن يفهمها، يشعر بها، ويقبلها، وشعرت بفخر طفولي أن ذلك القبول أتى عن استحقاق وليس عن أي تنازل، لقد منحت نفسها لمَن أحبت وأحبها عن حق.

دلفت إلى المكتبة لحضور حصة القراءة، وبحثت عن مايكل بعينيها في كل مكان. لم تجده. لم تلحظ شيئًا في البداية ولكن رويدًا رويدًا بدأ الغمز واللمز يتزايد حولها رغم تكرار الأستاذ لأوامره الصارمة للجميع بالهدوء.

حكى مايكل للجميع عن كل ما حدث بالتفصيل. ليس هذا فحسب، بل وأراهم جميعًا.

أصبحت ماري أولى زميلاتها بالفصل التي تفقد عذريتها.. وبات ذلك خبرًا معروفًا للجميع.

مادت الدنيا بها ولم تستوعب ما حدث. حين توقف عن الرد على مكالماتها بات الكابوس واقعًا. كان كل ذلك جزءًا من مزحتهم الكبرى على ماري. رهان ربحه مايكل أمام أخيه، العضو الثاني بعصابة الستة. حاولت أن تكلمه حين رأته في المدرسة بعدها ولكنهم كانوا دائمًا حوله، الأشرار الذين أحالوا حياتها جحيمًا. استطاعت ماري الوصول

إليه أخيرًا وانهارت أمامه في البكاء وصرخت بكل ما في قلبها بينما الكل يتفرج في فسحة الغداء.

وكانت تلك الليلة هي أول مرة تحاول فيها ماري قتل نفسها.

لم تكمل ماري محاولتها الأولى لأنها خافت. ولكنها اكتشفت متعة جديدة لم تكن تعرفها من قبل: الألم. حين أصابت ماري رسغها بالجرح ورأت الدم يتفصد منه شعرت براحةٍ ما لم تفهمها. كانت هذه الراحة هي الملاذ كلما آلموها بعد ذلك. في كل مرة سمعت لقب «عاهرة المدرسة» يهمس بين الضحكات من حولها كانت ماري تقطع مساحة جديدة، مساحة ضئيلة من الجلد واللحم ولكن ضخمة من روحها، لتتيه في غياهب التشتت والنسيان. تطور الأمر وترسب الألم داخل نفسها حتى أصبح هذا سلاحها لمواجهة أي ضغوط تقابلها في حياتها: توتر الامتحانات، فقدان شخص عزيز، أو كلمة جارحة تسمعها دون أن تتمكن من الرد.

كم أرادت أن تحكي لأمها المتعبة طوال الوقت، أو لأبيها الغائب طوال الوقت. كم أرادت أن تحكي لأي من إخوتها الذين كانوا دائمًا منشغلين في شئونهم وعوالمهم. حتى السباحة توقفت عنها حين انتقل المدرس الذي وجدت لديه الأمان إلى مدرسةٍ أخرى.

***

أمام لوحة «جوديث تذبح هولوفرنيس» لكارافاجيو جلست. أتأملها وأتذكر ما كانت تقوله ماري حين رأيناها معًا لأول مرة. «إنها دموية، ولكن منظر الدماء مضحك. غير حقيقي بالمرة»، قالت بتهكم. قلبت نظري ما بينها وبين اللوحة باستياء. لأول مرة ألاحظ الآن أن ماري تشبه جوديث إلى حد بعيد. وجهها على الأخص يكاد يحمل ذات الاستياء.

أمسكت بالمغناطيس في جيبي، الذي اشتريناه يومها من محل

التذكارات بالمتحف لنفس اللوحة، وذكرت نفسي أن أتركه حين أقوم.

أتيت قبل موعدي معه بساعة كي أرتب أفكاري قليلًا بينما أطالع اللوحة.

«حسنًا.. إن تعبير التقزز على وجهها يبدو بالنسبة لي حقيقيًا للغاية. بغض النظر عن الدماء ولكنها دراميّة اللحظة هي ما تجعل هذه اللوحة عظيمة. وجه الفتاة الذي يجمع ما بين الاشمئزاز والانتصار، عضلاتها النافرة التي تشد تكويرة يدها الناعمة فوق مقبض السيف في عزم لا يلين، بينما يدها الأخرى تمسك به من شعره. وانظري كيف تقف خادمتها العجوز في يمين اللوحة، تنظر بتلصص مراقبة المشهد الدموي، ورغم أن زاوية وقفتها لا تتيح لنا سوى جانب واحد فقط من وجهها إلا أن هذا لم يمنعه من أن ينقل لنا انعكاس بشاعة اللحظة على نظرتها الجاحظة، ويدها المرفوعة في وضع الاستعداد بالحقيبة التي ستحوي بعد قليل رأس الطاغية الأشوري.. إنها الدراما، عنفوان الدراما، مذهل...»

ظلت تطالعني بينما أنا مسترسل. لم تكن على وجهها ابتسامة لعوب كما اعتادت من قبل. فقط عينان خاليتان من أي شيء. لم يمنعني هذا من استكمال حديثي.

«ستتجسد عبقرية كارافاجيو بحذافيرها بعد مائة عام في سطوع برنيني: القدرة على إعادة ابتكار فن ما وتغيير قواعده بثورية كبيرة منذ سن صغيرة، عيش حياة ماجنة تنتهي بمأساة، ثم الندم القاتل الذي يأكل الروح وتخرج بفضله أعظم الأعمال التي لا نزال ندرسها حتى اليوم. كلاهما لديه نفس القدرة ونفس الحدس: البحث عن اللحظة الدرامية، عن الحركة، عن المشاعر وما يدور في خلد الشخصيات. الأمر ليس دينيًا محضًا كما كان معتادًا، كلاهما عرف أن الحضيض البشري ربما يكون أكثر ثراءً بكثير. إن التوازي بين شخصيتيهما وحياتيهما يستحق الدراسة. أود لو أكتب يومًا كتابًا عن هذا الأمر».

دخل عليّ الولد المتلعثم بنظارته الكبيرة وشعره الأحمر المفلفل. كان يرتدي معطف بدلةٍ من القطيفة الخضراء الداكنة وبنطلونًا بنيًا؛ وتحته قميص مجعد بمربعات باللون السكري والسماوي الباهت. ظل يدور حوله في المكان.

بعدما رأيته في بيت آهل ماري يوم الجنازة عزمت على التحدث إليه. أتتني كارين برقمه. اتصلت به طالبًا تحديد موعد. فضلت أن أقابله بعيدًا عن منزله وفي المتحف كي أكسب مزيدًا من الوقت.

سلمت عليه وأجلسته بجانبي. عدت أطالع اللوحة وأنا أتذكر يوم أن آذيت ماري لأول مرة في نفس المكان. فوق ذات المقعد الذي نجلس عليه كلانا الآن. اعتصرت ذراعها وأنا أجز على أسناني محاولًا أخذ اعتراف منها بكل ما أوتيت من قوة. بكت بحرقة رهيبة ولكنها بمعجزة ما استطاعت أن تخفي ذلك عن عين حارسة المتحف التي كانت تقطع الطريق ذهابًا وإيابًا، وتنظر نحونا بين فترة وأخرى.

- هل تعرف هذه اللوحة؟ قلت له دون أن أرفع نظري عنها.

- لا. ولكني أتيت إلى هنا في رحلةٍ مع المدرسة حين كنت صغيرًا. لم آتِ من يومها.

- هل كانت تلك ذات الرحلة التي أتتها ماري؟

- أعتقد ذلك. كنا وقتها في ذات المدرسة.

في الهاتف كنت قد أخبرته مَن أنا وسبب زيارتي إلى هنا. بدا مترددًا لكنه وافق. يبدو عليه التوتر الشديد. يتعرق كثيرًا ويتنفس بصعوبة. رثيت لحاله. فجأة أصابتني عدوى ارتباكه ولم أعرف كيف أبدأ.

- هذه لفنان إيطالي رسمها في أواخر القرن السادس عشر، وتصور المشهد الأخير من قصة توراتية عن فتاة جميلة اسمها جوديث قررت أن تدافع عن شعبها المسكين الذي هاجمه ملك آشوري جبار. فأوهمته أنها ستسلمه نفسها، فانفردت به وصارت في خيمته، وبعد أن طرد

حراسه وتجرد من ملابسه معميًا بنيران الرغبة، استلّت سيفه وقطعت رأسه. هذه القصة الشعبية تحولت إلى أيقونة من أيقونات المقاومة الشعبية للطغاة، وبات تقليدًا معروفًا لرسامي هذا العصر أن يرسموا هذا المشهد مرارًا وتكرارًا.

أومأ آلان برأسه دون أن يقول شيئًا. بدا أنه قد بدأ في الهدوء قليلًا.

- أشكر لك حضورك. أخبرتني كارين أنك تعمل في بنك أو شيء من هذا القبيل.

- نعم في شركة أوراق مالية.

- هذا غريب. في بلدتكم الصغيرة تلك؟

- معظم عملائنا في العاصمة بالطبع.

هززت رأسي دون رد. الآن أنظر نحوه بين الحين والآخر. يبدو شديد الطيبة وحتى السذاجة. مسحة كآبة تظلله رغم ذلك. أحاول أن أتذكر في أي لوحةٍ رأيت شبيهه من قبل؟ وسط صمته غير المرتاح وكلامه المقتضب لاحظت لأول مرة ذراعه المربوطة تحت كم المعطف.

- كيف حال ذراعك الآن؟

- إنها أفضل. أشكرك. أخبرتني كارين أنك تحمل بعض الأسئلة عن.. عن.. ماري، والحادث.

- هل كنت هناك؟

- نعم.

- احكِ لي أكثر.

- ماذا تريد أن تعرف بالتحديد؟ الأمر كله مشوش بالنسبة لي. كان الوقت قد قارب منتصف الليل. غطت الثلوج كل البلدة وكنا نتحرك بصعوبة شديدة. كنت من ضمن الجوقة التي ستغني القداس عند

منتصف الليل.

- ماذا كنتم ستغنون؟

ينظر لي باستفهام كأنه يريد أن يقول: حقًا؟

- أتحسبني لن أعرف اسم المقطوعة؟ قلت له.

ولأول مرة لاحظت أن هذا الشاب الذي كنت متأكدًا أنه تعرض للتنمر والإقصاء طوال حياته، وجد بين ثنايا شخصيته الضعيفة المهزوزة القدرة - ولو بشكل لا شعوري - على أن يتعالى عليّ، فقط لأنه يعلم من أين أتيت.

- لا لا ليس هذا ما قصدته. اسمها «الرحمة يا مولاي» لأليجري.

لم أعرفها.

- هل رأيت ماري ليلتها؟

- نعم.

- هل تحدثتما؟ خذني في جولةٍ لتلك الليلة. هذا يهمني للغاية.

توقف قليلًا بينما يتذكر. طالع اللوحة في شرود.

- وصلت متأخرًا بعض الشيء. كنت أصطحب والدتي وجدتي. تركتهما عند المدخل حين قابلت أصدقاء العمل. كان بعض أصدقاء المدرسة موجودين. وزملاء كثر لم تعد تربطني بهم علاقة. هناك فوجئت بماري. عرفتها على الفور من ردائها المميز. كانت تقف مع كارين وعماتها. كان يبدو عليها الخجل لأنها كانت على الأغلب تدرك أن معظم الأنظار تتجه نحوها. ترددت أصداء الأحاديث الجانبية الكثيرة في المكان. كانت توجد مجموعة ماري القديمة، بعضهم أتى وحده وبعضهم مصطحبًا عائلته. أعتقد أن اثنين أو ثلاثة منهم ذهبوا للسلام عليها والحديث معها. كان هناك بعض من التوتر. أردت أن أذهب للسلام عليها، ولكني شعرت بخجل شديد منعني من ذلك. لم أكن موقنًا من رد فعلها. ما قيل

لي عنها كان أنها متشددة للغاية، تكره البلدة وتحاول محو الماضي بكل مَن فيه، ولذلك فهي تلفظ وجودنا. تعجبت من أنها أتت للقداس وحرصت على حضوره بالأساس. كان نفورها قد وصل إلينا تدريجيًا منذ أن تزوجتك، وقدر الجميع انعزالها وتغيرها. لا أظن أن أيًا منا كانت لديه مشكلة مع ذلك. أتحدث عن نفسي على الأقل. ولكن ليلتها بدت مختلفة تمامًا، توزع الابتسامات وتتحدث مع الجميع بأريحية تامة. كانت معظم الوقت بصحبة صديقاتها وأقاربها، الكبار منهم والشباب، ولم تترك دائرة عائلتها حسبما رأيت. لحظة أن حسمت قراري بالتحدث إليها ناداني أحد أفراد الجوقة أن أستعد. تركت الجمع وعدت إلى الداخل.

أخرج منديلًا وعطس فيه. لم أنظر نحوه وظللت أراقب بقع الدماء المتطايرة من رقبة الطاغية.

- كنا نستعد ونرتدي أرديتنا في الغرفة الخلفية للكاتدرائية بينما كان القسيس يلقي خطبته في الخارج. كانت فقرتنا ستبدأ فور أن ينتهي. فجأة ارتجت الأرض باندفاع شديد. كل ما أذكره هو أن جسدي طار وارتطم بالدولاب. جاءت الصدمة في ذراعي. سقطت على الأرض. لم أفقد الوعي ولكني كنت مصابًا بدوار شديد. رأيت ركام الحجارة والتراب في كل مكان. أحدث الانفجار فتحة في الجدار حيث كانت النوافذ.. حين سقطت كلها اجتاحتنا برودة شنيعة... سكت فجأة. نظرت نحوه وكانت عيناه تدمعان.

- قمت متحاملًا وخرجت من الباب الخلفي إلى بهو الكنيسة. هناك رأيت أبشع منظر شاهدته في حياتي. أردت أن أصرخ ولكن صوتي لم يخرج.. كما في الكوابيس. أتعلم؟ كان مشهدًا وكأنه في أحد الأفلام. الجثث متناثرة في كل مكان. رائحة الدماء نفاذة بشكل دفعني للتقيؤ في أحد الأركان. بعدها واصلت السير وسط المذعورين أبحث عن أمي وجدتي. كانت أذني تصفر بشدة فلم أسمع بوضوح الصراخ والعويل الذي كان يخرج من الرجال والنساء. كانت الإضاءة خافتة أيضًا من

جراء انفجار الكثير من المصابيح. وسط الظلام رأيت أطفالًا يصرخون. أطفالًا كثيرين. لا أعرف كم من الوقت مر حتى وجدت جدتي تحت كومةٍ من التراب والحجارة. كانت مكفية على وجهها ولكني ميزت رداءها الأبيض الزاهي. عرفت على الفور أنها ماتت. أمي كانت تحت المقعد المقابل لذلك الذي كانت تجلس عليه. قوة الانفجار رمت بها إلى الأمام. في جنبها كان وتد خشبي من أحد المقاعد. ركعت بجانبها وكانت لا تزال تتأوه. أحدهم داس على قدمي وأنا أحاول أن أوقف النزيف. بدأ التشويش يرتفع عن أذني بعض الشيء بينما أنا أصرخ في وجهها. لم ترد أو تفتح عينيها. ولكنها ظلت تتأوه وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا. أخذت دماغها النازف في حجري واحتضنتها دون أن أعرف ماذا أفعل. ربما كنا مائة شخص أو أكثر في القاعة. الكل كان يركض في كل مكان. كثيرون مثلي كانوا يحتضنون ذويهم أو أبناءهم ويصرخون في رعب. آخرون كانوا يحملون أمارات الذهول على وجوههم. نظراتهم الزائغة وهم يزحفون إلى اللا مكان لا تزال تطارد نومي حتى الآن.

ظللت صامتًا دون أن أتمكن من قول أي شيء. كان وصفه للحدث آنيًا وحقيقيًا للدرجة التي جعلتني أتخيله وأراه تمامًا. بصعوبة فتح زجاجة المياه الصغيرة التي ثبتها في أصابع يده المجبسة وأخذ منها رشفة ببطءٍ شديد. كانت ترتعش.

- حين وصل المسعفون وحملوني بعيدًا عنها انتبهت لأول مرة إلى أن هناك عظمة ناتئة من ذراعي. داهمني الألم مرة واحدة وفقدت وعيي.

سألته إن كانت أمه قد نجت.

- إنها في غيبوبة حتى الآن. لا نعرف احتمالات نجاتها بعد. فقدت الكثير من الدماء.

بدا استعلامي عن أي شيءٍ يخص هواجسي تعديًا لا إنسانيًا. شعرت

بالحرج الحقيقي لأول مرة منذ قدومي إلى هنا. كيف يمكنني أن أسأله عمَّن فعلت كل هذا؟

- ورغم ذلك أتيت لتعزي فريدريك وأولجا؟

- لن أقول إني أعذرها، لن أقول إني أسامحها، ولكني شعرت بواجب تجاه فريدريك وأولجا وشعرت أني يجب أن أكون موجودًا. لقد كانا مقربين للغاية من أهلي. ربينا كلنا سويًا. لا ذنب لهما على ما أظن.

- متى عرفت أنها كانت ماري؟

- في اليوم التالي. لم أصدق في البداية.

- أنت تعرفها منذ زمن طويل أليس كذلك؟ حكت لي أنكما كنتما أصدقاء منذ السابعة أو شيء من هذا القبيل.

- هذا صحيح. كنا نسير معًا إلى المدرسة. أنا وهي وكارين. ومع الوقت صرنا أصدقاء مقربين ربما حتى السادسة عشرة.

- سنوات الجموح عند ماري.

نظر لي بارتباك.

- أنت تعرف؟

- ليس بالتفصيل. كانت زوجتي لخمس سنوات فلا تستغرب أنها قد حكت لي الكثير. ولكن أنا هنا الآن لأحاول الإجابة عن تلك الأسئلة التي تراودنا جميعًا.

- لماذا فعلت ما فعلته؟ لماذا هنا بالذات؟

- بالضبط. لا بد وأنك فكرت بالأمر.

- حتى الآن لم أتوصل لإجابة. الحقيقة أني لم أتحدث إلى ماري منذ سنوات. ربما منذ زواجكما. منذ إسلامها على وجه التحديد. لا أعلم ما الذي ألم بها وغيرها بهذا الشكل. ربما تكون الأفكار الراديكالية التي

اعتنقتها كما يقولون في الأخبار. أعتقد أن هذه هي الإجابة الوحيدة المقنعة. كلنا نتغير مع الزمن. ولن تكون هي أول مَن غيَّر أفكاره.

- ولكنك كنت تعرفها منذ زمن بعيد. تعرفها كما عرفتها أنا وربما أكثر. عرفتها كطفلة وكشابة صغيرة. تعرف كم كانت تتعاطف مع الناس وكم كانت مرحة وشقية. حتى إن مرت بفترات اضطراب ككل الفتيات فإنها كانت في الأصل إنسانة طيبة وودود. كيف يمكن أن تعتنق مثل هذه الأفكار في رأيك؟

تبسيطي المخل لشخصية ماري متعمد. أريده هو أن يقول لي ما أردت سماعه. عرفت أني كسبته لحظة أن ابتسم لنفسه وتناول رشفة أخرى من زجاجته.

- كانت ماري تعشق المقالب. لم تكن شريرة أبدًا. ولكنها كانت تعشق الضحك. حتى حين كانوا يتنمرون عليَّ وأنا صغير بسبب نظارتي وشعري الأحمر كانت تدافع عني بقوة. كان لها هي النصيب الأكبر من التنمر. كان وزنها زائدًا عن بقية أقراننا. كانوا يعايرونها بفقر والديها وبمشكلة التعرق التي كانت تواجهها. كما كانت مثار ضحك الكثيرين في الفصل بسبب صعوبات القراءة. ولكن ماري كانت تواجه كل ذلك بالضحك. كلما حدثت حادثة استيقظت في اليوم التالي وكأنها لم تحدث. كان ذلك يخيفني في بعض الأحيان. لم تكن تعبر عن أي شيء يضايقها. ورويدًا رويدًا حين كبرنا قليلًا بدأت غيمة من الظلام تحوطها، أو ربما هذا الغطاء الشفاف من الإيجابية كان قد بدأ يخبو. لا أدري.

- هل كنت تلاحظ الجروح التي في ذراعها؟

- كانت ترتدي الأكمام الطويلة طوال الوقت. لم ترتدِ زيًا بكم قصير أبدًا في ذلك الوقت. ولكن في إحدى المرات ذهبنا للسباحة في البحيرة وقت الصيف، ورأيت الجروح على جسمها، ولكنها لم تُرد أن تتكلم.

- كان ذلك حين فقدت عذريتها مع مايكل؟

- نعم. صُدمت كثيرًا حين عرفت بهذا الأمر. لم نكن قد أتممنا الثالثة عشرة بعد. لم أصدق أنها فعلت ما فعلته بعدها. ولكني فهمت أنها أرادت منهم أن يقبلوها. أعني زملاءنا في الفصل، أو عصابة الستة كما كنا نسميهم.

بدأ قلبي يدق بشدة. هؤلاء الستة الذين لم تُفصح لي عن أسمائهم أبدًا. فقط مايكل الذي أخبرتني عنه حين ألححت عليها أن تحكي لي شيئًا عن طفولتها. كنت أعرف أنهم هم مَن أخذوا بها إلى ناحية الشيطان لسنوات. ولكنها لم تخبرني مَن هم تحديدًا؛ لذلك كنت أشك في أي رجال تجمعنا بهم مناسبة في بلدتها. يوم زفاف أختها. مصادفة في الشارع. عيد ميلاد جدتها. نادل في مطعم يتعرف عليها ويحييها. كنت أسألها بعد كل لقاء عفوي بأي شخص إن كانت قد نامت معه أم لا. كنت أبحث عنهم في كل مكان. كان جحيمًا.

- هل تستطيع أن تخبرني مَن هم؟

يبدو أن تعطشي للإجابة بثَّ توترًا فضحته ارتعاشة صوتي. تراجع بجذعه وهو ينظر لي بتوجس:

- لِمَ؟

لم أصدق المزحة التي يمارسها الزمن عليَّ. في نفس هذا المكان. منذ ثماني سنوات. على نفس المقعد وأمام نفس اللوحة. كنت أسأل ماري نفس السؤال. بنفس التوتر ونفس الجنون. وكانت ترد بنفس التوجس ثم ينزل على وجهها ستار من الظلام فتتركني بلا إجابة وأنا أكاد أبكي من الغيظ.

- ليس لسبب معين. أعتقد أنني قد أجد عندهم إجابات.

ظلت نظرته المتوجسة تستفزني. أخرجت المغناطيس من جيبي

وألصقته بأسفل المقعد.

- إن كانت قد حكت لك عن كل شيء. فلماذا لم تخبرك بأسمائهم؟ سأل بتردد.

- بحق الله! ما بك؟ هل تظن أني هنا في مهمة لقتلهم؟ بعد كل هذا الموت والدمار الذي أحدثته؟

سكت ناظرًا أمامه لوقت طويل. كنت أتنفس بصعوبة. مر علينا حارس وهو ينظر نحونا. كنت قد نطقت بكلماتي وأنا أجز على أسناني كما فعلت منذ سنوات بعيدة. عدت أنظر للوحة وأنا أحاول السيطرة على نفسي. كم أحتاج لكأس الآن.

- لا داعي لأن تقتل أيًا منهم. لقد قامت ماري بهذا بالفعل. مات ثلاثة من الشباب في الانفجار. الرابع فقط هو مَن لم يحضر وكُتبت له النجاة.

أغمضت عيني محاولًا ابتلاع ما يقوله:

- والفتاتان؟

- صوفيا سافرت منذ زمن إلى أستراليا ولا نعرف عنها شيئًا.

قال بشرودٍ ثم سكت. نظرت نحوه بنفاد صبر..

- أنت لا تعرف شيئًا أليس كذلك؟ كيف لم تخبرك ماري بذلك من قبل؟ الأخرى كانت كارين.

***

حين خرجت من المتحف بعد لقائي بآلان كان رأسي يدور. وجدت أمطار يناير تُغرق الشوارع بصمتها الكئيب. أشرت لأول سيارة أجرة قابلتني لأعود إلى النزل وأشرع في الكتابة بسرعة، فحين فتحت الهاتف كانت قد وصلتني عشر رسائل من رئيس التحرير. في إحداها أخبرني بأن مقالتي الأولى أخذت العالم بعاصفة، وأن عدد الانطباعات والتفاعلات معها على السوشيال ميديا كان لا نهائيًا - يوم أن قررت

الانتحار أغلقت كافة حساباتي مفضلًا أن أقضي سنتي الأخيرة بدون أي تشتيت على الإنترنت بكذبه وادعاءاته الحقيرة التي كانت في جزءٍ منها سببًا في قراري - وكرر في رسائله السؤال عن متى أرسل بالمزيد.

بعد أن حكى لي آلان المزيد من التفاصيل التي كانت تنقصني عن سنوات شباب ماري زاد تأكدي من صحة استنتاجي الأولي: أيًا كان ما فعلته ماري فإن جذوره تضرب أعمق بكثير من مجرد زوج ملأ رأسها بأفكار راديكالية - كما سماها - أعجبني لفظ راديكالي حين سمعته منه، بدا أكثر معاصرة وتعاليًا من لفظة التطرف، قررت أن أستخدم ذلك المصطلح كثيرًا في مقالي القادم.

لقد كرهت ماري المكان الذي أتت منه لأنها تأذت. ووجدت في الإسلام ملاذًا من هذا الماضي الذي حاولت أن تنساه طوال حياتها. إلى هنا والأمر مفهوم. ولكن متى حدثت نقطة التحول تلك التي منها قررت ماري أن كرهها لمجتمعها، وماضيها وحضارتها يستحق منها أن تموت وتترك طفلتها الرضيعة. بل وأن تأخذ معها خمسين روحًا أخرى، وتصِم أهلها بعارٍ لن ينمحي، وتترك سحابة فوق بلدتها ستظل تغطيها إلى أبد الدهر.

متى حدث هذا التحول داخل مخها؟

هل كنت أنا؟

يرتعد جسدي.. لكن ماري كانت شخصية متطرفة ومضطربة بطبيعة الحال، يشهد بذلك التغير المفاجئ الذي باغتها في أواخر الصبا.

بعد شهور من حادثة المكتبة، وفي يوم مختلف عن بقية الأيام، دون أن يدري أحد لِمَ وكيف ومتى، تبدلت ماري تبدلًا تامًا. استيقظ الجميع يومًا في البيت والمدرسة ليجدوها كائنًا غير الذي عرفوه فجأة. قصت شعرها بالكامل، صبغت فروة رأسها بلون وردي فاقع، ارتدت تنورة قصيرة بشكل فاضح، وقميص أقصر مفتوح الأزرار، غطت أذنها وأنفها وسرتها حلي فضية ذات حروف مدببة. حول عينيها رسمت أشكالًا

عنيفة، وأظافرها الطفولية المقصوصة كانت شديدة الطول ومطلية باللون الأسود اللامع.

يومها استدعيت ماري إلى مكتب مديرة المدرسة بعد أن أشعلت سيجارة داخل الفصل. وحين حذرتها المديرة من أنها سترسلها إلى المنزل بإنذار لوالديها، لم يكن منها إلا أن ردت بإبراز إصبعها الوسطى في وجه العجوز المذهولة بينما تُسمعها الكلمة النابية الأخطر في قاموس الشباب الصغير.

عادت ماري إلى المدرسة بعد أسبوع وتم الاحتفاء بها من الجميع كأجرأ الفتيات وأكثرهن صلابة. بات لها أصدقاء وصديقات وحتى أفراد عصابة الستة لم يمانعوا في اقترابها منهم، وما هي إلا أيام حتى صارت واحدة منهم، وتحول اسم المجموعة رويدًا إلى عصابة السبعة.

كانت ماري تعلم بذكائها ووفقًا لخطتها التي وضعتها لتحقيق مكانتها وسط مجتمعها الصغير أن الصخب والجرأة لا يمكن أن يقفا عند هذا الحد، وأن احتضانهم لها مرهون بعدم شعورهم بالملل تجاهها، وأنها يجب أن تُعلي السقف في كل مرةٍ وكل شيءٍ حتى تظل محط الأنظار والاحتفاء طوال الوقت، وإلا سيذبل اهتمامهم بها في غضون أسابيع. إن لم يكن العالم يريد أن يسمع ويعترف بوجودها فإنها ستُسمعه وتُعلمه ولو بالقوة، ومهما كان الثمن.

عرفت ماري المخدرات والخمور. شاركت في تحطيم واجهات المحلات وإشعال الحرائق الصغيرة، والخروج إلى الاحتفالات الماجنة التي تنتهي بتحطيم النوادي الليلية. عرفت ماري كيف توقع بالمدرسين المملين في مقالب مميتة. عرفت السفر إلى المدن الساحلية والألعاب الجنسية الجماعية التي كانت تجري بعيدًا عن أعين الآباء والمشرفين. بانقضاء عامها الأول تُحكى عنها الأساطير. مغامرات جنسية لا تُحصى مع فتيان وفتيات، وباتت مصدر فقدان الكثيرين لعذريتهم.

بات لقبها الإنجليزي المعروف هو «ماد ماري» على غرار أفلام «ماد

ماكس» التي اشتهرت وقتها. كانت «ماد ماري» لا تعرف سقفًا ولا حدودًا. وكانوا يتحدونها طوال الوقت ليختبروا شجاعتها وإقدامها، فكانت تبهرهم بما يمكنها القيام به.

ولكن وسط كل ذلك لم يتغير سر واحد في حياة ماري: ظل المشرط صديقًا لها لا تفارق ندوبه ذراعها وفخذها كل ليلة قبل النوم.

***

حين وصلت إلى النزل العتيق وذهبت للبار لأستلم مفتاح الغرفة، أشار لي الساقي:

- هناك سيدة تنتظرك منذ بعض الوقت.

استدرت خلفي ورأيتها. عرفتها على الفور.

كانت المحققة التي أجرت معي تحقيقًا بالمطار. طلبت مشروبًا وخطوت نحوها في تساؤل. سلمت عليَّ بحزم.

قبل أن أمنحها نظرة عدائية وأطلب منها توضيحًا رسميًا لسبب هذا اللقاء ابتسمت بلطف.

- هذه جلسة ودية بكل المقاييس. ليس هناك أي شيءٍ رسمي بشأنها. إن كان لديك مانع سأغادر.

جلسنا إلى نفس الطاولة التي قابلت بها كارين يوم وصولي إلى هنا. كارين اللعينة. لديَّ مئات الأسئلة لها.

ما إن جلست واحتسيت أول رشفةٍ من الكونياك حتى بدأ الدفء يسري في جسدي. آلمتني عظامي المتكسرة ولكني كنت سعيدًا بتلذذ الدفء يتصاعد بداخلي. كنت على أتم الاستعداد لسماعها وقد اطمأننت إلى أني لن أحتاج إلى العودة للبرودة القاسية بالخارج. السرير يبعد عني أمتارًا الآن. الفكرة في حد ذاتها زادتني استرخاءً.

- لا أدري إن كنت لا تزال تذكرني. ولكني محققة فيدرالية من وحدة

مكافحة الإرهاب. لم أكن من أمن المطار كما قد تظن. وبالطبع منذ وصولك كنت على قائمة مراقبتنا. على الناحية الأخرى وصلتنا تقارير حولك من دولتك، وكلها مطمئنة. كذلك فإن مقالك الأول المنشور بالجريدة العربية قد تمت ترجمته ونشره بمختلف المواقع، ولا أخفيك سرًا أني قد تأثرت به. كونك زوجها الأول لا بد وأنه ألقى بك إلى هذه المسرحية العبثية رغمًا عنك.

أومأت لها برأسي.

- دعينا ندخل مباشرة إلى الموضوع. ما هي أسئلتكِ لي؟

- حتى الآن لا يوجد شيء صريح يمكننا أن نفعله حيال ما حدث. لقد ساعدنا الإيطاليون والسويسريون كثيرًا بقبضهم على زوج الانتحارية.. عفوًا.. ماري.. وهو يحاول الهرب عبر جبال الألب. طبعًا دخول ماري البلاد أمر واضح وكان منطقيًا باعتبارها مواطنة. ما نحاول البحث عنه الآن هو كيفية حصولها على القنبلة. من المستحيل أن تكون حملتها معها، والأغلب هو أنها قد صُنعت هنا. ذووها يقولون إن ماري لم تتركهم أبدًا منذ وصلت حتى لحظة الانفجار. ولذلك فإما أن القنبلة قد تم تسليمها لها حتى باب المنزل، أو أنها قد قابلت أحدهم خارج المطار وجرى التسليم هناك قبل أن يُقلها والداها. المحصلة هي أنه توجد خلية هنا، سواء في البلاد أو في هذه القرية الحزينة، وهذا ما نحاول أن نعرفه.

- هل سيتم إرسال زوجها إلى هنا؟

- في الأغلب نعم. الإيطاليون بالطبع يستجوبونه الآن ليعرفوا كل ما يمكنهم معرفته عن سنوات نشاطه وأي عمليات مستقبلية يمكن أن يكون قد شارك في تخطيطها. حين يأتي إلينا سنستخلص منه ما يخصنا. في النهاية كل شيء وارد. قد يظهر أنه مجرد ترس صغير لا يعرف شيئًا. وقد يكون لاعبًا مهمًا. الحقيقة أن اسمه لا يظهر أي شيء أكثر من كونه دارسًا للدكتوراه بميلانو، وقبلها كان يدرس ماجستير

الهندسة هنا.

- حتى الآن لم أسمع منك سؤالًا.

- إلى متى تنوي الاستمرار هنا؟

- لا أدري. ربما حين أصل إلى إجابات ترضيني. أنا لا أعلم بالضبط ما أبحث عنه هنا. إن كنتم قد تأكدتم من سلامة نيتي، ما الذي يقلقكم في وجودي؟

- إجراء احترازي لا أكثر. لا بد وأنك تشاهد استعدادات البلدة لجنازة الضحايا. سيأتي رئيس الجمهورية وعدد كبير من رؤساء الدول لحضور الجنازة. ما هي إلا أيام وستتحول البلدة إلى ثكنة عسكرية من رجال أمن ومخابرات مختلف دول العالم. سيضع هذا علينا ضغطًا كبيرًا، والحقيقة أن أي مصدر قلق مهما كان صغيرًا قد يكون شيئًا غير مرغوب به الآن.

- تريديني خارج البلدة وقت الجنازة؟ ولكن رئيس التحرير صدَّعني بضرورة تغطيتها بالتفصيل.

- أتخيل ذلك، ولكن لن يكلفه شيئًا حضور مراسل من لندن إلى هنا، قد يكون هذا في صالح الجميع. لا أريدك أن تتعرض لمضايقات.

نظرت لها بتحدٍ مكتوم بينما تشير للنادل كي يغير أكوابنا الفارغة. لهجتها الودود ولغة جسدها المسترخية تحيرني. لا أدري إن كان ما تقوله تهديد أم اهتمام صادق. شعرت نحوها بالارتياح بنحو ما.

- تقصدين أن هناك ما يهدد حياتي مثلما تتهدد حياة عائلة ماري كل يوم؟

نظرت إلى كأسها دون أن تقول شيئًا.

- أتمانعين إن سألتكِ عن رأيكِ الصادق في هذه القضية؟ هل ترين ماري إرهابية حقًا؟

- بشكل مختصر ومباشر بالطبع أراها كذلك. لقد تسببت في مقتل 50 شخصًا. في بلدتها. من ذويها وجيرانها. وتسببت في تحطم كاتدرائية أثرية عمرها 400 عام على الأقل. الصدمة التي أحدثتها بهذه البلدة ستستغرق سنوات حتى تزول. هل تعتقد أن كونها زوجة سابقة لك أو كونها مواطنة من هذه البلدة يغير من موقفها؟

- دعيني أخبركِ أن ماري كانت زوجتي لمدة خمس سنوات. وكانت علاقتنا كأي زوجين من عالمين مختلفين غير مستقرة. ولكن كان بيننا حب كبير. وكنت أظن أني أحبها أكثر، ولكني منذ انفصالنا أعيد استرجاع ما حدث بيننا، فأكتشف أن ربما كانت هي التي تحمل لي قدرًا أكبر من المشاعر. الآن ألوم نفسي وأكرهها لأني أضعت فرصًا كثيرة. ليست هذه النقطة. ولكن الفكرة هي أن ماري فعلًا كانت إنسانة جميلة، محبة. مضطربة نعم، وعانت كثيرًا ممَّن حولها هذا مؤكد، ولكنها كانت تستطيع أن تحب. لم تكن ملاكًا كذلك، كما ليس أيٌّ منَّا، وكانت لها جوانبها المظلمة. الخطأ البشع الذي ارتكبته وقتها هو أني لم أحاول بجدية أن أفهم لماذا كانت كذلك. لم أحاول مساعدتها في العلاج أو التصالح مع ماضيها. على العكس ربما كنت جزءًا من تعقيد المشكلة، والآن هذا ما أحاول فعله. هل كان ممكنًا أن نتجنب هذه الكارثة؟ هل كان يمكن أن تكون ماري بيننا لو أننا كلنا لم نتخلَ عنها؟ هذا الألم الرهيب الذي يعانيه كل مَن حولها لفقدانها، لماذا لم نظهره لها حبًا في حياتها؟ أعلم أن الأوان قد فات. وأن لا شيء سيعيد الماضي. ولكني لست مستعدًا للاستسلام له الآن. لقد قضى الماضي على حاضري مع ماري وعلى مستقبلي الشخصي. وعلى مستقبل كل مَن له علاقة بهذه الحادثة المميتة. السؤال الذي لا يزال عالقًا هو: ما أصل ما حدث؟ لا يمكن أن يكون اختيار ماري لبلدتها اعتباطيًا.

قاطعتني وهي تومئ برأسها:

- هذه وجهة نظر جيدة.

- هناك ثأر ما بينها وبين هذه البلدة. يجب أن تبقى هذه الزاوية مطروحة في تحقيقاتك: ليس الأمر مجرد فتاة تعرضت لغسيل مخ من أحد الراديكاليين. أعتقد أن هذه مشكلة لديكم أنتم الغربيون حين تقومون بما يُسمى بمكافحة الإرهاب. أنتم تكافحون فكرة عامة، كلية، بدون أن تروا البعد الشخصي لكل حالة. هذه مشكلة متأصلة من العنصرية الخفية لديكم نحونا. أنتم ترونا مجرد أشياء. جماعات. لا ترونا بشرًا. نعاني مما تعانون منه. وهنا تظهر المعضلة الحقيقية لموقف ماري: إنها ابنة النصفين. هل ستعاملونها كفتاة مسلمة حاقدة وكارهة للغرب الرائع أم إنها ابنة الغرب الطيبة التي قام المسلمون الأشرار بغسل مخها واستغلالها؟

بدا عليها عدم الارتياح لكلامي، ولكني بحلول هذه اللحظة لم أكن أعي أو أهتم بشئون الكياسة وآداب الحوار، كان ما بداخلي انفجار أريده أن يخرج قبل أن يصيبني الإجهاد الانطوائي وتخور قواي كلها بعدها. أردت أن تسمع ماري مرافعتي.

- لا يمكن أن تكون الأمور بهذه البساطة. لسنا كلنا جماعات متعطشة للدماء تركض في الصحراء باحثة عن رجل أبيض كي تأكله. هذه السطحية في تناول الأمر هي السبب فيما يحدث وسيظل يحدث. هناك ضغائن وكراهية جماعية وحضارية بيننا وبينكم متأصلة في مشكلتنا التاريخية معكم. الاحتلال والاحتقار والاختراق والمحو الذي يمارس بشكل يومي عبر ملايين الأحداث الصغيرة المتوارثة عبر مئات السنوات. بداية من بوسترات هوليوود إلى تصريحات الرؤساء المتغطرسين وصولًا إلى الضغوط الاقتصادية وتبديل السلوك والقيم اليومية عبر السوشيال ميديا وحتى العمليات العسكرية التي تجري على الأرض في كل الدول أو العمليات المخابراتية التي تجري في الخفاء. هناك الاحتلال وهناك الفقر وهناك القهر الداخلي والخارجي. هناك الحرمان والكبت ونهب الثروات وهناك مَن يستغلون هذا. كل ذلك لا بد وأن تروه كمعطيات لهذه المعضلة التي لا حل لها طوال العقود

الماضية. ولكن هناك أيضًا الفكرة التي يتم نسيانها كل بضع دقائق: هؤلاء بشر متفردون. أخبريني: اليوم كم شخصًا سيفتح تلفزيونه أو هاتفه المحمول ويشاهد صورة ماري فيرى فيها شيئًا أكثر من مجرد وجه جميل ومخ مريض؟ مَن سيعرف مَن هي عن حق؟ مَن سيعرف أنها كانت إنسانة لها حياة وزوج سابق وأهل وطفلة لا تزال تحبو؟ هل أنا متعاطف معها وأجدها ضحية مثلها مثل الذين قتلتهم؟ ربما، واسجنيني إن كان هذا هو الحل ولكني لا أستطيع أن أنكر أنها كانت يومًا قطعة مني. مَن سيرى أنها كانت تحب الحلوى ومهووسة بأغاني البوب والإكسسوارات وتلقي النكات الأكثر إضحاكًا في عائلتها؟ مَن سيرى أن هذه الفتاة خلّفت وراءها في منزلي فساتين بألوانٍ كانت تحبها، ومناديل جافة أحتفظ بها في علبةٍ صغيرةٍ من الورق المقوى؟ مَن؟ هذا التسطيح وهذه القولبة هي التي ستمنعكم من الوصول إلى أصل المشكلة مهما حاولتم وبذلتم جهودًا صادقة في مكافحتها. أعتقد أنكم كي تفهموا لماذا تستمر العمليات الإرهابية، ولماذا يتمكن الأصوليون من استقطاب فتيات وفتيان من عائلتكم الغربية البيضاء الجميلة، ويقنعونهم بذات الذي اقتنعوا به قهرًا بفضل حضارتهم الشرقية البائسة، أعتقد كي تفهموا ذلك يجب أن تنظروا في المرآة أولًا، تمامًا كما أفعل أنا الآن كي أعرف لماذا فعلت ماري ما فعلته.

توقفت عن ثرثرتي المندفعة فجأة تمامًا كما بدأتها فجأة. سار بنا الحديث إلى مناحٍ أخرى لا أذكرها الآن، كنت منهكًا وكنت أريد أن أنام. كنت مخمورًا أيضًا. ولكني وعدت المحققة بأن أنفذ لها طلبها بعدم التواجد في البلاد وقت الجنازة، فقط مقابل شرط واحد.

والغريب أنها وافقت..

***

بعد مغادرة المحققة صعدت إلى غرفتي وأنا لا أكاد أستطيع الوقوف من التعب. غيرت ثيابي واستحممت بماءٍ ساخنٍ حتى الغليان ثم

ارتميت على السرير مستمتعًا بالدوار الخفيف الذي يحوم برأسي. تذكرت أني منذ وصولي إلى هنا لم أستمع إلى أغنية «أطفال الصدفة» لداميان رايس. هذه الأغنية مع بقية الأغاني المفضلة لديّ كانت – كالعادة - مثار سخرية ماري.

«أنت تعشق الشجن والكآبة إلى حد لا يُطاق. كل الأغاني التي تحبها تبكي على نهاية العلاقات ولا تحتفي بجمالها. حتى ونحن معًا لا تكف عن تشغيل الأغنية اللعينة. إنها لا تصف شيئًا مما نحن فيه الآن على الإطلاق. نحن العكس تمامًا».

وكان عندها حق. ما لم تفهمه ماري هو أنني كنت دائمًا ما أستشرف حدوث ما تحكيه تلك الأغنية لي يومًا ما. مبكرًا جدًا أصابتني حالة استباقية من التوحد معها.

«أشعر أنها ستصفني يومًا ما. وستكون الأغنية التي ستصف بالضبط ما أشعر به. ساعتها سأكون في حالة من اليأس اللذيذ»، كنت أجيبها ضاحكًا، ثم أرفع الصوت وأستفيض في شرح روعة إحساسه وبساطة النغمة الموسيقية وجمال التلاعب بالكلمات والاستعارات. كيف لا يمكن أن تحب أغنية كتلك، بل وتكاد تتمنى أن تصيبك حالة البؤس التي أصابت كاتب الكلمات حتى تلمسها عن حق وتتردد أصداؤها داخل فؤادك؟

ولكن بداخلي كنت أعرف أن ذلك التمني هو خوف دفين من تحقق ما أتمناه. وأن ما أتمناه لا يتمناه المرء إلا لأنه يكره نفسه، ويريد أن يقع بها أقسى صنوف العذاب، لأنك تعلم، وأنت وحدك الذي تعلم، كم لا تستحق السعادة.

«سيكون أعظم أنواع العذاب. لا أتخيل أني سأعيشه. إن حدث وكانت هذه الكلمات تعبر عن موقفنا بحق.. أعدكِ سأنهي حياتي»..

ولم يحرمني الله التعاسة التي تمنيتها.

وضعت السماعات في أذني وتركت الأثير الموسيقي يتسلل إلى كياني بينما أذهب في نوم عميق.

هل تأتين..

معه أبدًا؟

هل هو مظلم كفاية

كي يرى ضياءكِ

هل تغسلين أسنانكِ بالفرشاة قبل أن تُقبليه؟

هل تفتقدين رائحتي؟

هل هو جريء كفاية كي يستحوذ عليكِ؟

هل تشعرين أنكِ إليه تنتمين؟

هل يدفعكِ إلى الجموح..

أم بالكاد يُشعرك بالحرية؟

وماذا عني؟

أعلم أني أجعلكِ تبكين

وأعلم أنكِ في بعض الأحيان تتمنين الموت

ولكن هل حقًا تشعرين بأنكِ حية بدوني؟

لو كان الأمر كذلك، فتحرري

ولو لم يكن، اتركيه وعودي إليَّ

قبل أن يُرزق أيٌّ منَّا بأطفال الصدفة

قبل أن نقع في الحب

هل يدفعكِ إلى الجموح..

أم بالكاد يُشعرك بالحرية؟

وماذا عني..

ماذا عني؟

***

استيقظت اليوم التالي منتظرًا أن ترد كارين مكالمتي. كان سؤالي حول دورها في كل ما حدث لا يفارق ذهني أبدًا. مرة وراء الأخرى أتساءل عما تعرفه كارين ولم تخبرني إياه. والأهم: لماذا لم تخبرني ماري أبدًا أن كارين كانت جزءًا من عصابة الستة؟ هل كانت أفكار كارين المسممة التي أوحت بها إليّ أكثر من مجرد غيرة أو سوء نية؟ هل كانت مزحتهم الثقيلة الأخيرة على صديقتهم الضعيفة؟ ولِمَ لم تعترف لي بشيءٍ حتى الآن؟

ذهبت إلى حيث يقيم والدي كارين فأخبراني أنها تباشر عملًا في العاصمة. عدت مشيًا إلى منزل فريدريك وأولجا.

استقبلني فريدريك بترحاب أفضل من ذي قبل.

- أين أولجا ورقية؟ سألته.

أجابني بأن أولجا اصطحبتها لإدارة الصحة كي تتمم إجراءات انتقال رقية رسميًا إلى عهدتهما. أصابني الارتباك وغصة في حلقي حين قال ذلك. هما سيربيانها؟ وإلى متى؟ وعلى أي دين؟ أردت أن أسأله ولكني كنت متأكدًا أن ذلك لن يكون ملائمًا، على الأقل الآن. أو ربما كان شيئًا آخر يشغل بالي. أخرجت دفتري وجهاز التسجيل وطلبت من فريدريك الجلوس إلى الطاولة. كان الأوان قد حان كي يحكي لي عما حدث كما رآه.

***

- في اليوم التالي لوصول ماري كنا لا نزال نشعر بالإثارة. وكأننا لا نزال نستوعب أنها هنا. ماري القديمة. التي لا تنعتنا بالأغبياء لأننا نناديها باسمها وليس بالاسم الإسلامي الذي اختارته لنفسها. تضحك وتصرخ في كل مكان.

أخرجت ردائي الاحتفالي لأقيسه استعدادًا لقداس المساء. ضحكت ماري وأنا أحاول إدخال كرشي في البنطلون المزركش. ركضت نحوي وساعدتني على حشو القميص وشد الحزام العريض الذي كاد ينفجر. بعد لحظات قامت بتشغيل أغنيتها المفضلة على النظام الصوتي وملأت الموسيقى أرجاء البيت. كان ذلك مدعاة أكبر لاستغرابنا، لأن ماري كانت قد حرمت على نفسها وعلينا - في زياراتها القليلة لنا - تشغيل أو حتى ذكر الموسيقى. ولكن ما إن بدأت الأغنية في الصدوح خارج السماعات حتى استعادت ذاكرتها الكلمات وتلتها كلمة كلمة.

أعدت أولجا وكارين الإفطار، وجلسنا جميعًا إلى الطاولة، ولكن ماري هرعت إلى الخارج في طفولية تفوق ابنتها رقية. حبت الطفلة خلف أمها، بينما كانت تحمل هي طبق إفطارها وتجلس في الحديقة تحت المطر غير عابئة بشيء. قالت بمرح: سوف أتناول إفطاري في الخارج مهما كان الثمن، مَن سينضم إليّ؟ كنا ننظر لبعضنا البعض غير مصدقين. وكأنها قد سحرتنا، انصعنا لطلبها وخرجنا في الجو المثلج. في البداية ظننت أنها قد نسيت، ولكن مع مرور الوقت، وحتى حين ظهر المارة وبدأوا في تحيتنا والانضمام إلينا، لم تهتم ماري بتغطية شعرها. وللحظة عاد كل شيءٍ إلى ما كان عليه. كما كان يجب أن يكون.

صمت فريدريك لبرهة. تركته يستعيد الذكرى في ذهنه، يحاول مشاهدتها أمام عينيه، الاستماع إلى الأصوات وتذكر الروائح، على مهل. لم أقاطعه. بعد لحظات بدا أنه تذكر شيئًا فجأة. عاد ليتكلم بصوته العجوز الخشن.

- في الليلة السابقة، وحين كنت أدخل حقائب ماري إلى غرفتها بعد عودتنا من المطار، كانت هناك حقيبة ثقيلة، حاولت أن أرفعها للداخل، ولكنها صرخت: «سأحملها أنا، إنها هدية أرسلها لصديق له هنا في الجامعة، يجن جنونه إذا ما لمس أحد أشياءه غيري». تركتها ولم أفكر لحظتها في شيء.

لم أعلق. أي غباء يا ماري! أي غباء!

- في المساء ذهبنا للسينما. طلب غريب آخر من ماري. وحين عدنا ارتدينا ملابسنا للقداس. خرجت علينا بفستان رائع. كانت تغطي رأسها بالحجاب ولكن دون برقع يخبئ وجهها. كانت جميلة. لطالما زاد الحجاب من ضيائها، أليس كذلك؟ علقت أولجا ما إن رأتها: «يا إلهي يا ماري! لقد زاد وزنك في يوم وليلة!» وردت ماري بهدوء أنها بلا شك المكرونة اللذيذة التي طبختها أولجا للغداء: «آكل منها مثل البقرة دون توقف».

للحظة شعرت بأنها قد فقدت حماستها التي كانت تتمتع بها طوال اليوم. قبل أن نغادر جلست واحتضنت رقية بقوة. أخذتها في حجرها. أطعمتها. ظلت تهدهدها وتلعب معها حتى غفت الطفلة الصغيرة بين ذراعيها. ظللنا نشتكي أننا سنتأخر ولكن ماري كانت تطالع رقية وتداعبها بهدوء متجاهلة إلحاحنا. كانت تشرد كثيرًا. كلما أفاقت من استغراقها في التفكير ابتسمت دون أن تقول شيئًا. سألتها أكثر من مرة إن كانت على ما يرام، ولكنها لم ترد. بعد قليل عرجت علينا أختي لاورا لتأخذ رقية، كنا قد قررنا ترك أطفال العائلة مع لاورا حتى لا يفسد الشياطين الصغار القداس، وظلت ماري توصيها بأن تبقي رقية دافئة وشبعانة. كان باديًا عليها القلق وهي تسلمها إياها ومعها حقيبة أشيائها. حتى إنها بكت. حاولت أولجا تهدئتها، فقالت: «لم أتركها وحدها من قبل». ضحكت أولجا: «لا تقلقي. ساعاتان ونعود لها، ستكون قد استيقظت بعد أخذ كفايتها من النوم وستبقينا مستيقظين

طوال الليل».

في السيارة لم تقل ماري شيئًا. ظلت صامتة. شاردة. تنظر خارج النافذة بينما نسير عابرين المدينة الهادئة. قالت فجأة: «أبي، خذنا في جولة بالحي، أفتقد الديار». خرجت عن الطريق وتجولت بهن، أولجا وكارين، في مختلف الأنحاء. عرجنا على المدرسة، المكتبة، الميدان الرئيسي، شربنا قهوة في أحد المقاهي، وأرادت أن تذهب إلى محل الحلوى ولكنه كان مغلقًا. قالت: «نذهب في الغد إن شاء الله». ورددنا وراءها ضاحكين: «إن شاء الله».

ثم حكى لي ما حدث داخل الكنيسة، وكيف قامت ماري، متعمدة، بإنقاذ والديها من الكارثة.

***

أمضيت الأيام التالية في سلام مع رقية وأولجا وفريدريك. كان قلبي ينشرح كلما داعبتني الطفلة الصغيرة فور وصولي. كنا نلتف ثلاثتنا ورقية في حجري حول مائدة المطبخ، نحتسي القهوة القوية ونشاهد هطول الأمطار من النافذة. كان جو من التسامح المستتر قد بدأ يصلني رويدًا رويدًا من حموي السابقين. كنت مع طول بقائي والحنين الزائد الذي أظهره لرقية أذيب جليدهما شيئًا فشيئًا. أيضًا ظلت مقالاتي تتوالى في الجريدة، وكانت تُترجم على الفور إلى الإنجليزية ولغة بلد ماري التي كانت وسائل الإعلام بها تهتم بكل ما يُكتب عنها. كان السباب الذي أتلقاه عبر وسائل التواصل الاجتماعي كما أراني أخو ماري الأصغر بشعًا. كثير منهم قالوا إني لا بد وأن أحاكم بنفس القسوة والحزم الذي سيحاكم به زوجها المحرض. آخرون قالوا إن جزائي هو الموت وإن تعاطفي مع ماري وعائلتها إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أن لديَّ ضلوعًا في الأمر. لم يكن موقفي كسبب لإسلامها يساعدني كثيرًا في هذا. ورغم أني لم أكتب حرفًا واحدًا يقول إني متعاطف أو أوافق بأي شكل كان على ما حدث، فإن الكراهية والتعصب كانا كفيلين

بأن يعطيا أي قارئ متحيز ذلك الانطباع. كان سردي المباشر والبسيط لملابسات الحادث وسيرة حياة ماري ووصفي لعائلتها وتاريخهم في البلدة وسمعتهم الحسنة كفيلًا بأن يُثير تجاهي كل هذا. ولكني لم أكترث.

كانت هذه المشاعر المتضاربة سببًا آخر لقبولي من عائلة ماري بسرعة، فقد كانوا في حالةٍ من التشتت والضغط المستمر من كل ما يحيطهم بحيث أصبحت أنا آخر همهم، خاصة بعدما اطمأنوا إلى أن وجودي غير مؤلم وليس مؤذيًا على أي وجهٍ من الأوجه. كانت أولجا وفريدريك يتعرضان لما لا يتناسب مع سنهما ولا الحياة الهادئة التي كانا يمنيان بها نفسيهما في سن التقاعد. ما بين التعامل مع الشرطة، والصحفيين والمراسلين، وأهل البلدة الذين كانوا يحملون لهما كمًا هائلًا من الكراهية. كان البيت المزدحم في معظمه بالأولاد الخمسة وأولادهم نوعًا من الحماية للوالدين العجوزين. تأثرت كثيرًا بمشاعر التكاتف التي باتت ظاهرة بين أفراد العائلة بعد الكارثة.

كانت المشاعر في البلدة نطاقًا كاملًا من التضارب الإنساني، وكنت هناك شاهدًا على ذلك كله. رأيت مصابين يأتون إلى منزل الوالدين ودون أن يدخلوا يحدثونهم قليلًا من على الباب، يخبرونهم أنهم قد سامحوا ماري؛ وآخرين أتوا ليحكوا عن أحلام راودتهم زارهم فيها أحباؤهم الذين رحلوا، وطمأنوهم على أنهم في مكانٍ أفضل، وأنهم سعداء، ولا يحملون أي غضاضة تجاه قاتلتهم، ويوصونهم بألا يتركوا الغضب يأكل قلوبهم، وأن يتركوا في أنفسهم مساحة للحزن أكبر من الغضب، فالحزن مع الوقت يتضاءل، بينما الغضب تؤججه الأيام وتزيده اشتعالًا.

في أحد تلك الأيام سمعت صوتًا عند عتبة الباب، خرجت لأجد سيدة عجوزًا تترك صينية بها أطباق عديدة مغطاة. كانت سيدة كبيرة ربما في أواخر الخمسين من عمرها بشعر رمادي وخفة في الحركة أبهرتني.

بينما كانت تبتعد دفعت الباب الزجاجي إلى الخارج.

- تفضلي، هل تريدين فريدريك أو أولجا؟

بادلت السيدة الابتسامة التي كانت تحملها على وجهها، والتي فهمت بعد ذلك أنها ابتسامة لا إرادية لا تفارقها أبدًا. كنت أحمل رقية أهدهدها بينما تلعب بدب قطني كنت قد اشتريته لها.

تفاجأت وهي تستدير نحوي:

- فقط أردت أن آتي لهم ببعض الطعام، في هذه الظروف لا بد ليس عند أي منهم طاقة للطهي. إن تكرمت وأدخلته حتى لا يفسد من المطر سأكون شاكرة.

قبل أن أقول شيئًا كانت قد استدارت وابتعدت في خطواتها السريعة.

في المساء كان المشهد مضحكًا: الأبناء الخمسة ووالداهم كانوا ملتفين حول طاولة الطعام في المطبخ ينظرون للصينية بارتباك بينما أجلس ورقية في حجري أتطلع في وجوههم القلقة:

- أظنها إيليانا الصيدلانية. قال فريدريك.

- يا إلهي! هتفت الأخت الكبرى وهي تضع كفها على فمها. بجانبها كان زوجها واضعًا يديه على كتف ابنه الواقف بين رجليه يمنعه من التقدم نحو الصينية.

رفعت رأسي إلى أخيها وهمست له بصوتٍ خفيض:

- لا أفهم، ما المشكلة؟

- مات ولداها مايكل وموريس في الانفجار.

عدت لأنظر تجاه الصينية وأنا أناول رقية للأخت الوسطى.

- يا ألله! أنتم تظنون أن الأكل مسموم؟

- لماذا إذن أتت به اللعينة إلى هنا؟ صرخ زوج الأخت الكبرى.

- بالله عليك، هناك أطفال. قالت أولجا بحدة.

ظل الصمت السخيف يخيم علينا.

- فلنكبه كله في القمامة دون تفكير. قال فريدريك.

ضحكت وأنا أكشف الأطباق.

- أنا عن نفسي جوعان.

كانت لحظة فارقة بالنسبة لي. شعرت حينها بأن لديَّ عائلة. عائلة حقيقية لم تكن لي يوم أن كنت واحدًا منها بحق. كان موت ماري قد قربنا أكثر بكثير مما فعلت حياتها. فكرت فيها كثيرًا في تلك اللحظة. كيف كانت ستتصرف في ذلك الموقف. النكات التي كانت ستلقيها وخفة وجودها التي كانت ستنثرها علينا كما مسحوق الجنيات الساحرات. شعرت نحوهم بالدفء والود اللذين لم أجد لهما مساحة وسط كراهيتي المستمرة لهم حين كنت زوجًا لها. في ذلك الوقت الذي كانت تعصف بي أفكار عنيفة تجاه ماضي ماري والإنسانة التي كانتها، تلك الإنسانة المجروحة والمتألمة والمضطربة. كنت أحملهم المسئولية طوال الوقت، وكان شعوري بالغربة بينهم عظيمًا، عززه ذلك البرود الذي كانوا يحافظون عليه أثناء تعاملهم معي. كنت لأول مرة أتساءل عن جدوى اهتمامي المضني بكل ما شكل حياة ماري وشخصيتها. هل كان حبًا؟ هل كان فضولًا؟ هل كان تعزيزًا لأفكاري الأخلاقية التي أردت دائمًا التأكد من أنها في مكانها الصحيح، وأنها تضعني في مكانتي الرفيعة التي لا أريد أن أتخلى عنها؟ أم أنها كانت مجرد إسقاط على ضعفي وعجزي وكراهيتي للبشر والحياة؟

***

لأن الأسماء الأجنبية تختلط عليَّ بشدة، إذ تبدو جميعها وكأنها خارجة من أفلام أجنبية متشابهة، فلم أدرك أن أحد ولدَي الصيدلانية كان ذاته

مايكل الذي أرسل صور ماري لكل زملاء الفصل حين كانوا صغارًا.

أرسلت رسالتي العاشرة في يوم مطير لكارين التي كانت قد اختفت طوال الأيام الماضية. ردت عليَّ أخيرًا بأنها مسافرة إلى العاصمة في رحلةٍ متعلقةٍ بالعمل وأنها ستعود غدًا. «سأرسل لك لنتقابل». كنت ألح عليها في المقابلة بدعوى قرب سفري لروما دون أن أخبرها بشيءٍ مما عرفته.

أوصلني فريدريك إلى الصيدلية.

- لا أعلم الحكمة من أن تقابلها، ألا يكفيك كل مَن قابلتهم؟ لقد كتبت الكثير بالفعل.

- أعتقد أن على أحدٍ منَّا أن يشكرها على هديتها لنا، وبما أني أنا الذي التهمت كل ذلك الأكل فأعتقد أن شكرها يقع على عاتقي.

كنت أمازح فريدريك وهو أمر لم أفعله من قبل. يبدو أن النسيان قد بدأ بالفعل يسدل ستائره على علاقتنا بعد كل تلك السنوات. إذا كان موت ماري وجريمتها البشعة سيقرب هذه العائلة من بعضها البعض فلماذا أكون أنا استثناءً؟

- هناك الكثير من المادة والحوارات التي خضتها مع الناس هنا والتي لم تظهر في المقالات، سأجمعها كلها حين أعود إلى الديار وأنشر كتابًا عن ماري، عنَّا، ألا تظن أن هذه ستكون فكرة جيدة؟ يجب أن يعرف الناس أليس كذلك؟

نظر لي فريدريك بتأثر كبير وأنا أنزل من السيارة واضعًا دفتري فوق رأسي حماية من المطر الشديد.

كانت هذه آخر مرة رأيته فيها.

***

أجلستني السيدة إيليانا في المخزن الخلفي للصيدلية. كان الجو باردًا

فصنعت لي كوبًا من الشاي. تركتني لبعض الوقت لتهتم ببعض الزبائن حتى وصل شاب من أصول هندية ليبدأ ورديته. عادت لتجلس أمامي وتعتذر بابتسامتها الهادئة.

- أعتذر لك عن التأخير. لقد زادت التحويلات من المستشفى المركزي طوال الأيام الماضية، نعمل تقريبًا على مدار الساعة ولا يزال المرضى يتوافدون.

كنت أتعجب كيف تجد هذه السيدة الهادئة الطاقة كي تتابع عملها المضني، تتعايش مع حزن فقد ولدين منذ أقل من شهر، وأيضًا تطبخ الطعام لأهل القاتلة التي سلبتها كل شيء كانت تحبه في الحياة.

- اسمحي لي أن أثني على طعامكِ الرائع. ذائقتي الشرقية لم تُتح لي أبدًا الفرصة لتقبل مطبخكم الخالي من البهارات، ولكن للحق يدفعني طهوكِ لتغيير رأيي.

واصلت ابتسامها بهدوء.

- هناك الكثير مما علمتني إياه أمي ولم تفلح السنوات في محوه. أنت أيضًا تبهرني بلغتك السليمة. بالكاد أستطيع أن ألمح لكنة في كلامك.

أخبرتها ببعض التفاصيل عني. كانت تستمع إليّ باهتمام دون أن تعلق سوى بكلمات بسيطة. في لحظةٍ لم أستطع التحلي بالكياسة المطلوبة لقيادة دفة الحوار بهدوء.

- كيف؟

جفلت من سؤالي.

- كيف تفعلين هذا؟

فجأة ذبلت الابتسامة على وجهها وكساه تعبير من الحزن السقيم. ماتت عيناها في لحظة.

- وماذا يمكن أن أفعل غير ذلك؟ إن جلست في المنزل يومًا آخر

سأموت.

- وماذا عن الطعام؟ هذه اللفتة قد تبدو أمرًا مفهومًا إن جاءت من أي شخص آخر. ستبدو بوضوح لفتة ظريفة وبسيطة. ولكن أن تأتي منكِ، هذا يتطلب مقدارًا من القوة لا أفهمه.

- لأن الكراهية لن تؤدي إلى شيء. إنها فارغة. غير مفهومة وغير مبررة. لم يمر يوم منذ وقع الحادث لا أتمنى فيه أن أقتل كل مَن تسبب في مقتل ولديَّ. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ لقد ماتت ماري معهما وليس هناك مَن أنتقم منه. في النهاية فإن فريدريك وأولجا فقدا ابنتهما تمامًا كما فقدت مايكل وموريس. ومثلي أيضًا، لم يكن لهما ذنب في الألم الذي يعيشانه الآن.

صدمتني كلمتها.

- هل حقًا لا تُحملين إياهما مسئولية ما حدث؟ كأم ومربية، ألا تظنين أننا كآباء لدينا مسئولية عن أفعال أولادنا؟

- هل لديك أولاد إن سمحت لي بالسؤال؟

«لديَّ رقية»، أردت أن أقول.

- لا.

- يجب أن تعلم يا سيدي أن حبنا لأولادنا يعمينا عن الكثير من خطاياهم. لا يمكن لأم أن ترى في ولدها عيبًا. وأعتقد أني لديَّ الحق في أن أقول ذلك من تجربتي. أعتقد أن ولديَّ كانا مكروهين للغاية بين الكثيرين هنا، ربما إن بحثت وجدت أنني أتحمل كأمهما نتيجة ما حدث تمامًا كما يتحمله والدا ماري.

كانت هذه السيدة الجالسة أمامي بالمعطف الأبيض تعيد تغيير مفاهيمي في الحياة بكل هدوءٍ دون أن تدري.

- لقد مات والدهما وهما صغيران. أحدث ذلك لديهما شعورًا مخيفًا

بعدم الأمان، وهو ما جعلهما يعانيان من قسوة الحياة ويستقبلانها بشكل مضاعف أصابتني لعنة الشراب وإدمان المهدئات في تلك الفترة. كنت أسرقها من صيدلية المستشفى المركزي، وكان ذلك كفيلًا بأن يتم رفدي وشطبي من ممارسة المهنة مدى الحياة، ولكن تكاتف أهل مدينتنا الصغيرة ظهر في تلك المحنة. تستر عليَّ مدير الصيدليات وطلب مني الاستقالة بهدوء. كان ذلك بمثابة ناقوس خطر أفاقني. استجمعت شتات نفسي وفتحت هذا الدكان البسيط وقررت أن أركز في تربية أولادي. مع بعض الوقت أصبح لي صديق حميم، وكان وجوده في حياتنا جحيمًا من المشاكل اللا متناهية سواء من الولدين أو بيني وبينه. عدت كلما ثقلت عليَّ الضغوط إلى الشراب والمهدئات، وظللت في هذه الدائرة لسنوات، مغيبة طوال الوقت، وحين أفقت وطردته من المنزل ومن حياتنا إلى الأبد، كان الأوان قد فات.

- كيف؟

- بدأت أعرف ما كان الولدان يفعلانه فيمَن حولهما. كنت في فترة غيبوبتي أعمي بصري عن كل شيء أسمعه أو أراه. تقارير المدرسة، تحذيرات الشرطة، شكاوى الأهالي الذين كانوا يأتون إلى هنا في أوقات مختلفة من النهار كي يحكوا عما لاقاه أولادهم على أيدي الأخوين الشريرين. كان مايكل رقيقًا ومهذبًا، ولكنه كان ألعوبة في يد موريس الذي شكلته أحقاده ومخاوفه من العالم.

أطرقت برأسي خجلًا من قسوتها في نقد أولادها. كانت كأنها تذكر نفسها بكل أخطائهما علَها، يأسًا، تفتقدهما بدرجةٍ أقل.

- هل كنتِ تعرفين ماري؟

كانت إيليانا في هذه اللحظة تقف أمام غلاية الماء. لم تُجب عن سؤالي سوى تكة الغليان.

- بالطبع. كنت أعرفها جيدًا.

قالت وهي تصب الماء وتعود إلى الطاولة.

- كانت ماري فتاة خجولة. شديدة اللطف والانطواء. في بداية حياتها أذكر حين كانت تأتيني أولجا وتشكو من أن ماري قليلة الكلام بشكل مقلق. وحين كانت تفعل كانت تتحدث بسرعةٍ وحماس شديدين. لم نكن في ذلك الوقت نعرف ما هو الاكتئاب ثنائي القطبين، لست في محل تشخيص لها ولكني أظن أن ماري كانت تطور هذا المرض ببطءٍ كلما كبرت. خاصة بعد ما تعرضت له في عمر مبكر.

- هل كنتِ تعرفين ما حدث لها؟ ما كان يحدث في المدرسة؟

- كنا نسمع قصصًا ولكن لم يكن أي شيءٍ منها مؤكدًا. كانت تأتيني كثيرًا لشراء الشاش والمطهر، ولم يكن هذا غريبًا على الأولاد في سنها. في بعض الأحيان كانت تشتري واقيات ذكرية، وكان ذلك مقلقًا لأنها كانت صغيرة للغاية، أصغر من السن القانونية لممارسة الجنس، ولكن بحكم القانون لم يكن هناك ما يمنعها من ابتياعها. بالطبع كنت أنصحها ولكنها لم تكن تستمع. كانت عدائية معي بشكلٍ خاص. عرفت بعد ذلك السبب.

- مايكل.

أومأت برأسها في أسى. تناولت رشفة من كوبها كي لا تبكي.

- بالطبع عرفت أنها كانت تتعاطى المخدرات مع بقيتهم وكانت هذه أزمة شغلتنا جميعًا في فترة، ولكننا كنا نمني أنفسنا أنها فترة طيش وستمر، وهو ما حدث بالفعل مع معظم أولادنا. أظن أن ماري كانت متطرفة بعض الشيء ولكن لم يكن ما تأتيه من أفعال غريبًا عما اعتدناه. الأولاد هنا يحتفظون بسرية ما يحدث بينهم. ونحن بخليط من الخوف واللا مبالاة لا نحاول أن نعرف شيئًا. فقط حين يقع حدث كبير في الظاهر ونضطر إلى التعامل معه كانت أزمات الشباب تفرض نفسها في الحوار الدائر ما بيننا. كما قلت لك سابقًا، كنت في فقاعتي

المعزولة تمامًا لسنوات. لم أكن تلك التي تراها الآن.

- وهل حدث هذا مع ماري؟ حدث كبير يستحق أن تلتفوا حوله لمناقشته؟

- إن كان قد حدث فإني لا أذكر. على أي حال لقد مر على هذه الفترة سنوات طويلة. لقد كبروا جميعهم ونضجوا وباتوا أزواجًا وآباءً وقليل جدًا منهم مَن استمروا على هذا المنوال.

- لا تذكرين أم لا تريدين أن تتذكري؟

واصلت إيليانا تحديقها الشارد في قدحها في صمت.

- هل تعتقدين أن ما فعلته في الكاتدرائية كان انتقامًا لما حدث لها وهي صغيرة؟

نظرت لي إيليانا بحدة، وبدا عليها استيعاب الشيء لأول مرة. كانت مصدومة.

- لم أفكر في هذا الأمر أبدًا. لقد أخبرونا أنها إرهابية و...

- نعم هذا حقيقي، ولكن ما الحكمة في أن تفعل ذلك بكم أنتم؟ ربما يكون وجودها كواحدة من أهل المدينة قد وفر غطاءً سهلًا للعملية وكان ذلك مغريًا. ولكن اختيار المكان والتوقيت لا يمكن أن يكون مصادفة، وأن تتمكن ماري من قتل أربعة من عصابة الستة مستحيل أن يكون مصادفة هو الآخر. لا شك أنكِ قد سمعتِ هذا الاسم من قبل. عصابة الستة التي شكل ولداكِ اثنين منها. كان يمكن أن تقوم بالعملية بنفس السهولة في العاصمة وفي منطقة أكثر ازدحامًا وتأثيرًا. أو حتى في ميلانو حيث كانت تقيم. أنا ميال أكثر إلى أن اختيار الكاتدرائية ليلة عيد الميلاد كانت فكرة ماري وليست فكرة مخططي العملية.

عانت إيليانا في تلك الليلة المشئومة من وعكةٍ صحية. كان ولداها مايكل وموريس قد قضيا اليوم في منزلها بصحبة الأحفاد وزوجة

موريس - غادرت زوجة مايكل في العام السابق تاركة له طفلتين - وتناول جميعهم العشاء مع الجدة اللطيفة مستمتعين بطعامها الرائع. أصاب إيليانا مغص شديد بعد الأكل لم تفلح كؤوس البابونج الساخنة في معالجته. رقدت وقررت الزوجة أن تبقى معها. رفض موريس أخذ أولاده بينما أصر مايكل على اصطحاب ابنتيه حتى لا تشكلان عبئًا على الجدة وزوجة عمهما. كانت كلتاهما قد ورثتا طباع عمهما الحادة والعدوانية. سلموا جميعًا عليها بحرارةٍ شديدة، وأخبرتهم أن يوقدوا لها شمعة كي تأتيهم السنة الجديدة بالسعادة وموفور الصحة.

أخبروا إيليانا بعد ذلك أن إحدى الفتاتين وجدت بين أحضان مايكل وقد تكسرت عظامها من قوة احتضانه المذعور لها. نجت الأخرى وتعيش الآن مع جدتها وأرملة موريس بأبنائها الأربعة.

- هل تظنين أن التسامح سوف يكفيكِ لما تبقى من سنوات حياتك؟

- ليس فقط التسامح. ولكنها قسوة الحياة الطويلة. لقد ولدت بعد سنوات الحرب الكبرى. كانت البلاد مدمرة ومنهارة بالكامل. كنا نقضي الساعات في طوابير الخبز مربوطين في ظهور أمهاتنا ومتدثرين بألحفةٍ بالكاد تغطي أجسادنا. كانت الحلوى والألعاب ترفًا لا ندركه. وحين كبرنا قليلًا دخلت بلادنا في حرب غبية أخرى للتطهير العرقي. ومرة أخرى عانينا، ونحن كبار هذه المرة، من إجراءات التقشف وندرة الطاقة والتدفئة. كل هذا الذي تراه الآن من الشوارع النظيفة والحياة المنتظمة، السلام والنظام والهدوء، المتاحف الرائعة والتكنولوجيا التي تُيسر حياتنا، كل ذلك لم يكن موجودًا.

- وستظل هذه المعجزات مصدرًا لحسد الكثيرين من شعوب الأرض، ولكن وسط كل هذا أين ذهبت البوصلة الأخلاقية؟ أين كنتم مما يفعلون؟

- كان الثمن غاليًا لن تتخيله. لقد كنا حتى وقت قريب مثلكم في كل شيء، نخاف التحرر من قيود الدين والمجتمع، نحسب حسابًا لما يقوله

الناس، نقسو بأحكامنا على مَن سحقتهم قسوة الحياة، كانت هذه عادات وتقاليد بلدتنا، ولكن جيلي نشأ ناقمًا على كل هذا، وكانت حركة التحرر هي الحل الوحيد أمام هذه السلطة المجتمعية والأبوية الكريهة التي حرمتنا التمتع بالحياة وسنوات الشباب. لا تنسَ أن جيلي هو الذي دعا إلى نيل الحرية الجسدية والاجتماعية، ولم نترك لهؤلاء العجائز الفرصة لأن يخبرونا بما هو المقبول وما هو المرفوض. كنا نحمل مرارة كبيرة تجاه جميع أشكال السلطة. وكانت هذه الثورة تعني التخلي عن كل قيد، وتنحية السؤال الأخلاقي جانبًا.

- وحين أصبحتم أنتم الآباء..؟

- كان لزامًا علينا أن نواصل الالتزام بالـ «قضية» التي حاربنا من أجلها. كنا نريد أن نمنح أولادنا الحرية الكاملة. نحسن تربيتهم وننقل لهم خبراتنا ومعتقداتنا اليوم تلو الآخر حتى تأتي اللحظة التي يدركون فيها أن لديهم القدرة على الاختيار. ساعتها نتركهم تمامًا كي ينعموا بالحرية الإلهية التي كان الكبار يحاولون حرماننا منها. ولم ندرك وقتها أن أولادنا يريدون الذهاب إلى أبعد مما ذهبنا، وأن الدورة قد دارت وأنهم ينظرون لنا نفس النظرة التي كنا نحملها لمَن سبقونا.

- أصبحتم جميعًا ضحايا لهذه الحرية، انزلقتم نحو هاوية الاغتراب والجنس واللا مبالاة هروبًا من المتطلبات الاقتصادية والعملية الطاحنة. هروبًا من الوحدة والإحباط من الحياة وفكرة الوجود ككل. واسمحي لي، أعلم أنكِ لستِ في أي موضع يسمح بأي قدر من القسوة؛ ولكنكم صدرتم ذلك لأولادكم المرة بعد المرة بعد المرة، أن لهم حقوقًا دون غيرهم، أن لا رادع لهم، لا حساب على أفعالهم. سواء الآن أو فيما بعد. كانت النتيجة أنهم خرجوا أكثر رخاوة منكم، وأكثر قسوة على الآخرين، وأكثر وحشية. لا أعتقد أن أي مجموعة من الأسوياء كانت لتفعل ما فعله أبناؤك وأصدقاؤهم بماري، ولا أعتقد أن مجتمعًا سويًا كان قد حمى ذلك السلوك وتركه كأنه لا يراه حتى استفحل إلى ذلك

الحد المدمر.

كان الغضب قد بدأ يتصاعد في صوتي. سكت وأصابني صمتها بخجل شديد من سوء تصرفي.

- أنا آسف. لم أقصد ذلك. الأمر بالغ التعقيد.

قمت بغتة محمر الوجه وأنا ألملم أوراقي وأغلق جهاز التسجيل بارتباك. ظلت تراقبني.

- أرجوك. لست متضايقة منك. يبدو عليك حبك لزوجتك وغضبك لفقدانها. أنا مقدرة تمامًا لكل ما تشعر به. كما قلت الأمر بالغ التعقيد، ولا أعتقد أن عند أيٍّ منّا الإجابة. وإذا ما كنا سنتبادل الاتهامات فلا أظن أننا سنصل إلى شيءٍ سوى استمرار دائرة الكراهية تلك.

أوصلتني حتى باب الصيدلية. كنت لا أزال مضطربًا من إحساس الغضب والاحتقار الذي عاد يغمرني. لا أتوقف عن رؤية ماري وهي طفلة صغيرة تجلس باكية على أرضية حمام المدرسة القذر مبللة بالقاذورات المعلقة بشعرها الملتصق بوجهها.

أطبقت المعطف الطويل على نفسي وأنا أخفي نصف وجهي في ياقته. مددت يدي وسلمت عليها بحزم.

- كلنا نعاني بشكلٍ أو بآخر، ونحن الذين بقينا ندفع الثمن. لا تحاول يا صديقي أن تصل إلى إجابات قاطعة لكل شيءٍ في الحياة، وإلا ستصيبك خيبة أمل قد لا تكون مستعدًا لها. صدقني.

ودعتني بابتسامتها التي عادت إليها ودلفت إلى الداخل.

***

بعد زيارتي المؤلمة لإيليانا قضيت يومين في العاصمة بين المتاحف والمقاهي التي كنا نزورها أنا وماري. تركت مغناطيسي الثالث في بلدها أمام لوحة المارون لروثكو. وأنا جالس هناك أتأمل الفضاء اللوني

الغامض وصلتني رسالة من كارين: «اليوم سيعيدون افتتاح النادي الليلي، تعالَ نتقابل هناك في التاسعة. سأترك اسمك على الباب في حال تأخرت عليك».

ظللت أنظر للهاتف مستغربًا. لِمَ النادي الليلي؟ هل هذا أفضل مكان للحديث والمواجهة؟ ربما كانت تريد أن تودعني قبل سفري ليلة غد. نظرت في ساعتي. أمامي نصف ساعة قبل تحرك القطار إلى البلدة.

أرحت رأسي على المسند وأنا أسرح ناظرًا من النافذة التي تشكلت من خلفها الغابات والحدائق بفعل المطر حتى استحالت لوحة انطباعية لمونيه.

في اللحظات الأخيرة قبل الانفجار، اقتربت ماري من أولجا وفريدريك وأخبرتهما هامسة أنها قلقة على رقية. رجتهما أن يعودا في التو إلى منزل لاورا للاطمئنان عليها. «ولكن القداس على وشك البدء»، احتجت أولجا. ولكن ماري، التي كان قد بدا عليها توتر أشد من أن يتجاهلاه، أصرت على ذلك، وهددت بأن تترك المكان وتذهب مشيًا على قدميها في المطر والثلج إن لم يخضعا لرغبتها. اقترح فريدريك أن يذهب ويعود بسرعة تاركًا أولجا، ولكن ماري أصرت أن يذهبا كلاهما. «لقد تناولت بضع كئوس ولا أريدك أن تنام وأنت في الطريق، خذ ماما معك، فقط اطمئنا عليها وعودا». احتضنتهما بقوة شديدة وقبَّلت وجنتي أبيها. ظنت أولجا أنها سمعتها تقول: «أنا آسفة»، ولكنها لم تكن متأكدة إن كان هذا بفعل الشراب أم الضوضاء.

بعد مغادرتهما ببضع دقائق، وما إن عرجا بالسيارة على الطريق الرئيسي تاركين وراءهما الكنيسة التي كانت لا تزال على مرمى البصر، ارتجت المركبة بدوي انفجار هائل قادم من بعيد.

***

في التاسعة تمامًا كنت على باب النادي. الدخول له من باب ضيق في زقاق جانبي. الضوضاء المكتومة للموسيقى تأتي من الداخل بشكل

مستمر لا ينقطع. كلما فتح الباب تظهر الموسيقى فجأة قبل أن ينغلق وتعود ضربات الصوت الجهير العميقة التي تضرب في رأسي وصدري.

وكأنه يوم الحشر، كان صفًا طويلًا من الشباب والشابات يترامى أمامي. بدا في طوله الثعباني بلا نهاية. وقفت بصبر أحسد عليه منتظرًا دوري في الدخول. جلت بنظري في كل مَن حولي فشعرت بالغثيان. لم نكن أنا وماري بثيابها المكسية وطرحتها نحلم بدخول مثل هذا المكان حين كنا هنا. الواقفون لا يجمعهم سوى أنهم شباب صغار، كلهم بلا استثناء تقل أعمارهم عن نصف عمري. توقعت أن معظمهم قد زور بطاقة الهوية كي يتمكنوا من الدخول.

كانوا من كل الأشكال والألوان: بيض وسود وصفر. لاتينيون وهنود. فتيات وشبان بكمية مهولة من الحلي على وجوههن في كل فتحة طبيعية أو مصنوعة. ألوان وقصات شعورهم أبعد ما تكون عن التقليدية. ما بين قصات الموهوك والسبايك بألوان الوردي والأخضر أستغرق وقتًا حتى أتعرف إن كان الواقف أمامي ذكرًا أم أنثى. في بعض الأحيان هناك مَن هم بين الاثنين. معظمهم مجموعات أو على الأقل أزواج.

تنعكس علينا إضاءات اللافتة الضخمة التي تغير من لونها كل بضع ثوانٍ. فتاة وولد، فتيان معًا يمسكان بأيدي بعضهما البعض. على وجوه الكل نظرات ناعسة تزيد من كسلها أقلام الكحل وأدوات الماكياج التي رسمت خطوطًا حادة وألوانًا ثقيلة. يرتدون ملابس جلدية مقطعة تزينها قطع معدنية مزعجة. لم أشعر في حياتي أني لا أنتمي إلى مكان كما شعرت الآن. يزداد توتري كلما اقتربت من الباب وأردت أن أعود أدراجي بأسرع ما يمكن. أمني نفسي بكنائس روما ونوافيرها وتماثيل برنيني ومايكل أنجلو التي سأكون بينها بعد ساعات.

إلى هنا كانت ماري تأتي كثيرًا وهي صغيرة. حكت لي عن هذا النادي مرارًا عندما كنا نمر بالمنطقة القريبة منه. «الحانات للعجائز»، فاجأتني

حين عدت سعيدًا بأول زيارة لحانة تقليدية مع أبيها. رغم أني لم أشرب سوى المياه وفنجان من القهوة إلا أني كنت مبهورًا بالأجواء الدافئة والهادئة. «أنت رجل عجوز محبوس في جسد شاب»، كانت تقول وهي تضحك بينما تذهب عيناها في حنين إلى أيام المجون. «لم تكن لتعرفني إن قابلتني حينئذٍ».

نظرت إلى فتاة ممتلئة تقف بجوار الباب مع صديقات لها. لم تكن تتعدى الخامسة عشرة. ترتدي تنورة قصيرة للغاية وبلوزة خرج منها ثديها اليافع الذي اجتهدت في إبرازه، مسرعة بإنضاجه وهو لم يزل في طور طفولته بعد.

«هناك شفرة بيننا نحن الفتيات في مثل هذه السهرات. إذا كنت سأعري صدري فلا بد أن أغطي نصفي الأسفل، والعكس صحيح. أما مَن تُعري الاثنين فإنها على الفور تُحسب عاهرة، أو بمعنى أصح تسعى وراء مظهر العاهرة»، اعتادت أن تخبرني ماري.

سألتها أيهما كانت تفضل أن تعري، وجاءت الإجابة كما توقعت تمامًا.

***

أفقت من شرودي على صوت الحارس الذي وصلت أمامه لا أعلم متى. «مرحبًا يا والدي، أتيت لبعض المرح؟ مَن معك؟»، نظرت له باشمئزاز من مزاحه الثقيل. أنا في الثالثة والأربعين، لماذا ينعتني بذلك؟ ولكنه، على ضخامته، كان طفلًا.

«اسمي مسجل عندك».

أعطيته جواز سفري مطالعًا عضلاته النافرة التي تغطيها الوشوم. إنه بعد صغير على كل هذه المواد التي حقن نفسه بها. لا بد أنه يجد صعوبة في الوقوف. لا بد أنه لم يتخطَّ العشرين من عمره. شعرت بالرثاء نحوه فجأة. كم من فتاة نام معها وكم من مخدر تعاطى؟ كم سهرةٍ وكم أغنيةٍ رقص عليها؟ كم من اللترات شرب وكم من صباح

استيقظ فيه تائهًا لا يعلم أين هو؟ مَن الذي باعه الوهم بأن هذه هي السعادة في الحياة؟

رفع رأسه من اللوح الرقمي في يديه وانتحى جانبًا مشيرًا لي بالدخول بعد أن ناولني جواز السفر وختم يدي. «لا تُفرط في الرقص حتى لا تصيبك أزمة قلبية»، قال ضاحكًا بينما عبرت إلى الداخل.

***

قابلتني الموسيقى والروائح بهجوم عاتٍ. سرت في ممر ضيق مكسو بالجلد المبطن. عليه كانت رسوم الجرافيتي المشوهة. الممر مزدحم للغاية بالواقفين. فتاتان تُقبّلان بعضهما. تحاشيت النظر قدر الإمكان. كنت أبدو شاذًا عن بقية الموجودين بمعطفي الرصاصي الطويل والكنزة الصوفية السوداء ذات الرقبة وبنطلوني الرمادي. لم ألمح أحدًا في مثل بدانتي أو بلحية كثيفة مشعثة كلحيتي. الميزة هنا أن أيًا كانت هيئتك ستبدو كصيحةٍ عصريةٍ، لا مكان للشذوذ هنا لأن الكل هنا شواذ عن قواعد الخارج، الشذوذ هنا هو القاعدة.

مررت بين الأجساد المتلاحمة حتى وصلت إلى ساحة الرقص الواسعة نسبيًا. الموسيقى الآن أعلى. عشرات الشباب والفتيات يرقصون أمامي. الكل متلاصق سواء رغبة منهم أو رغمًا عنهم من ضيق المكان. الظلام الأسود هو الغالب، عدا مصابيح ملونة توجّه أشعتها كل حين وآخر فتُغرق الوجوه والملابس بصبغة مشبعة بالأرجواني والأحمر والأزرق.

أخرج هاتفي. لا يوجد إرسال. كارين لم ترسل شيئًا حتى دخلت. أقف مرتبكًا وتبدأ أذني في الطقطقة من الضجيج. روائح العرق المختلطة بالعطور الرخيصة تجعل التنفس مستحيلًا. إذا كان هناك شيء واحد لم تفلح الحضارة الغربية فائقة التقدم في تغييره هو كراهيتهم للنظافة الشخصية. لم يزل ميراث العصور الوسطى في رفض الاستحمام وتوفير المياه قابعًا فوق أجسادهم منذ مئات السنين.

أنظر في هلع إلى البار، المكان الوحيد الذي يحوي مقاعد، وأشعر

باستحالة وصولي إلى هناك بين كل تلك الأجساد. أستجمع شجاعتي حين أشعر بالتعب من الوقوف فأبدأ باختراقها الواحد تلو الآخر. أحاول تفادي الأولاد المخمورين قدر الإمكان، لا أريد لأحد أن يلمسني خاصة لو كان شابًا شاذًا. يزداد شعوري بالقرف مع كل خطوة أخطوها. أغمض عيني وأمسك بنفسي بينما أستأذن بشكل تكراري كي أمر. تصطدم قدمي بشيءٍ صلب فتؤلمني. أنظر فأجد شابًا ذا جسد ضامر يجلس على كرسي متحرك ممسكًا بزجاجة بيرة في يده. أعتذر له بينما أدور من حوله وأواصل طريقي.

على البار أجلس فوق الكرسي الطويل مطالعًا مئات الزجاجات الملونة أمامي. تبدو بانعكاس الأضواء عليها مغرية للغاية. فتاتان رائعتا الجمال تتحركان خلف البار يمينًا ويسارًا بمهارةٍ كبيرة. تُحضران المشروبات للشباب المتكالب دون أن تفارقهما الابتسامة. تلك الابتسامة العملية المفتعلة التي أكرهها.. ولكني أطالع جمالهما دونما اعتراض.

كان مستحيلًا أن أصرخ لإحداهما كي تأتيني بشيء، فانتظرت حتى تلاقت أعيننا وطلبت من الحسناء كوبًا من الكونياك والليمون.

مع الكأس الثانية كانت أجواء الطاقة التي تبعثها الموسيقى تثير بداخلي رغبة عارمة في التحرك. رغمًا عني شعرت بالتفاؤل والاستثارة. كان ذلك إحساسًا مختلفًا عن شعور الاسترخاء الذي يأتيني عند الشرب في حانة، أو النوم الكئيب الذي يحل عليّ حين أشرب وحدي. هنا كان الشراب يمنحني شعورًا بالخفة والتحرر.

عدت أطالع المسرح من حولي وأنا أشاهد الجيل الصغير وهو يرقص محاولًا نسيان همومه. هموم لا يعرف شيئًا عن ثقلها الذي سيسحق تحته في سنوات العمر القادمة. إنهم لا يعانون همًا لأنهم لا يكترثون بشيء غير أنفسهم. أشك أن أيًا منهم يشعر بثقل الحادث الذي أصاب بلدتهم، إلا لو كانوا هناك أو فقدوا أحدًا من الأصدقاء أو العائلة. إنهم

هنا للاحتفال بشبابهم. ذلك الشباب الذي فقدته دون أن أدري متى في خضم أحلامي المؤجلة وكوابيس الحاضر. شبابي الذي لم أعشه لأني أردت أن أفعل كل ما هو صواب، فغادرني تاركًا إياي محبوسًا داخل جسدي وعقلي. كنت أريد أن أحافظ على نفسي نقيًا حتى أكون خالقًا للفن والكمال، أردت أن أعيشه وأصبحه. وحين تألمت. وحين كفرت بكل شيء، وتركت جسدي ليتحلل في أتون المتعة، اكتشفت أنه قد عطب، وأن ما شكلته السنوات داخل عقلي وروحي كان أقوى من جسدي، لم يكن جسدًا مستعدًا للمتعة.

يداهمني إحساس مفاجئ بالإدراك. وأول ما أدركه أنني لم أكتب سوى ثلاثة كتب في حياتي. كان إحساسًا مضحكًا وكأنه خبر جديد أعلمتني به حسناء البار للتو. نظرت للكوب والسخونة تملأ رأسي وتخرج من أذني: ثلاثة كتب. مهما كانت عظيمة ما رصيدها؟ ماذا فعلت؟ حتى لو كنت أستحق الجائزة. ماذا تُعد بجوار مئات الكتب التي قرأتها. لِمَ قرأتها في الأساس؟ هل جعلتني إنسانًا أفضل؟ أكثر حساسية؟ أكثر انفتاحًا وتفهمًا للبشر وتعقدهم؟ أكثر فهمًا للتاريخ ولمكاني في هذا العالم؟ إنها لم تعزز عندي سوى إحساسي باحتقارهم جميعًا. عمًا قريب سأموت. باختياري وبيدي سأنهي حياتي. ستُدفن جثتي وتتلاشى ولن يبقى مني سوى قصة لن يحكيها أحد. وستتوقف كتبي عن الطبع، ولن تجد طريقها سوى لأرفف المكتبات الصغيرة، باعة الكتب المستعملة، أو الصناديق المتربة. هذا هو كل ما تبقى من فكري وفني وإنجازي في الحياة. لا شيء. هذا هو كنه الأمر وحقيقته.. لا شيء.

حاولت الهروب من أفكاري اليائسة بالتفرج على المسرح الصغير الذي وقف عليه الشباب الأكثر جرأة، هؤلاء الذين لا يخافون جذب الأنظار ويرقصون في مكان أعلى وأكثر إضاءة عن غيره.

حكت لي ماري بعد كثير من الضغط عن إحدى الإجازات التي قضتها بجزيرة سياحية. النادي الليلي هناك من أشهر النوادي التي يرتادها الشباب في رحلات الصيف من كل أنحاء العالم. كان يُقام مهرجان

للموسيقى، وباتت شهرة النادي تفوق الوصف، أصبح الشباب يتقاتلون كي يحصلوا على تذكرةٍ لدخوله، وقد يصل الأمر إلى النوم مع الحراس أو المنظمين فقط للحصول على فرصة السهر هناك. «قبل أن تشطح بخيالك لم أنَم مع أحد من أجل تذكرة»، حذرتني وكأنها تقرأ أفكاري. ذلك النادي كانت شهرته الأساسية تأتي من توفر المخدرات والمهلوسات فيه، واستضافته لأكبر الموسيقيين في العالم، وحضور المشاهير في بعض الأحيان الذين يعشقون حياة الليل والسهر.

على مسرح النادي كانت تُقام عدة ألعاب، وهي ألعاب منتشرة بين الشباب في هذه الأوساط والأجواء، الهدف منها استثارة روح المغامرة والتحدي بداخلهم. في الليلة المشهودة طلب المضيف أن يصعد كل اثنين، ولد وفتاة، إلى المسرح للعب، والزوج الفائز سيحصل على مشروباته مجانًا لبقية الليلة. بسرعة تطوعت ماري وأحد رفاقها للمشاركة.

على المسرح تم شرح قواعد اللعبة للأزواج الأربعة الواقفين أمام الجمهور الذي يصرخ تحتهم بجنون: كل زوج سوف يقوم بتمثيل أوضاع جنسية معين يرشدهم المضيف إليها في الميكروفون، ويجب عليهم أن يغيروا من هذه الأوضاع بسرعة وعلى الفور ما إن يأمرهم بذلك. الشرط هنا هو أنه عند تغيير كل وضع يقوم كلا المشاركين بخلع قطعةٍ من ملابسهما.

كانت لحظة من الجنون والإثارة.. الأضواء.. الشهرة..

بدأت اللعبة. اشتعلت الأضواء والموسيقى. كان الكل متحمسًا ويصرخ بينما يقوم الأزواج بالتقبيل. «لنضفي بعضًا من المرح الآن»، صرخ الـ «DJ» طالبًا منهم أن يقوموا بالوضع الأول. نسي زوج منهما خلع شيءٍ من ملابسهما فاعتُبرا خاسرين وغادرا المسرح على الفور. أما ماري التي كانت مخمورة للغاية فقد خلعت الجاكيت على الفور، بينما خلع الولد التي شيرت الذي لم يكن يرتدي تحته شيئًا.

مع تغيير كل وضع، وخلع قطعة تلو الأخرى، كانت الأمور تزداد إثارة وسخونة. الموسيقى تعلو والخمر الفوارة تُغرقهم بخراطيم يحملها أحد المساعدين من جانب المسرح. يفتحون أفواههم لتلقي أي قدر منها. حين لم يبقَ للمتسابقين سوى الملابس الداخلية غادر أحد الأزواج لشعورهما بالخجل. لم يبقَ سوى زوجين عنيدين. خلعت ماري صدريتها بجرأة رهيبة، وكذلك فعلت الفتاة الأخرى. «كانت رفيعة بثديين ممسوحين، لم تحصل على الصراخ الذي حصلت عليه أنا. جن جنون الواقفين وغطى صراخهم الموسيقى». قاما بعمل تمثيل لوضع ساخن آخر. في النهاية نجحت ماري ورفيقها في الفوز بالمسابقة لأنهما كانا الأجرأ حين خلع كلاهما سرواله الداخلي في حين غادرت الفتاة الأخيرة وهي تبكي من الخجل بينما رفيقها يحاول إقناعها بالبقاء.

ضحكت ماري بصوتٍ عالٍ وهي تتذكر: «كنا نقوم بتمثيل وضع الـ 69 حين أصابني فجأة الدوار من فرط الشراب والقفز والالتفاف فتقيأت بكل قوتي فوق جسده كله». كان منظرًا مقرفًا ومضحكًا بالطبع، ولكنها حصلت على ما أرادته: ظلت تحكي تلك القصة بين أصدقائها كأسطورةٍ لن تتكرر، كما أنها استمتعت بالمزيد من الشراب المجاني طوال الليلة. «تقيأت مرتين أخريين تلك الليلة. يا إلهي! كم كان هذا مضحكًا!»

***

استرعى انتباهي فجأة رائحة عطر رائع أخرجني من شرودي. كاد قلبي يتوقف وأنا أغرق في الذكريات التي جعلت كل قطعة من جسدي تغلي. لولا تلك الرائحة لكان القرف الذي ينتابني الآن قد استولى عليّ. نظرت بجانبي فوجدت سيدة طويلة بشعر أحمر يصل إلى نصف ظهرها. كانت تجلس بجانبي وتطلب شيئًا من حسناء البار. رغم كل التحذيرات التي يقولونها حول ضرورة عدم التحديق إلى أحد، إلا أني لم أستطع أن أمنع نفسي. كنت في كأسي الرابعة وكان رأسي يدور حتى إني نسيت سبب وجودي هنا. كان كل شيءٍ فيها يصرخ بالنظافة والشهوة.. جسدها الممشوق ومكياجها الهادئ المرسوم بعناية، أظافرها

البلاستيكية الملونة، نضجها.. كانت تقربني سنًا وجعلتني أشعر للحظةٍ بأني قد وجدت أحضان الديار مرة أخرى. لم أكن وحيدًا أخيرًا. كان شعورًا لا يوصف. ورائحتها. كانت كنسيم البحر وسط موجة العفن التي نجلس بينها.

فجأة استدارت نحوي، نظرت أمامي بسرعة وقلبي يدق. نظرت مرة أخرى بطرف عيني فكانت تبتسم. شرعت في التحدث. ولكني لم أسمع شيئًا من الضجيج. ملت برأسي نحوها حتى ألصقت أذني بشفتيها وأنا غير مصدق.

- هل أنت وحدك هنا؟

أومأت برأسي.

- وأنتِ؟

أجابت بالإيماء هي الأخرى.

- هذه جريمة. قلت.

- أنا أيضًا أظن ذلك.

وبسرعة بدأ حديثنا، وبسرعة أكبر صارت أكثر حميمية بعد كأسها الثانية. أخبرتني أن اسمها صوفيا، وأنها تقيم بالخارج وأتت إلى هنا لتزور أخاها الذي أصيب في حادث الكنيسة. أبديت أسفي ولكنها طمأنتني بأن إصابته كانت خفيفة. سألتني عن سبب وجودي هنا فأخبرتها شيئًا لا أذكره.

هززت رأسي بتأثر وبدأت أتمايل معها على الموسيقى الصاخبة. دعوتها إلى الرقص.

- أنا لا أحسن الرقص ولكن قد أغامر إن وعدتني ألا تضحكي.

ضحكت. وحين قفزت من على الكرسي مادت بي الأرض وأدركت كم

احتسيت من الشراب.

***

لا أدري متى بالضبط ظهر الشاب مفتول العضلات أمامنا. تقريبًا حين كنت أمد يدي لأساعد الفتاة على النزول من على كرسيها كي نذهب للرقص. وجدت كائنًا ما يرتطم بي. نظرت له منتظرًا اعتذاره ولكنه عوضًا عن ذلك لكمني في كتفي..

- لماذا تضايق صديقتي أيها الوغد؟

نظرت له ولها دون أن أفهم. كانت تتحاشى نظرتي.

- صديقة مَن؟ أنت الوغد الحقير ولست أنا.

ابتسم الكائن وبدأت ألحظ اقتراب شابين آخرين منّا، أحدهما أسود، بدأوا في تضييق الخناق عليّ فجأة.

- أنت تسبني؟ ألا يعرف أمثالكم متى يصمتون؟ أتيت من آخر العالم كي تتحرش بفتاتي أنا؟

يتكلم وهو ملاصق لي تمامًا، عدوانية مخيفة تكسو وجهه، لا بد أن نظرة الذعر على وجهي تستثيره أكثر، مال إلى الوراء قليلًا بجسده ثم لطمني برأسه على أنفي.

سقطت لتوي.

***

حملني الشباب الثلاثة بدعوى «نقل خلافاتنا للخارج». كان ذلك يعني أن يرموا بي على الأرض الباردة والمبللة للزقاق الضيق. كانت الطوابير قد اختفت ولم يبقَ سوى قليل من المخمورين الذين اكتفوا بالمشاهدة.

أصابتني الضربة بالدوار، خاصة مع رائحة الدماء المتفجرة من أنفي، ولكنها أفاقتني رغمًا عني حتى بت مدركًا لما حولي. كل ما فكرت فيه

هو أن أقاوم ولا أترك وغدًا أبيض يفعل بي ما يحلو له.

وقفت على قدمي بينما يحومون حولي. وقف الشاب الأسود مقتربًا من وجهي بينما أترنح.

- أظن أنه يحاول الوقوف.

كان الثالث واقفًا يتفرج دون أن يقول شيئًا. تقدم الكائن نحوي.

- إنهم لا يكتفون أبدًا من ركل مؤخراتهم.

نظرت للكائن وعلى وجهي ابتسامة ساخرة. كان ذعر اللحظة الزاعقة قد اختفى، وتذكرت أني سأموت بعد أسابيع. لم تكن الابتسامة بغرض الاستفزاز بقدر ما كانت نابعة من حقيقة ظني.

- ربما سيحتاج إلى أن نركله بقوةٍ أكبر حتى يعود من حيث أتى.

ظللت مثبتًا نظرتي نحوه، وقبل أن يرفع يده كنت قد أطبقت بأصابعي على رقبة الأسود. صرخ بحشرجة مكتومة. حين نظر الكائن نحوه عالجته برأسي بضربة أسوأ من تلك التي كان قد أعطاني إياها. حين تراجع للخلف بضع خطوات التفت للشاب الأسود الذي كانت الدموع تتساقط من على وجهه من فرط الاختناق، أطبقت بأصابعي على رقبته أكثر وناولته لكمات متتالية في وجهه حتى سقط. قبل أن يستعيد الكائن توازنه ضربته بقدمي بين رجليه ثم في بطنه بكل قوتي، أردت أن يسقط على الأرض بأي ثمن لأنه إن استعاد توازنه بسرعة سيقتلني لا محالة.

بعد أن سقط كلاهما شعرت بانتصار لم أختبره طوال حياتي. نظرت لأجد ثالثهما يتقدم نحوي بهدوء.

حاولت أن آخذ وضعية تحفز.

- لقد أخبرتهما بأنه لا داعي لهذه التصرفات الصبيانية، ولكنهما أصرا. أعتذر لك. كانا يحاولان استعادة ماضينا الشقي. لا يريدان الاعتراف

بأن السنوات قد مضت ولم نعد كما كنا.

لم أفهم معنى كلامه في البداية.

ثم فهمت..

أستراليا..

- أنتم عصابة الستة..

ابتسم وهو يقف أمامي ويسحب سيجارة من العلبة بفمه.

- لم ينعتنا أحد بهذا منذ زمن بعيد.

إنه رابعهم الذي نجا.

- كارين..

- لا أعرف مشكلتها معك ولكن يبدو أنها تكن لك نفس المشاعر السيئة. تعالَ إلى الداخل.. دعنا نحتسي شرابًا.

كان طويلًا. لا بد وأنه في عمر ماري. يرتدي سترة جلدية، وذقنه نابتة، على وجهه تعبير غير مريح وكأنه على وشك التحول في أي لحظة، رقبته كلها تغطيها الوشوم كما تغطي كتفه. عيناه السوداوان وشعره الحليق مضحكين على نحوٍ ما. لم أشعر أنه أوزبي بالمرة. ناداه أحدهما وهو يتأوه باسم «كينزو»، أين رأيته من قبل؟

- سأغادر.

- أرجو أن يكون ذلك للأبد. أنت لست مُرحبًا بك هنا.

شعرت بدفء الدماء النازفة من أنفي وداخل فمي

- تظن أنك ستتنمر عليّ كما كنت تفعل مع فتاة ضعيفة في صغرها؟

بصقت بجواره.

- لم تكن ضعيفة. أنت لم تعرف ماري. نحن عرفناها جيدًا. حتى وإن

كانت.. عادت العاهرة في النهاية وقضت علينا جميعًا. قتلت كل أصدقائي. والآن تريد أنت أن تلعب دور المحقق لتبرر للعالم جريمتها؟

ابتلعت الدماء المرة.

- أنتم مَن قتلتموها يومًا تلو الآخر كي تعززوا وجودكم البائس بفرض قوتكم البربرية. إن سألتني، أنا سعيد بأنها استطاعت أن ترد لكم الصاع بألف. إنه لأمر مؤسف حقًا أنك لم تكن وسط أصدقائك الأوساخ.

في لمح البصر أخرج مسدسًا من خلف ظهره ووجد طريقه إلى جبهتي.

- أيها المسلم القذر.

توقف قلبي عن الخفقان. أغمضت عيني.. «أريد أن أموت..»، مر وقت طويل لم تزرني فيه هذه الجملة.

فليكن الآن.. فلتفعلها وتعجل بالمحتوم.

حينها فقط تذكرت مَن هو. كيف يمكن لي أن أنسى وجهه؟ مهما مرت من سنوات وتغير شكله، كيف يمكن لي أن أنسى وجه ذاك الذي أهانني يومًا منذ سنواتٍ بعيدة في محل الأحذية؟ «أريد أن أموت.. الآن».

مرت اللحظة العبثية كالدهر. فتحت عيني فوجدت وجهه القبيح ينضح بالكراهية والتردد. استدرت معطيًا إياه ظهري وبدأت في السير مبتعدًا. ما هي إلا خطوات حتى هبطت هراوة على رأسي فأسقطتني. حاولت أن أقوم بسرعةٍ ولكنه ركلني في ظهري، ثم واصل ركله لمعدتي وصدري بطرف حذائه المعدني. ألم رهيب لا يُحتمل. ظل يكرر سبابه بهستيرية حتى توقف جسدي عن الاستجابة.

ركع في وضع القرفصاء بجانبي وهو يلهث. بعين واحدة أرى البخار يخرج من فمه.

- مشكلة أمثالكم أنكم لا تحترمون حقيقة النظام الكوني. هل صدقت

أنك ستأخذ واحدة منّا فتصبح أنت واحدًا منّا؟ نعم كانت عاهرة ولكنها كانت عاهرتنا نحن.. لم يكن لك حق فيها.. أما أنت...

من بعيد تقترب أصوات «سارينة» الشرطة صادحة في الهواء.

يلطمني مرة أخرى بالمسدس قبل أن يقوم.

- ارحل عن هنا ولا تعُد أبدًا.

أراقب خطواته المبتعدة بينما يتجمد جانب وجهي الغارق في الوحل الجليدي.

كل شيء يتحرك من بعيد في خيالات افتراضية..

- أيهما كنتِ تختارين للتعرية؟ أسألها بفضول حارق..

- كلاهما. ترد.

وترن ضحكتها الخجلة أمام عيني قبل أن أسقط في ظلام تام.

القسم الثالث

«كان الألم عظيمًا، حتى إنه جعلني أتأوه، ولكن حلاوة الحدث كانت تتخطى الوجع الرهيب حتى إني أردت ألا ينتهي. الروح الآن لا يشبعها سوى الله. الألم ليس بالجسد، ولكنه في الروح حتى وإن كان للجسد نصيب منه. إنها نفحة من الحب فائقة الحلاوة تلك التي تجري الآن بين الروح والله، وأرجو من الرب بجلاله أن يشعر بما شعرت به كل مَن يظن أني أكذب».

القديسة تيريزا الأفيلية

السيرة الذاتية

حوالي عام 1560

ولد برنيني لأب نحات عديم الموهبة ومتوسط القدرة الفنية. كان ذلك في روما القرن السابع عشر (عاش برنيني طويلًا ليشهد معظم القرن ويموت قبل انتهائه بعشرين عامًا فقط). في ذلك الوقت كان بابا الفاتيكان، الرجل الأقوى على سطح الأرض، يصارع من أجل البقاء أمام كل التغيرات التي كانت تعصف بالعالم في تلك الحقبة من الزمن: العلم والتجارة والدول المكتشفة حديثًا والثروات القادمة من كل مكان، والأخطر: أفول سطوة الدين أمام تلك العوامل.

قام الأب باصطحاب ابنه لورشة كبير فناني العصر كي يتعلم النحت على يديه. ما هي إلا سنوات قليلة حتى قال المعلم كلمته في الطفل اليافع: هذا الولد موهوب موهبة استثنائية. كان برنيني وهو في سن صغيرة يظهر علامات شخصيته التي ستسود فيما بعد وتحلق في الآفاق: استغراق في العمل، عصبية، الاستعداد للذهاب إلى أبعد مدى

لتحقيق الصورة التي يراها في خياله، وقدرته على أن يسحر كل مَن يقابله.

بفضل هذه السمات المميزة تمكن برنيني بسرعة كبيرة من ارتقاء أعلى المناصب والوصول إلى أحضان أصحاب المال والسلطة في روما، كان برنيني يعرف أنك في دولة قمعية تتمتع بالفساد لا بد وأن توطد علاقتك بهؤلاء حتى تنجح. فهم برنيني الطموح والنهم للخلود في هذه اللعبة مبكرًا جدًا. وكان لذكائه هذا، مع قليل من الحظ إلى جانب موهبته الجبارة، الفضل في وصوله إلى ما وصل إليه. بعد سنوات أصبح راعيه الأساسي وأحد أكثر المؤمنين بموهبته هو الكاردينال بورجيزي، الرجل الثاني في الفاتيكان.

كان برنيني مؤهلًا عن حق لكل ما حققه. كان وسيمًا، بعينين لهما نظرات نارية تخيف وتأسر كل من ينظر إليه. كان مثقفًا، يكره الخمور والشراب، يرتدي أفخم الثياب، ملفتًا للأنظار وعاشقًا لعمله، أما همته كفنان فكانت تروى عنها القصص: كيف أنه لا يتكلم ولا يأكل ولا ينام بالأيام حين يكون مستغرقًا في نحت تمثال جديد، وأن تلاميذه حين يحاولون إجباره على الخروج من ورشته تكون إجابتهم سبابًا وركلًا لا يقوون على مجابهته.

قبل أن يتم عامه التاسع والعشرين أصبح «فارسًا»، وهو ما كان مثار حقد وحسد كل مَن حوله. ما هي مواهب برنيني التي ظهرت بشكل مبكر؟ النحت والتمثيل والرسم وتأليف المسرحيات والموسيقى. كان فنانًا حقيقيًا متعدد المواهب، وبدأت النبوءة التي تنبأ له بها كل من عرفوه صغيرًا في التحقق سريعًا جدًا: إنه مايكل أنجلو القادم.

كان مايكل أنجلو، الذي سبق برنيني إلى روما بمائة عام، هو الأسطورة الباقية حتى الآن بآثاره التي تركها في كل مكان: قبة سانت بيتر، كنيسة الفاتيكان الرئيسية، وتماثيل لا تعد ولا تحصى في كل الميادين والشوارع، وحتى بعض البيوت.

قدم برنيني تمثالا حسيًا مخيفًا باسم «اغتصاب بروسرباين»، وأصبح في يوم وليلة نجمًا لا يضاهي نجوميته أحد. كان التمثال عنيفًا وفاضحًا ومتحركًا بشكل دفع الناس للقدوم من كل حدب وصوب لمشاهدته. في ليلةٍ وضحاها بات حديث الكل، حتى إن الناس كانت تعرفه وهو يسير بخيلاء مرتديًا ثياب الفروسية الفخمة بشوارع روما، ويشيرون نحوه منبهرين. كانت رؤيته في نحت تماثيل تختلف كلية عمَّا أبدعه مايكل أنجلو، الشبح الذي ظل يطارده طوال حياته، وفي ذات الوقت تحقق نفس المرتبة من الخلود وقوة التعبير والوجود، قد بدأت تتحقق شيئًا فشيئًا. ثم أتاه الحظ مبتسمًا وفاتحًا ذراعيه بكل ما يمكن أن يتمناه فنان مهووس وطموح مثله.

تم تنصيب أحد أهم رعاته بابا الفاتيكان الجديد، أوربان الثامن، والذي استدعاه بعد أن تم تنصيبه في المنصب الأرفع في العالم المسيحي، وأخبره بهذه المقولة التي سجلتها كتب السيرة: «إنك محظوظ لوجودك في زمن منحنا فيه البابوية، ولكننا نحن الأكثر حظًا أن عبقريًا مثلك يعيش بيننا». ومعًا قررا بناء روما جديدة تمجد اسميهما في التاريخ.

بعد تعيين برنيني فنان الفاتيكان الرسمي وهو بعد في الحادية والثلاثين، أطلقت يداه لأن يفعل ما يشاء بالمدينة. زاد الطلب عليه بشكل مخيف. كان يعمل ليل نهار هو وفريق كامل في ورشته: تماثيل للكنائس، بيوت الأغنياء، الميادين. شواهد قبور، زينة الأفراح، نوافير، تخطيط الشوارع والميادين، وبناء الكنائس والكاتدرائيات. كان يرسم المخططات المبدئية، يبدأ في تنفيذ الأفكار، ثم يترك تلامذته يكملونها.

وفي ورشته كان برنيني يلقن تلامذته درسًا بتكرار: من الضروري أن تتعلم القواعد، ولكن هؤلاء الذين لا يجرؤون على كسرها لن يحظوا بفرصة تخطيها للأبد. كان فخر برنيني بالتفاصيل التي أبدعها غيره كجزء من تماثيله، وهو ينسبها إلى نفسه، مثار كراهية رهيبة لكثير من مساعديه، ومنهم مَن غادر ورشته ولم يعُد أبدًا بسبب هذه الخصلة

القذرة. أشهرهم بوناريللي الذي أبدع الزهور المبهرة في تمثال أبوللو ودافني الشهير.

في وسط هذا الزخم الرهيب من النجاح والشهرة والصعود السريع كالصاروخ، كان برنيني يظهر وجهًا آخر شديد القبح. ولم يكن وجهًا خفيًا، بل على العكس، من فرط جبروت الشهرة والثقة، كان وجهًا يعرفه الجميع.

كان برنيني على مواهبه المتعددة يعاني من قصور في علوم وفنون الهندسة والمعمار. وكانت هذه نقيصة خطيرة فيمَن أوكلت إليه مهمة بناء روما الجديدة. وكعادته في الاستعانة بمعاونيه، طلب برنيني أن يساعده أكثر مهندسي عصره معرفةً وقدرة: بوروميني.

لم يكن بوروميني غريبًا عن البلاط البابوي، فقد كان المساعد الأول لأهم معماري وبنَّاء في الجيل السابق. وكان المتوقع حين يرحل المهندس الكبير أن يحل بوروميني محله، ولكن لأن العلاقات والمحاباة كانت هي الرابحة، فقد تم اختيار برنيني للإشراف على كل ما يخص الفنون ومنها العمارة، رغم أن بوروميني كان يتفوق عليه في ذلك بمراحل.

قَبِل بوروميني المهمة وبدأ في التعامل مع الفنان الكبير، ليس بوصفه مساعدًا له، ولكن كمثيل ومماثل وند. لم يكن هذا يعجب برنيني، وكثيرًا ما كان يصرخ في وجهه أمام المساعدين والعمال لأنه لا شك لم يكن يتقبل شعورًا بالدونية المعرفية أمامه.

كان الاختلاف بين برنيني وبوروميني كاختلاف الليل والنهار، برنيني الزاعق المتغطرس متعدد العلاقات النسائية، بينما بوروميني الهادئ والمنطوي، مسيحي ملتزم بكل ما جاء في الكتاب المقدس.

يمنح التاريخ الفضل لكليهما في بناء روما الباروكية على اختلاف أساليب كليهما في العمل: ما بين المساحات البيضاء الرائقة البعيدة عن الزخرفة والبساطة المسيحية الأصيلة التي يحبها بوروميني، وهي

تعكس شخصيته لا شك، وبين عشق برنيني للألوان والأشكال والإعدادات المسرحية والدرامية لكل مكان يقوم بتصميمه مهما كانت المساحة صغيرة.

ظلت الصراعات بين الاثنين خفية لفترة من الوقت. ثم حدث التحول الذي لا بد وأن يحدث في أي قصة درامية تستحق أن تحكى.

غني عن القول أن برنيني كان زير نساء عدوانيًا. وكانت ميوله للعنف تظهر ليس فقط في انفجارات غضبه أثناء العمل، ولكن أيضًا في عراك الحانات ودعوته لخصومه للمبارزة في أي وقت. كان مؤمنًا أنه قد حصل على العفو الإلهي عن كل خطاياه بفضل موهبته. سواء كان الغفران من الله أو من البابا الذي يعامله معاملة الطفل المدلل. كان برنيني يرى أنه يستحق كل شيء، وأن كل ما يضع يديه عليه، تمامًا مثل الرخام الذي يطوعه لصناعة تماثيله، يصير ملكه.

في أحد الأيام التقى برنيني السيدة كوستانزا. شابة ممتلئة بعض الشيء بشفاه تدعو إلى التقبيل، وروح لعوب وطاقة مفعمة بالحياة والشهوانية. قرر برنيني أنها ستكون له، ولم تمانع هي كثيرًا أن يحصل عليها. لا بد وأنها ظنت نفسها محظوظة أنها قد خطفت أنظار نجم المجتمع الباروكي وأكثر فنانيه شهرة ونجومية. واستمرت علاقتهما مدة طويلة.

ولكن كانت هناك مشكلة صغيرة: أن السيدة كوستانزا متزوجة. ممَّن؟ أحد مساعدي برنيني، السيد المحترم ماتيو بوناريللي، الذي ذكرناه منذ قليل.

كأي ملهمة كان لكوستانزا نصيب من فن عشيقها، وخلدها في تمثال نصفي يراه الناس حتى اليوم بمتحف البارجيللو في فلورنسا. وتكمن قيمة التمثال ليس فقط في قدرة برنيني الفريدة على تصوير سمات شخصية كوستانزا الفريدة، جسدها الشهواني وشفاهها الداعية وشعرها الجريء، ولكن أيضًا في أنها حفظت لنا وجهها قبل أن يتشوه

ببشاعة على يد الفنان العظيم حتى ماتت.

واصل برنيني علاقته بكوستانزا، وقدم بعضًا من أهم أعماله بمساعدة الرجل الذي يخونه كل ليلةٍ في فراشه.

على الناحية الأخرى واصل نجاحاته المتواصلة بالتعاون مع المهندس المؤمن بوروميني ، مهًا كانا يعملان على مشروع طموح أصاب برنيني بالهوس ليل نهار: رفع أعمدة البازيليكا التي قام مايكل أنجلو ببنائها في القرن السابق. كانت هذه فرصة برنيني كي يقع في مواجهة مباشرة وحتمية مع مايكل أنجلو، منافسه اللدود من عالم الخلود.

وصلت الخلافات بين برنيني وبوروميني حدًا رهيبًا حين أعلن الأخير للجميع أن الأعمدة التي يريد أن يبنيها برنيني لن تتحملها الكنيسة. كان بوروميني المهندس الأكثر علمًا، ولذلك لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يغفل أحد رأيه، ولكن برنيني كان هو الأكثر سحرًا، وتأثيرًا، و... نعم: سلطةً.

استمر العمل على الأعمدة، وكان أحد أهم معاوني برنيني في هذه الفترة هو أخوه الأصغر لويجي. وكان لويجي ينظر لأخيه بكثير من الإلهام والفخر، والغيرة ربما. كان نحاتًا ومهندسًا هو الآخر ولكن بالطبع تضاءلت مكانته كثيرًا وتوارى في ظل أخيه الأشهر.

ولذلك ربما لم يجد لويجي وسيلة للشعور بأنه يحقق شيئًا مما يحقق أخوه سوى المضمار الوحيد الذي يمكن فيه للرجل أن ينافس رجلًا يفوقه قدرةً وموهبةً ونجاحًا: حضن امرأة.

وكما فعلها برنيني من قبل مع مساعده، كانت علاقة لويجي بكوستانزا. ثم كان أن عرف برنيني أن عشيقته التي تخون زوجها معه كانت تخونه هو مع أخيه. ثم كان أن استشاط غضبًا كما لم يغضب في حياته من قبل. كيف لامرأةٍ هي ملكه، كيف لأي شيء هو ملكه، أن يكون في يد آخر. ويد مَن؟ يد أخيه الأصغر؟

وهنا خرج الشيطان الكامن بداخل برنيني. خرج كما لم يخرج من قبل. ذلك الرجل الذي قال الناس إنه نصف إنسان ونصف إله. ذلك الرجل الذي ألهم حماس وخيال آلاف الحجاج والمصلين بفنه وإعلائه من قيمة صراع الإنسان بين الروح والرغبة، ذلك الرجل اختار أن ينحاز إلى أحط ما تنحاز إليه نفس إنسانية: شهوة الانتقام، والملكية، والرغبة.

وتمامًا مثلما كان بين الأخوين الأولين قابيل وهابيل، دعا برنيني أخاه لنزال شرفٍ، وكاد يقتله.

في نفس اللحظة التي كان ينازل برنيني أخاه محاكيًا أول جريمةٍ في التاريخ، كان خادمه الأمين يطرق باب منزل كوستانزا ويمزق وجهها بسكين ربما مثل تلك التي استخدمها عشيقها يومًا لينحت تمثالًا يخلد جمالها.

ربما تظن كما يظن أي عاقل أن نهاية هذه اللحظة الدراماتيكية ستكون معروفة، وأن برنيني لاقى المصير الذي يستحقه. ولكن هذا ما أخبرنا المؤرخون أنه قد حدث: سجنت كوستانزا بتهمة الفسق، سجن الخادم لتشويهه السيدة، وترك الزوج العمل بورشة برنيني مكللًا بالعار والخزي.

وبرنيني؟ استدعاه البابا ووبخه على أفعاله المجنونة واندفاعه الأحمق، وقرر أن يزوجه أجمل فتاة في روما حتى يهدأ ويستقر ويركز في عمله. فلديه مهمة ضخمة بين يديه: الأعمدة التي ستغير من شكل روما إلى الأبد، ومع أبدية إطلالتها في الأفق ستخلد اسم البابا الذي أمر بتشييدها وأنفق من مال الكنيسة عليها، والفنان الذي أبدعها.

وقد كان. تزوج برنيني ابنة أحد النبلاء، وواصل عمله ليل نهار لإتمام تحفته المعمارية. هكذا دونما عقاب. هكذا.. دونما ندم. بالطبع تخلص من بوروميني الذي صدعه ليل نهار بخطورة خططه المجنونة. أمر برفده وإبعاده عن الكنيسة بعدما تحفظ على رسوماته ومخطوطاته جميعها.

وكأي مسيحي طيب، كان بورومينى لا يزال يراسل برنيني وكل مَن قد يسمع له ليخبرهم أنهم يتوجهون بأقصى سرعةٍ نحو كارثة محدقة. أي روح وأي إيمان كان يمتلكهما هذا الرجل الذي أغفله التاريخ.

جرى الافتتاح بأعظم ما يكون. وربما كان برنيني المحمل بالندم على ما اقترفت يداه قد نسي في هذه اللحظة من الأبهة ما حدث، لأنه كان مشغولًا بمعركةٍ أخرى أهم وأكبر: مكانته في الخلود مقارنة بمايكل أنجلو. أكاد أراه وهو يقف تحت القبة العظيمة يستمع إلى الشعراء وهم يخطبون الشعر في عظمة البابا والفنان، وهو يشرد متخيلًا ما كان سيفكر فيه مايكل أنجلو لو كان هناك.

لم يمر سوى شهرين حتى بدأت الشقوق تظهر في البرج. بعد محاولات يائسة لإنقاذ الموقف كان القرار أن البرجين اللذين استغرقا خمس سنوات للبناء يجب أن يتم هدمهما وإلا انهارت الكنيسة كلها وصارت فضيحة. غضب البابا ومَن حوله على الفنان العظيم. سحبت منه كل القوى والسلطة، وبات مثار سخرية الناس، وذاق الفشل والتجاهل لأول مرةٍ في حياته. أصابه الاكتئاب والبؤس بشكل لم يكن يتخيله أكثر كارهيه. ثم وصلت لعنة الموت لتوغل في الانتقام من برنيني: مات البابا، راعيه وحاميه، وأقصي برنيني من كل مهامه، وأرسل إلى الكابوس الذي كان يخافه طيلة حياته: ظلام المجهول.

وعاش عشر سنوات من العزلة والوحدة والندم وجلد الذات.

إلى أن عاد وهو في الستين من عمره ليصنع تمثالًا سيغير كل شيء رأسًا على عقب.

تمثال اسمه (نشوة القديسة تيريزا).

***

«أورورا...»

أستيقظ فجأةً على هواء الغرفة الثقيل والضوضاء المكتومة المتسللة

عبر شقوق الجدران من الخارج. أفتقد سريري ورائحة بيتي. أجواء الفنادق والنزُل ترهقني وتعزز من شعوري بالعزلة، حتى العريقة كذلك الذي أستيقظ فيه الآن. أحدق في السقف لدقائق وأنا أستمع لأصوات المارة التي لم أتعود عليها في الحي الهادئ بالديار. بقايا الحلم لا تزال تتردد بهمس ماري في أذني: «أورورا...»

تمكنت من القيام والجلوس على طرف السرير بصعوبة. لا تزال الرضوض والكدمات في معدتي وعظامي تؤلمني كلما تحركت، خاصة ساعة الاستيقاظ. التورم في رأسي يتركني لساعات لا تنتهي من الصداع.

شعرت أني أفضل بعد أن استحممت. وأنا أجفف نفسي بالمنشفة في الحمام أطلت النظر إلى وجهي. أول ما فعلته منذ وصولي إلى هنا كان الذهاب للحلاق لتخفيف شعري وذقني. سقطت مع شعراتي الكثيفة والمتشابكة الكثير من متاعب الرحلة، وكشفت لي بعضًا من وجهي المثقل بالأوجاع. كانت هذه خطتي الطفولية: أن أكشف لنفسي وجهي بالتدريج كلما اقتربت ساعة الرحيل.

لست مستعدًا لأن أراه مبكرًا.. ولا أريد أن أغادر قبل أن أعرفه جيدًا.

نزلت إلى الشارع بعد أن سلمت على السيدة ليفيا. كانت العجوز المرحة ترطن بالإيطالية بسرعة رهيبة وهي تشير إلى ما حول عينها، ورددت تحيتها بالإنجليزية. اعتمدنا طريقة التواصل تلك بنبرة الصوت والإشارة عوضًا عن معاني الكلام.

كان الشارع الصغير المتفرع من شارع مودينو منتشيًا بالمارة النشطين مثل كل صباح. أغلبهم من السائحين والبائعين بصيحاتهم وضجيجهم ووقفاتهم المرتبكة عند تقاطعات الشوارع. اشتريت بعض المعجنات وتناولتها أثناء سيري. خرجت إلى شارع تورينو وسرت ببطء شديد متأملًا المعمار من حولي ومستنشقًا الهواء قدر الإمكان. تعلمت من خطأ المرة الفائتة حين أتيت لزيارتها مع ماري، كانت مزدحمة للغاية

حين كنا هنا في أغسطس في أول النهار واضطررنا للوقوف أكثر من ساعتين كي ندخل. اليوم أؤخر نفسي قدر الإمكان كي أصل في الثالثة وأبقى هناك آخر ساعتين قبل أن تغلق الكنيسة أبوابها.

واصلت المسير إلى ميدان سان بيرناردو، وعبرته إلى شارع سبتمبر، وما إن لاحت كنيسة سانتا ماريا ديلا فيتوريا الصغيرة في الأفق، حتى تدفقت من بين حجارتها عشرات الذكريات.

***

في ذلك اليوم الذي مارسنا فيه الحب سويًا لأول مرة، كنت قد اصطحبت ماري إلى روما لمشاهدة تمثال «نشوة القديسة تيريزا» لبرنيني.

أذكر اليوم وكأنه كان بالأمس. كنا في أغسطس وحرارة الجو لا يرطبها شيء. الميدان يعج بالسائحين وطابور الانتظار الطويل يمتد من مدخل الكنيسة وحتى ساحة القديسة سوزانا. رفعت ماري يدها البيضاء بإحدى مطويات الدعاية للمتحف تخبئ بها وجهها من الشمس. كانت ترتدي طرحتها وعباءتها الأرجوانية الزاهية، وحذاءً رياضيًا أبيض. لم نتوقف عن الحديث منذ استيقظنا وتناولنا فطورنا في أحد المقاهي المفتوحة. إفطار كوزموبتيلاني كامل. هذا ما تناولته. لا زلت أذكر طعم البيض المقلي وهو ينزل إلى جوفي، أغسله بالقهوة الإيطالية القوية، بينما هي تتناول قطعًا من الفواكه والزبادي داخل كوب طويل.

- أنت تقدس الإفطار أليس كذلك؟ قالت وهي تنظر لي بتمعن، متعجبة من الكميات التي آكلها.

- إنه أهم وجبة في اليوم، كما يقولون. ثم إننا سنقضي اليوم كله في المسير هنا وهناك وأحتاج إلى طاقتي. لا أزال لا أصدق أني هنا.

- حين نتزوج ستعد إفطارك بنفسك. أنا لا آكل في الصباح أبدًا. هذا

جنون مطلق.

كنت أنظر لها بكل حب وحنان. نظرتي تلك التي كانت تذيبها حتى إنها كانت تقلب عينيها وتنظر لأعلى بينما تنكمش بين ذراعي أكثر كطفل كسول يبحث عن حضن دافئ ينام بداخله. طوال وقفتنا في الطابور كنت أبادلها هذه النظرة، ثم أقبلها بحريةٍ لم أكن أحلم بها في بلدي. على مرأى ومسمع من الكل. رائحتها تصيبني بالدوار. تلك الرائحة.. تلك الرائحة. كلما تذكرتها خارت قواي وضعفت وغاص قلبي في دوامةٍ من الحزن والافتقاد. ساعتها كنت أرى كل مَن حولنا في الساحة خيالات بعيدة.

الوجد الذي وضعتني فيه ماري أعظم حالة كان يمكن أن أتمناها قبل دخولي إلى حرم تمثال القديسة تيريزا. في كل سنوات الوحدة واحتقار مَن حولي كنت أؤجل سفري لإيطاليا تحديدًا حتى تصبح لي رفيقة. كنت قد تخيلت عبر آلاف الصور والمقالات التي طالعتها ودرستها في الكتب والأفلام الوثائقية كيف ستكون روما. أحفظ شوارعها وأسماء الميادين وأشهر المقاهي. عرفت كل شيءٍ دون أن أذهب إلى هناك. عرفت أن كم الجمال سيكون فاتنًا وجامحًا إلى الدرجة التي لن يتحملها قلبي، وأن الحل الوحيد لاستيعاب ذلك الجمال كان أن تكون معي رفيقة أحبها وأقتسم معها كل هذا.

تخيلت كل هذا في رأسي. ما يحدث الآن. رأيته بعين خيالي عشرات المرات وأنا أسقط في النوم بعد ليالٍ طويلة مؤرقة. كيف سأحكي وماذا سأقول. إيماءاتي وحركات يدي. حديثي الذي لا ينقطع وحماسي الذي يجعلني أنسى أن ألتقط أنفاسي أو أبتلع ريقي. الرذاذ الذي سيتطاير من فمي. والعينان اللتان ستطالعاني بانبهار وصاحبتهما لا تنصت إلى ما أقول لأنها قد ذابت في تأمل قسمات وجهي بحب. كل ذلك تخيلته وكل ذلك صار الآن، في هذه اللحظة والساعة، حقيقة وواقعًا لا محض خيال.

ولم أكن لأتمنى أكثر من هذا.. لم أكن لأتمنى أجمل من ماري لأقتسم معها تلك اللحظة، لم أكن لأطلب كمالًا كهذا.

أضمها نحوي أكثر فأكثر حتى يصل دورنا للدخول من البوابة العالية. نصعد درجات السلالم العشر المؤدية لها (نعم عددتها)، الباب الأخضر الداكن مفتوح عن نصفه، نعبر معًا ورأسي يرتفع إلى أعلى بنظري الجوعان إلى جمال كل تفصيلة في الكنيسة التي صممها وبناها وجملها برنيني منذ 500 عام أو يزيد.. الأعمدة الرخامية الخضراء بشرايين من ذهب، الأطفال والملائكة البيضاء المنحوتة من حجر بابتساماتها التي تشع شقاوة وعبثًا طفوليًا. صدى الصوت مع كل خطوة نخطوها إلى الداخل ونحن نسير في البهو فوق البلاط المقسم كلوح الشطرنج باللونين الأسود والسكري.

تلح ماري المرة تلو المرة وهي تشد قميصي بطفولية: «أيها الموسوعة، احكِ لي عما نراه»، ولكني لا أرد عليها. فدقات قلبي تتسارع حتى يكاد يبلغ حلقي، وقدماي لا تقويان على حملي أمام طوفان هذا التاريخ المقدس الذي يحوطني. «قمة الفن. هذا ما نحن فيه. اصمتي واشتمي رائحة العبقرية تحيطنا من كل جانب. الكلام هنا جريمة لا أجرؤ على ارتكابها».

مع كل خطوةٍ نخطوها أفكر كم من قدمٍ مرت من هنا؟ كم من عقل تبدل وتبدد حين سقط في تيه أسئلة الكمال والعجز بين هذه الأروقة. دع جانبًا مَن أتوا متعبدين لله، ومَن خدموا الله ها هنا، ومَن أفنوا حياتهم في بناء المعجزات تقربًا إلى الله. دعهم جانبًا ويكفينا الآن هؤلاء الذين فنوا في الفن، وطارت حياتهم وأرواحهم قربانًا لكمال الوجود الإنساني، فقط محاولة منهم للقبض على كنه الوجود وربما.. ربما.. فهم المعنى.

حين وصلنا إلى حيث تنتظرنا القديسة في عليائها بين يدي الملاك، انهمرت دموعي رغمًا عني. قبضت على ذراع ماري التي لا شك كانت

تداري ضحكتها على تلعثمي. جررتها إلى أقرب مقعد رخامي وجلسنا عليه. منتصفين أمام القديسة التي تطير مرتفعة بين ذراعي ملاك يحمل حربة يوجهها إلى قلبها. بتشنجاتها الحسية والروحية. الرخام الطيع بين يدي برنيني جعل التمثال الجامد مفعمًا بالحركة والحياة. إن ما يحدث الآن يحدث لتوه، أيًا كان ما تمر به القديسة الإسبانية، فإنها تمر به حالًا الآن. أنظر حولي لأرى إن كان أحد آخر يطالع ما أطالعه، فأجد على يميني رؤوسًا منحوتة لثلاثة رجال ينظرون إلى هذه المعجزة السماوية الأرضية بذات الفضول والاندهاش.

«الله!»، أصرخ بكتمان وأنا أضع يدي على فمي خيفة أن يُفسد صوتي اللحظة على كليهما. هذه اللحظة التي خلدها برنيني لا تزال مستمرة على مدار 500 عام. إنه لم يجمدها، ولكنه حافظ عليها في حالة من الثبات المتحرك. الموات الحي. إنها لحظة حية، مستمرة لم تتوقف. ذلك الوجد. تلك اللحظة التي يقترب السهم فيها سنتيمترًا تلو السنتيمتر. أراه يتحرك أمامي وأسمع الصرخة تخرج من فمها المفتوح بتأوهٍ غنج. يغلي الدم في عروقي من شفتيها المبهرتين. في ذات اللحظة لا أتوقف عن ترديد لفظ الجلالة على فمي. تلك الازدواجية هي تمامًا ما حكت عنه تيريزا، وما أراده برنيني. وهي بالضبط ما أعيشه الآن دون إرادةٍ مني.

أفيق من دهشتي للحظة وأنظر لماري. «هل ترين ما أراه؟»، تبتسم ماري في جرأتها المخجلة كالعادة. «تكاد نشوتها تنتقل إليّ». في يدها لا تزال المطوية المنكمشة. «افتحي هذه المطوية. مؤكد ستجدين نص الرؤية التي رأتها تيريزا ودونتها في مذكراتها وألهمت هذا التمثال». تفتح ماري الورقة وتبحث بين السطور حتى تجد ما أخبرتها به. تطالعني بدهشة. أطلب منها أن تقرأها بصوت مرتفع حتى أسمعها وأنا أطالع التمثال. وبإنجليزيتها ذات اللكنة الأوربية الثقيلة تقرأ ماري، ويتسلل إليّ صوتها وأنا أتيه بنظري بين ثنايا حجاب القديسة، لتزداد اللحظة اكتمالًا وتنحفر بداخلي حتى يوم أن أموت.

«قريبًا مني للغاية، ظهر ملاك في هيئةٍ بشرية، لم يكن طويلًا، ولكنه كان آية في الجمال. بوجهٍ مشتعلٍ بدا كأحد هؤلاء الملائكة من عليين الذين يظهرون وكأنهم مشتعلون.. في يده رأيت حربةً طويلةً من الذهب، وعند طرفها المعدني المدبب كان ما يبدو أنه كتلة من النار. بدا لي أنه يغرسها عدة مرات داخل قلبي. ينفذ بها إلى أقصى دواخلي، وحين سحبها إلى الخارج، شعرت وكأنه يخرج أحشائي معها، تاركًا إياي متقدة بنار حب عظيم لله. كان الألم عظيمًا، حتى إنه جعلني أتأوه، ولكن حلاوة الحدث كانت تتخطى الوجع الرهيب حتى إني أردت ألا ينتهي. الروح الآن لا يشبعها سوى الله. الألم ليس بالجسد، ولكنه في الروح حتى وإن كان للجسد نصيب منه. إنها نفحة من الحب فائقة الحلاوة تلك التي تجري الآن بين الروح والله، وأرجو من الرب بجلاله أن يشعر بما شعرت به كل مَن يظن أني أكذب».

لا عجب أن كل حصوننا انهارت في ذلك اليوم.. وانتهينا بداخل بعضنا البعض في غرفتي بالفندق.

***

دخلت إلى الكنيسة الصغيرة التي بِتُّ أعرفها جيدًا الآن. اطمأننت إلى أن المغناطيس في جيبي قبل أن أرفع زجاجة الماء إلى فمي وآخذ منها رشفة وأنا أجلس على المقعد الذي قاسمتني إياه ماري قبل ثماني سنوات.

ارتاحت عيناي فوق تمثال القديسة تيريزا. من حولي كان سائحون آخرون يقفون مشدوهين. يرطنون بكلامٍ كثير. يابانيون بكاميراتهم التي حرصوا على إغلاق وميضها، متحدثين بأصوات خفيضة ولكنها كانت ترن رغمًا عنهم بفضل الصوتيات الرائعة التي خلقها برنيني ومعاونوه ها هنا. روعني صراخ طفلة متعجرفة تقف مع والديها ويتحدثون ثلاثتهم بالألمانية. اشمأزيت من صنادلهم المهترئة التي ظهرت منها أرجلهم القذرة، يبدو أنهم من الرحالة الذين يُمضون الشهور

على الطريق بأقل تكلفة.

واصلت نظراتي التائهة المعلقة على التمثال. منذ أن عدت من زيارتي في بلدة ماري وأنا لا أكاد أتوقف عن التفكير في تلك الدلالات التي تطاردني. إيطاليا وما مثلته مسرحًا شهد ذروة افتتاني بماري، وبدايةً جديدةً ومحيرةً لعلاقتنا. من الناحية الأخرى عاشت ماري مع زوجها في ميلانو، على بُعد كيلو مترات من هنا، أنجبا رقية، وخططا لجريمتها البشعة. وكما تصارع برنيني يومًا مع أخيه من أجل امرأة، تدور حرب ما خفية بيني وبين قابل.. مَن منَّا شوَّه ماري؟

رويدًا رويدًا بدأت الأجواء تهدأ والزوار يقلون. معظمهم أتى ليلقي نظرةً خاطفةً على التمثال ويزيحه من قائمة الأشياء التي خطط لفعلها في روما. أما أنا والسيدة التي تجلس على المقعد المجاور لي فكنا من الحجاج المؤمنين، وكان لدينا من صدق الإيمان ما يكفي لأن يُبقينا هنا مدة طويلة.

لاحظتها فور دخولي. كانت جالسة وحدها في ثبات رهيب. كنت أظنها نائمة في البداية، لولا أنها كانت تتحرك بين حين وآخر لترتشف بعضًا من المياه عبر شفاطة تبرز من الزجاجة المعدنية التي تخرجها من حقيبة راقدة بجوارها.

أول ما لاحظته كان احتفاظها بنظارة شمسية ضخمة فوق وجهها. ورغم اقتناعي بقوة إيمانها بالتمثال، لم أفهم لماذا تحافظ على نظارتها في هذا المكان بإضاءته الخافتة، خاصة إذا كانت تجلس هنا ضمن قلةٍ من المحظوظين الذي يطالعون إعجاز برنيني، لماذا تشاهده من وراء فلتر معتم؟

الأمر الثاني الذي لفت انتباهي كان وجهها الذي يحيطه غطاء رأس أنيق معقود تحت ذقنها. لم يكن حجابًا لأن شعرها كان بارزًا عنه، كما أنها كانت ترتدي بلوزة وردية بأكمام طويلة وجيبة قصيرة غادرت حافتها ركبتيها منذ أمد بعيد.

أختلس النظر نحوها كل فترةٍ بعين الرغبة. لا أدري إن كان المحفز لذلك الأجواء الشهوانية التي اتفق برنيني وتيريزا على إقحامي بها، أم أنها أجواء روما التراخية قد أعادت إليّ الرغبة التي كانت قد أنستني إياها برودة الأيام الماضية بكل آلمها، أم أنها ببساطة هذه المرأة التي تتمتع بجسد لا يقاوم؟

كان ظهرها منتصبًا، لا تبدو عليها أي معاناة من الجلوس لساعات على مقعد بدون مسند. حافظت على وضعه مستقيمًا كما هو بلا أي اعوجاج، ومع استقامة ظهرها كان صدرها، المستتر بالكامل في حشمة ظاهرية، ينتفض باستدارة مثالية الامتلاء ومغرية الشموخ. لم يبقَ سوى وجهها الذي يصعب عليّ استكشافه.

حين أطلت النظر نحوها بفضول تذكرت آخر لقاء لي بسيدة مثيرة وغامضة.. تحسست تورم رأسي وانقبض قلبي. عدت لأنظر أمامي مرة أخرى.

***

- إنه نجّات عظيم، ولكنْ قليلون يعرفون كم هو إنسان حقير..

باغتني صوتها ليُخرجني من شرودي المعتاد. أثار انتباهي بشدة لأنه أتى بلغةٍ عربيةٍ سليمة، كما أن مخارج الحروف مكتومة ومتلعثمة بشكل مؤلم. تتحدث وكأن فمها محشو بالإسفنج.

نظرت نحوها وأجبت بالعربية لأول مرة منذ أن غادرت الوطن:

- لا أدري إن كنت سأصفه بالحقير، كان ملموسًا بالعبقرية و..

- كان يخون أحد مساعديه مع زوجته، وخلّدها في تمثال ثم شوهها حين علم بخيانتها له مع أخيه..

نظرت لها وكلي فضول، أما هي فلم تغادر نظرتها التمثال. لم تنظر نحوي ولا مرة كأنها لا توجّه لي الكلام.

- كوستانزا.. بالطبع أعرف القصة. ولكنه عاش بعدها خمسين عامًا من الندم. ومات مسيحيًا ملتزمًا ومخلصًا. ربما وجد الخلاص.

- وهل بعد ما اقترفت يداه يستحق مَن مثله الخلاص؟

كان حوارًا غريبًا يدور بين اثنين عربيين لا يعرفان بعضهما أمام تمثال لبرنيني، وعلى أريكتين رخاميتين متباعدتين، يتردد صدانا في الأجواء. تُرى حين كان يشيدها هل تخيل برنيني أن حروفًا عربية ستتردد أصداؤها بين هذه الجدران، ينطقها رجل وامرأة في نقاش حول سيرته بعد **500** عام؟

- لقد أبدعت يداه الكثير. قليلون الذين يعرفون هذا الأمر. لا بد وأنكِ مهتمة بسيرة حياته أو تدرسين أعماله؟

تجاهلت سؤالي ووجهها بعد لا يستدير ناحيتي..

- هذه ليست مرتك الأولى هنا، أليس كذلك؟

- نعم. أتيت إلى هنا منذ عدة سنوات. لي ذكريات كثيرة في هذا المكان.

أستدرك:

- تعرفين كيف؟

- مع زوجتك؟ إن كان لي أن أسأل.

غموض هذه السيدة يتضاعف كل لحظة. وقفت وتحركت نحوها بضع خطوات.

- أنتِ تعرفين مَن أنا؟

لاحظت وأنا أقترب منها أنها تدير وجهها قليلًا بعيدًا عني.

- بالطبع. لقد عرفت برنيني من مقالاتك، هي ما أثارت فضولي منذ بضع سنوات أن آتي لزيارته كلما مررت بروما. قرأت مقالاتك الأسابيع

الماضية أيضًا.. أحييك على شجاعتك في الحقيقة.

وقفت أمامها تمامًا. بحة صوتها المتكسرة تدمر كل التخيلات التي كونتها عنها. وكأن كل حرف تنطقه ينغرس مقطعًا بأحبالها الصوتية.

- كيف؟

رفعت رأسها نحوي. كان أبشع وجهٍ رأيته في حياتي.

- نحن زملاء قلم منذ زمن بعيد.

تسمَّرت تمامًا في مكاني. لا بد أن وجهي كشف عن ارتياع رهيب لأنها عادت لتشيح بنظرها عني.

لم تنتهِ روما من سخريتها مني بعد. ها هي ازدواجية أخرى.

إنها مرام.

الكاتبة الضعيفة التي كان ترشيحي لها للجائزة سببًا في إصابتها بالتشوه للأبد.

***

بعد معركتي الخاسرة مع كينزو، كنت ملقًى هناك على الأرض. لا أدري لِمَ ولكنه واصل بجبنٍ فظيعٍ ركلي وضربي هو وصديقيه وأنا شبه فاقد للوعي. غادر ثلاثتهم مسرعين عندما اقترب رجال الشرطة راكضين نحوي. أخذوني إلى الطوارئ بشكل أوتوماتيكي. فهم معتادون على هذا النوع من الإصابات والعراك من المخمورين في إجازات نهاية الأسبوع.

لا أذكر الكثير عن غرفة الطوارئ المزدحمة، ولا عن الطبيب المتكاسل الذي أجرى فحوصه وأرسلني لعمل الأشعة. بعد ساعةٍ أعطوني بعض المسكنات وضمدوا جراح وجهي وأخبروني بأن هناك شرخًا بأحد ضلوعي. كان المفترض أن أبقى تحت الملاحظة ليومين ولكني كنت قد عرفت أن علاقتي بهذا المكان قد انتهت. أخذت الكيس الورقي الذي

يحوي برطمانات الأقراص المعبأة في يدي ووقعت على الاستمارات، وخرجت وسط نظراتهم المحبطة التي وشت بقناعتهم بأني مجرد مخمور حزين آخر أذهبت المخدرات والكحول عقله.

مع طلوع الصباح وأثناء إعدادي لحقيبتي ذهب أثر المسكنات فجأة. بدأت أصرخ من الألم مع كل حركةٍ أتحركها. فكرت في أن أتصل بوالدَي ماري وأحكي لهما ما حدث. أردت بشدة أن أرى رقية لمرةٍ أخيرة. ولكن إن كان كل شيءٍ ينتهي بالموت فما الهدف من التشبث بشيءٍ جميلٍ في الحياة؟

في طريقي إلى المطار اتصلت بالمحققة.

هددتها بأني لن أغادر إذا لم يأخذوا إفادتي على محمل الجد. وأني سأكتب بالجريدة ما حدث لي وألقي بمسئوليته على الخلل الأمني ببلادهم، وسأتعجب بكل وضوح من أن هذه المدينة المهمشة يفترض أن تستقبل أهم رؤساء جمهوريات خلال أيام.

طلبت مني أن أقابلها في قسم الشرطة. وجدتها هناك ومعها زميل من إدارتها. بدت سلطتهم الاستثنائية واضحة. أخبرتهم بأسماء مَن هاجموني كما سمعتها. أخبرتهم بالمكان والساعة، وأريتهم تقرير المستشفى. لم أذكر اسم كارين ولا مرة.

وأنا أغادر سألتها إن كانت لا تزال على وعدها السابق لي.

- لا تقلق. انتظر مني مكالمة في أي لحظة.

بعد ساعة كنت في طريقي إلى روما.

***

نظرت إلى تمثال المسيح المعلق على جدار من المرمر وأنا أفكر: «ماذا تريد مني يا ألله؟»

- يا لها من مصادفة عجيبة! لم أعرفك في البداية من وزنك الزائد. لا

أدري كم من السنوات مرت منذ أن التقيتك مرةً في أحد المؤتمرات.

على وجهها المشوه بقناع الموت رأيت شبه ابتسامةٍ تحاول الارتسام على شفتيها المتآكلتين. كنت أميز كلماتها بصعوبة.

- نعم.. إنها حقًا مصادفة عجيبة. لم نكن نعرف بعضًا جيدًا ولكني.. تألمت كثيرًا لما حدث لكِ. تألم لكِ الوسط كله. ولكنكِ بسرعة اختفيتِ، وبالطبع ما هي إلا أسابيع ونسينا الأمر برمته.

- لم أكن لأتوقع غير هذا. لذا لم يكن لي سوى أن أختفي. أبتعد عن هذا المكان البشع بكل ما فيه. لم أكن لأقوى على أن يشاهدني أحد في هذه الحالة، ولم يعُد لي مكان في هذا الوسط بأي شكل من الأشكال. كما أنهم فتحوا لي أذرعهم هنا.

أراد عقلي أن يعود لتهكمه المعتاد في احتقار أمثال مرام: بالطبع لم يعُد لها مكان وسطهم لأن مكانها كان محفوظًا فقط بجمال وجهها وضخامة ثدييها. ولكني كنت مرهقًا، مرهقًا جدًا، ولم أجد في تفكيري مساحة تحتمل ثقل الأحكام المطلقة أيًا كانت دلائلها. فجأة صار الهواء ثقيلًا، وضاقت الكنيسة الضيقة بنا أنا وتيريزا ومرام. تذكرت كوستانزا بوجهها الذي شوهه الخادم بإيعاز من سيده، وشعرت أني أريد أن أغادر في التو. أول ما خطر ببالي هو أن أستأذنها وأختفي. ولكن لساني نطق بعكس ذلك تمامًا. أردت أن أجاري العبثية الحاصلة بل وربما أدفعها قليلًا.

- أتودين التمشية أو احتساء القهوة؟

قبل أن أغادر توجهت ناحية المذبح المرتفع، وتحت قدمَي القديسة، تركت آخر قطعة مغناطيس كانت في جيبي.

***

- أعيش في ستوكهولم منذ الحادث. كانت لي صديقة وقفت بجانبي بعض الوقت حرصًا منها على أن تبدو وكأنها لم تتخلَ عني بعد أن

فقدت.. كل شيء. بعدها تركتني، ثم حصلت على منحة مكنتني من مواصلة الكتابة ودراسة اللغة، وأكتب الآن كتبًا وألقي محاضرات حول النسوية وحقوق المرأة في الشرق الأوسط.

نظرت لها متسائلًا. استطاعت من خلف نظارتها أن تقرأ السؤال في عيني.

- نعم ألقي المحاضرات بصوتي المبحوح ومخارج ألفاظي المهترئة، ولكن قصتي المؤثرة والملهمة تجعلهم يتحملونني.

عاد بركان الغضب يغلي بداخلي مرة أخرى. هل تصدق هذا بالفعل؟ ألا تدرك أنهم منحوها الهبات بدافع الشفقة والاستفادة وليس بدافع التقدير؟ إنها تتاجر بما حدث لها تمامًا كما يتاجر أقرانها في كل مكان. يبيعون الصورة المشوهة التي يريدون أن يصدروها للعالم أملًا في حفنة من العملات الأجنبية وتأشيرة لجوء مدموغة بدماء المقهورين الباقين.

- تبيعين قصتك للناس مرارًا وتكرارًا، لا بد وأنهم سيملون منها يومًا.

- أنا لا أبيع شيئًا. الملعون الذي فعل بي هذا هو مَن فضحنا. لقد مرت خمس سنوات ولم أنسَ يوم أن حدث ذلك.

ارتعد جسدي مرة واحدة. كان إدراكي المتباطئ بأني المتسبب الرئيسي فيما حدث لها يفرض نفسه عليَّ بازدياد مضطرد. لم أرد أن أعترف لنفسي فور أن عرفتها أني المسئول. كيف تتحول كل امرأةٍ أقابلها إلى كائن مشوه في النهاية؟ وفي كل مرة لا أكون أنا المجرم المباشر، وكأني أجبن من أن أفعل ذلك بأحد. تمامًا مثل برنيني أرسل خادمه ليشوه وجه كوستانزا. وكأني عن عمد أو غير عمد أريد تشويه كل مَن يقترب مني.

أصابني دوار مفاجئ وأنا أسترق النظرات لوجه مرام المذاب. تعلوه ومضات لوجه تمثال كوستانزا وقد تكسر ثم استحال كلاهما إلى وجه

ماري.

- أخبرني عن قدومك إلى هنا.

حكيت لها كل شيءٍ بشفافية تامة. حكيت لها عن موت ماري وعن المغناطيس وعن المقالات. عدت قليلًا في الزمن وحكيت لها عن علاقتي بماري وكيف عرفتها والخطاب الملعون الذي كان سببًا في انفصالنا الأبدي. نسيت أن أحكي لها عن رقية، وبالطبع تناسيت أن أحكي لها أنني أنا مَن رشحها للجائزة التي كانت سببًا في شهرتها الفاضحة لنا جميعًا، والتي انتهت برميها بالحامض على يد مجهول.

هي أيضًا قتلتها دون أن أضغط على زر القنبلة.

- وكيف حال إخواننا الكريهين، هل ما زالوا على حالهم؟

- آه، بالطبع. ما زالوا يعيدون تشكيل العالم على المقاهي القذرة في صحبة زجاجات البيرة الرخيصة.

نظرت يمينها نحو طفل أشقر يضايق أخته الرضيعة في عربتها. كان المحيط من حولنا هو الكمال بعينه. أردت أن تتجمد بي اللحظة كما هي الآن: الجو الصحو والشمس الساطعة دون أن تحرق، إيقاع صوت النافورة الذي يخلق هذيانًا جميلًا بفضل سقوط هديرها في خلفية وعينا. السياح المبتسمون وقد تخلصوا من أعباء هموهم التي تثقلهم في بلادهم. الأطفال والكلاب والقطط. الأناقة والنظافة والفن.

الفن الموجود في كل تفصيلة تقع عليها عيناي: أناقة النادل، والموظفون المارون بالساحة في طريق عودتهم من العمل. السيارات الفارهة، فن الحياة الأوربية المعاصرة المنمقة، يحتضنها التراث الأبدي من المعمار والتماثيل التاريخية. الدين الذي تركوه ولكن ارتموا في أحضان تراثه. حتى الهواء يحمل نفسًا من كل قدم خطت عبر هذه الساحة في القِدم. النهار هنا جميل. أما الليل.. الليل يخفي حياةً مستترةً من الانحلال. النهار، الشمس. هذه أوربا التي أحب.

كل شيء كان كاملًا عدا مرام. تشوهها ووجهها البشع الذي أحاول دائمًا تفادي النظر إليه تذكرة بكل شيءٍ أكرهه من الضفة الأخرى. تمنيت إلى حد البكاء أن تكون ماري هي الجالسة مكانها. تمنيت أن يعود ذلك اليوم حين أتينا إلى هنا وجلسنا في مقهى مقابل لذلك الذي نجلس به الآن في ساحة نافونا وتحدثنا عن المستقبل والخطط التي نريد تحقيقها والحياة التي تنتظرنا سويًا.

كل شيءٍ تأخر. كل شيءٍ بات متأخرًا للغاية.

- استغللت فرصة الإجازة وأتيت إلى هنا هربًا من برد السويد الرهيب. منذ أن قرأت مقالاتك عن برنيني وأنا مشدودة لرؤية أعماله. قرأت كتبًا عنه. ربما أصابني نوع من التوحد مع كوستانزا، كلانا فقدت جمالها الذي كان سرًا من أسرار وجودنا. ربما أرى فيه شوفينية الرجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لا أدري بالضبط.

- برنيني كان ولا يزال فناني المفضل. جرأته وهوسه بالخلود وقدرته على الموازنة بين الحسي والروحي هي قدرة لم يصل إليها الكثيرون من قبل. لا أحد يستطيع أن ينكر أو يبرر أن أفعاله كانت قذرة. وأن شيطانًا كان يسكنه. شيطان الفن أم شيطان الوجود الإنساني الاعتيادي لا أحد يعرف. ربما كانا كلاهما بداخله، يتنازعان نفسه ويمزقانها. ذلك الرجل الذي شوَّه عشيقته وحاول قتل أخيه، كان مدللًا من كل عباد الفن حتى إنهم غفروا له هذا. ولكن الفشل لا يرحم، وحين ذاقه مع تصدع أعمدة البازيليكا أصابه الاكتئاب وأكله الذنب مما اقترفت يداه ورأى في ذلك عقابًا إلهيًا. طبعًا لم يفق للذنب إلا حين سقط عنه غرور النجاح. تخلوا جميعهم عنه، نبذوه واحتقروه، ودارت الأيام دائرتها حتى أصبح برنيني كائنًا منسيًا بعد أن ملأ الدنيا ضجيجًا وصخبًا. الكل تخلى عنه لأنه كان يستحق ذلك. ولكن بعد سنوات طويلة جاءت قيامته على يد تيريزا، وعاد ليلعب لعبته التي يعرفها جيدًا أفضل من أي إنسان آخر: الإنسان والشهوة والروح والله كلهم عناصر مجردة ترسم مفاهيم هذا الكون، وإذا كان السؤال هو هل كانت تيريزا

تصف في رؤاها تجربة روحانية صوفية لا تمنح إلا للقديسين أم لحظة شبق جسدي تملكت امرأة ذات جسد نهم في احتياج للإشباع، فإن برنيني بتمثاله هذا قد قدَّم لنا الإجابة عن السؤال.

نظرت لي مطولًا دون أن تقول شيئًا. رفعت القهوة الساخنة التي وضعت فيها شفاطة إلى فمها وامتصت قليلًا. كان منظرًا غريبًا: شفاطة في فنجان. ولكنها تقريبًا لم تكن لديها شفاه. تآكلت تمامًا.

- وهي؟

- كلاهما.. بالطبع.

حين نزلت البرودة قمنا وتمشينا وسط حدائق إيناويدي. ظللنا نسير على غير هدى. أتى الغروب ونحن نسير فوق جسر القديس أنجيلو، وقفنا قليلًا نتأمل الجدول من تحتنا في صمت. سألتني مائة سؤال عن الأوضاع في الديار، وكيف يسير أمورهم الناس، ما يشغلهم، وفيمَ يفكرون، وإن كانوا لا يزالون يحلمون. كانت تنظر لي بحنين جارف شعرت به قادمًا من تقوسات جسدها الرائع الذي يهتز قليلًا كلما ذكرت شيئًا عن البلاد. لم تخلع نظارتها حتى بعد أن نزل الليل.

كان إحساسي المختلط تجاهها يشكل لي راحة ما. مع مرور الوقت واسترسال الحديث نسيت تمامًا شعوري بالذنب نحوها. غالبًا كنت قد تعبت من الذنب. أثقل كاهلي كثيرًا كثيرًا حتى بت لا أتحمله، فقررت أن أسايرها في تلك التمثيلية: هي لا تعرف أني أنا مَن أوصى بحصولها على الجائزة. هي لا تعرف أني أنا مَن كتب تقريرًا ملعونًا، تمامًا مثل الخطاب الملعون، أتى على نهايتها. وطالما أنها لا تعرف وتتعامل على هذا الأساس، فإنني كنت مستعدًا تمامًا لقبول لطفها وحماسها للحديث معي. لم أتكلم بمثل هذه الطلاقة منذ سنوات.

حين تركتها في وقت متأخر من تلك الليلة عائدًا إلى الفندق جاءني واحد من إدراكاتي المفاجئة: إن فورة غضبي وحكمي الأخلاقي القاسي عليها لم تستمر سوى عشر دقائق، ثم ذابت تمامًا وكأنها لم

تكن. واستطعت طوال الساعات الست التي تلتها أن أنظر لمرام فقط كإنسانة عانت من اعتداء ظالم دمر حياتها وكرفيقة أتتني في توقيت شديد الغرابة. إدراك آخر: كتابة التقرير وكتابة الخطاب، فعل الكتابة، حين قمت به خارج إطار تخيلات الأدب وأروقة المقالات الاستهلاكية، كان سلاحًا فتاكًا.

وشعرت لحظتها بخفة نسيان الرحلة المظلمة التي خلفتها ورائي آتيًا من بلاد زوجتي الأبدية.

***

في اليوم التالي عرجت على مكتب شركة السفريات قبل أن ألتقي مرام. أتممت الحجز واطلعت على كل التفاصيل. عشرة أيام باقية على موعد سفر أول مجموعة. «لا تنس شراء المعدات اللازمة، لن يقبلوا انضمامك إلا بعد أن يتأكدوا من أنك أخذت معك ما يلزم»، قال الشاب الصغير وهو يسلمني التذاكر وبرنامج الرحلة.

بعدها جلست لساعةٍ أكتب مقالي الأسبوعي الأخير عن ماري. حكيت فيه عن حواري مع إيليانا، وعن تعرضي للاعتداء ولكن دون تفاصيل واضحة. قلت إنه كان حادث سرقة. قلت أيضًا إني سأعكف على إنهاء كتاب قصير يضم تفاصيل أكثر عن رحلتي واختتمته مازحًا بأني أرجو ألا يسميه الناشر «القصص الخفية في حياة الإرهابية». تمنيت أن يفهم القراء دلالة المزحة.

وصلت مرام في بدلة رياضية سوداء من بنطلون ضيق ومعطف مغلق حتى فوق صدرها بقليل. جلسنا لاحتساء القهوة. حول رقبتها كان إيشارب أدخلته في الياقة، وعلى رأسها قبعة رياضية غطت شعرها، وبالطبع النظارة السوداء الضخمة.

اعترتني موجة من الاستثارة المفاجئة. لم تكن هذه المرة الأولى التي تثيرني فيها بهذا الشكل، بالأمس أيضًا جاءني نفس الإحساس. هؤلاء المتعفنون كان عندهم حق حين كانوا ينهارون حولها منذ سنوات. كانت

أصغر وكانت لا تزال في أوج جمالها الفتان. في الليلة الفائتة التجأت للإنترنت لأطالع وجهها الذي نسيته. جذابة بحق.

واصلنا الحديث على مائدة إفطار متنوع ولم تزل الأفكار تتنازعني عن سبب شعوري بالإثارة تجاهها. جسدها المثير لم يتغير لكن وجهها كفيل بأن يقتل أي رغبة، فمن أين لي بهذا؟ ربما لأني قد بدأت أعتاد عليه لم يعد منفرًا لي كما كان في اليوم الفائت. بعد مرور الوقت كان علينا أن نغادر، ولكني كنت منتصبًا بشكل محرج فتلكأت قليلًا. حاولت أن أماطل وأتحدث بكلام فارغ لأكسب مزيدًا من الوقت. بدا عليها الضيق.

- ألا تريد أن نمضي في جولتنا اليوم؟

- على العكس تمامًا، لا تفهميني خطأ، الأمر ليس كما تظنين بالمرة.

- ماذا هناك إذن؟، لك ربع ساعة ترفض القيام، والجولة تبدأ في الحادية عشرة.

نظرت لها متحرجًا. تذكرت رحلتي القادمة بعد أيام. لم يعُد هناك ما أخاف عليه.

- أعاني من انتصاب رهيب إذا وقفت الآن سيكون ظاهرًا للجميع.

ظلت تنظر لي بوجهها الجامد الخالي من التعبير رغمًا عنه لمدةٍ طويلة. ثم انفجرت في ضحكةٍ عاليةٍ اهتز لها جسدها كله.

نظرت حولي أكثر تحرجًا. تفاديت النظر نحوها لأن صوت ضحكتها المتحشرجة ووجهها بجلده المنكمش كان مخيفًا بعض الشيء.

- أحيي صراحتك، وأشكرها. هل أطري نفسي إن اعتبرت أني مصدر ذلك الأمر؟

- أعتذر. أشعر بإحراج كبير. أعتذر.

لم تعلق. اختفت ضحكتها فجأة وأراحت كفها فوق يدي على الطاولة.

- هذه أصدق مجاملة حصلت عليها منذ سنوات.

نظرت لأعلى فوجدت دمعة تسيل متعرجة وسط أخاديد بشرتها السائلة.

***

في الحادية عشرة استقللنا القطار إلى فرتشاتي، ومن هناك سرنا مع المجموعة السياحية إلى أن وصلنا إلى مخبز ومعمل نبيذ يعود للقرن الثامن عشر. كانت فكرة مرام، وقامت بدعوتي للجولة متحملة تكلفتها المرتفعة نسبيًا. دخلنا إلى بناية المعمل الجميلة التي تتسلقها النباتات، بعد مقدمة من المرشد السياحي الأنيق بدأنا في تذوق النبيذ بصحبة البيتزا الصغيرة والمعجنات الطازجة. كانت روائح الخبيز تأتينا من المطبخ، وحين حانت ساعة الغداء وضعوا لكلينا إبريقًا كبيرًا من النبيذ المعتق.

- هذا نبيذ محلي معتق لعشر سنوات. استمتعوا بكل رشفة فهي تجربة قد لا تتكرر.

قالت مضيفتنا وهي تواصل وضع أطباق السمك والمكرونة المرسومة بعناية تفتح الشهية.

شعرت بالاسترخاء رويدًا رويدًا وأنا أتكلم مع مرام. أبهرني تعامل الجميع معها وكأنها إنسانة طبيعية. لا أحد ينظر لها ولو لثانية زيادة عن المفترض. لم يبدُ على وجه أي من المتعاملين حولنا أنه يستغرب وجودها. لم يُشح أحدهم بنظره حتى بينما كانت تحدثه بصوتها المبحوح.

- أعتقد أن ذلك يعود في جزء منه إلى تعودي على الأمر، صرت مرتاحة إلى حد كبير في التعامل مع العالم. طوال العامين الأولين لم أخرج من البيت إلا مضطرة وكانت تجربة كابوسية. ظلت تهاجمني أعراض الذعر والشعور بالاضطهاد كلما خرجت إلى الشارع. كنت أخاف

السير متوقعة أن عند كل منعطف سيخرج أحدهم ويلقي عليّ شيئًا، وأسترجع كل الصور المتخيلة في الأفلام عن اضطهاد الناس للمشوهين. ولكن حين ثبت أن ذلك كله كان وهمًا، ومع دعم طبيبي النفسي، بات الأمر أفضل كثيرًا ونسيته بالتدريج.

- تجربتك معهم تختلف كثيرًا عما قابلته هنا. أنتِ محظوظة.

فتحت فمها بصعوبة وهي تُدخل به قطعة خبز لين كانت قد طلبتها خصيصًا.

- ربما. الأوڕبيون ليسوا جميعهم كائنًا واحدًا. الأمر أيضًا له علاقة بمنظورك للأمور. إنهم على أتم استعداد للعدائية إذا ما التقطوها منك. ولكن أظن في حالتي كان تعاطفهم وشعورهم بالشفقة غالبًا على أي عنجهية يتمتعون بها.

صببت لها مزيدًا من النبيذ، كانت يدي تروح وتجيء فوق الكوب. نبيذ قوي وجيد حقًا.

- ولكن كيف تتقبلين الأمر بهذه البساطة؟ الشفقة والعطف والدعم والمنح؟ الأحاديث الصحفية والاحتفاء بكِ كضحية؟ هذه أمور تذبح الكرامة أليس كذلك؟

شعرت بجرح كرامتها يوجعها من خلف النظارة.

- لأني لا أمتلك رفاهية السخط التي تتمتع بها. أتفهم ما مررت به، ولكني لست مثلك.

- ذلك لأنكِ لم تواجهي ولم ترفضي الاستغلال أو الفوقية. لقد احتضنتها بكل سعادة لأنها كانت توفر لكِ الكثير من المنافع. لا بد وأنكِ وجدتِ منذ وقت مبكر أن جمالكِ يفتح لك أبوابًا لا تحتاجين معها إلى الاجتهاد أو تطوير أدواتك. ثم أصابتكِ جائزة ما حصلتِ عليها بلعنة الخداع الذاتي التي جعلتكِ تصدقين أنك كاتبة أصيلة، ثم أتت الحادثة وذهب الجمال، والآن تستغلين هذا القبح بذات النمط الذي اعتدتيه مع

جمالك وسرعان ما ستصدقين أنكِ حقوقية أصيلة أيضًا. أتفهم ذلك تمامًا..

قبل أن أنهي كلامي قامت مرام مرة واحدة ودفعت كرسيها للخلف بعنف. ركضت للخارج بينما ظللت أنا مكاني. تأخر استيعابي بضع ثوانٍ بسبب الشراب اللعين. أتتني المضيفة وسألتني إن كنت بخير. شعرت بحرج شديد من الأعين المتفحصة، والتي عاد أصحابها إلى ما يشغلهم بعد لحظات. هززت لها رأسي فغادرتني.

لقد عاد الحاكم الأخلاقي مرة أخرى ليهاجم بضراوة. أخرجه النبيذ اللعين. إني أكرهه، ذلك الفوقي مطلق الأحكام بداخلي، أكرهه بكل ذرةٍ في كياني.

خرجت مهرولًا إلى الفناء الخلفي للمطعم. فوجئت أن المخرج الخلفي يطل على مروج خلابة تتراص فيها أعواد العنب على مرمى البصر. كانت مفاجأة هزتني وأبهرتني، فهذه الجهة أبعد ما تكون عن تلك التي دخلنا منها. أردت أن أستعيد توازني بأسرع ما يمكن لأني كنت عاطفيًا للغاية، وكانت ماري تقف بجواري تلح عليّ بكل قوتها أن ألتفت إليها.

«أتريد أن تقتلها هي الأخرى بكلماتك؟»

لمحت مرام تجلس على بُعد عدة أمتار وسط المروج. سرت نحوها ببطء. كانت تعطيني ظهرها. كلما اقتربت سمعت صوت نحيبها يعلو أكثر فأكثر.

حين سمعت صوت خطواتي تقترب ارتدت نظارتها التي كانت ملقاة بجانبها بسرعة. جلست بجوارها واضعًا ذراعي حولها. أمسكت بكفها وأخذت أقبلها بحرقة. ازداد نحيبها فاحتضنت رأسها إلى صدري وأنا أكرر كلمات الاعتذار بصوتٍ خافت. دفنت نفسها بداخلي أكثر فأكثر وازداد بكاؤها عنفًا. كان المخاط يسير من فتحة منخارها الأوسع من الأخرى مختلطًا بدموعها. مسحتهم بيدي وخلعت عنها القبعة. الندوب تغطي رأسها الذي امتلأ بالفراغات. قبلت إحداها واحتضنت مرام أكثر

فأكثر. بعد برهةٍ، وبينما أخذت تهدأ قليلًا، خلعت عنها نظارتها ببطءٍ شديدٍ دون مقاومةٍ منها. ينقسم وجهها إلى نصفين غير متطابقين. أحدهما أكثر تعرجًا وتشوهًا من الآخر. يتميز هذا الجانب بعين جاحظة وقد تآكل الجلد من حولها ويكاد يكون جفنها قد اختفى.

هل أختلف كثيرًا عن هؤلاء الذين كانوا يتنمرون بماري وهي صغيرة؟ ماذا جنيت من هذا كله؟ أنا أفضل منهم جميعًا؟ حقًا؟

***

في تلك الظهيرة، فوق المروج الخضراء، حكت لي مرام الكثير عن نفسها.

أخبرتني عن جمالها الفتان الذي أذهل كل مَن حولها منذ أن كانت طفلة صغيرة. وحين كبرت قليلًا بدأت أمها تأخذها في سن الخامسة إلى وكلاء الممثلين كي تظهر في الإعلانات نظرًا لملامحها الأجنبية التي يحبها المعلنون.

توالت الأدوار الواحد تلو الآخر. كانت أمها التي تعمل موظفة حكومية تأخذها من يدها إلى جلسات التصوير التي كانت تمتد لساعات طويلة. سواء صيفًا أو شتاءً كان على مرام أن تجلس وسط الممثلين الثانويين على ركبة أمها تعاني الملل الرهيب وعدم الراحة ريثما تنتهي الاستعدادات لكل مشهد. كانت تلقى الكثير من المعاملة المهينة من المساعدين لها ولوالدتها. تعلمت أن تدعي وتكذب منذ ذلك الوقت حين كان يجب عليها أن ترقص أمام الكاميرا مبتهجة بأمر المخرج بينما هي نصف نائمة أو تتضور جوعًا، إذ كانت أمها دائمًا ما ترفض أن تحصل هي والفتاة على وجبة الغداء التي تُصرف لطاقم التصوير، وتفضل عوضًا عنها أن تقبض ثمنها نقدًا، ثم تشتري من البوفيه بعضًا من البسكويت وعلبة عصير للطفلة الصغيرة.

المرة وراء المرة تغيبت مرام كثيرًا عن المدرسة، ولكن أمها لم تهتم بهذا الأمر لأن ما كانت تجلبه الفتاة من الإعلانات كان كفيلًا بأن يزيد

من دخل الأسرة الضعفين على الأقل، وأصبحت الأم تتكل على هذا الدخل لتأتي لبقيتهم بالكثير من الاحتياجات، أما الأب فكان يعبر عن سخطه ورفضه لكل هذا مفضلا أن تظل ابنته المدللة مرتاحة وتتمتع بحقوقها الشحيحة كأي طفلةٍ فقيرةٍ أخرى.

الأم، التي كانت تتمتع بمسحة من جمال غيبه الشقاء، واصلت عرض طفلتها على المخرجين والمساعدين، متصرفة ببعض الدلال الحزين الذي لم يكن يثير أي رغبة بداخل المشترين، كي يتذكروا طفلتها المعجزة التي تستطيع أن تغني وترقص وتحفظ عشرات الأغاني وتنقلب عفريتة أمام الكاميرا. كانت مرام وهي تخطو نحو سنتها العاشرة تجهل أن لا شيء من ذلك حقيقي وأن وجهها الجامد لم يكن يصلح لا للتمثيل ولا لغيره.

كان الإرضاء الأول الذي أتى لمرام من لحظات النجومية المزورة التي كانت تتعرض لها كطفلة تحت أضواء الأستوديو هي المعاملة المميزة التي كانت تتلقاها في المدرسة. كانت تثير حسد الفتيات، وعطف المدرسات، وكانت تدرك يومًا تلو الآخر أن جمالها هو رأس مالها الحقيقي، وأن أيًا مَن يكن لن يرفض لها ما تريده طالما أنها استطاعت أن تدخل له المدخل الصحيح. تعودت أن تنجح في الاختبارات، وأن تتهرب من الأسئلة المحرجة، وأن يُرفع اسمها من دفتر الغياب، فقط لأنها الفتاة التي تظهر على التلفزيون، ولأنها الفتاة الجميلة التي «نتمنى أن تكون ابنتنا في جمالها»، أو «يتزوجها ابننا حين يكبر».

بعد البلوغ واصلت مرام نفس الخطى. وبدأت المحاولات معها تصبح أكثر جرأة. وبات المدرس الذي اعتاد معاملتها باستثنائية مدفوعًا بالرضوخ لجمالها الطفولي يمنحها نفس المعاملة لأنها تثيره. كان المساعدون في مواقع التصوير يحاولون معها، والمخرج في بعض الأحيان إن كان من المخضرمين الذين لا يخافون على سمعتهم، أبناء عمومتها أيضًا كانوا يحاولون.

وكأي مسيرة فنية في صناعة الدراما المضمحلة، ترقت مرام من عارضة صغيرة لتحصل على بعض الأدوار الهامشية كابنة لإحدى الأسر في مسلسل تلفزيوني شهير، لم أصدق أنها كانت هي حين أخبرتني، وهكذا دخلت عالم التمثيل من باب ضيق، وظلت أمها معها في كل خطوةٍ على الطريق.

«كانت أمي دائمًا ما ترشدني إلى الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة، تلك التفاصيل التي تجمل من شكلنا ولا تجعل الفقر باديًا علينا. دائمًا تلتقط خطوط الموضة الحديثة لتطور من ذوقها، لا تفوت عملًا أو حفلًا سينمائيًا يُعرض على التلفزيون دون أن تراقبه وتلحظ كل تفصيلةٍ به، ثم تبدأ في محاكاة ملابس النجمات بخياطة مثلها بنفسها. تشتري العطور الرخيصة طوال الوقت. حين نذهب إلى التصوير ترتدي تنورة قصيرة بعض الشيء وصندلًا وتكشف شعرها بعد أن تغسل قدميها جيدًا في دورة مياه موقع التصوير، وقبل أن نغادر تعود إليه وترتدي ثيابها المكسية مرة أخرى على عجل. لم تكن أدوات التبرج الرخيصة التي تبيعها إحدى زميلاتها في الهيئة بالآجل تنقطع عن بيتنا. تراقب أكلي وشربي بصرامةٍ رهيبة. دائمًا ما تردد: ستصبحين تذكرتنا للخروج من هذه الدائرة الضيقة من التكرار والفشل. هي التي علمتني حين وصلت سن البلوغ كيف أظهر إمكانيات جسدي، وكيف أثير مَن أمامي ومَن حولي، ولكنها علمتني الدرس الأهم والذي لم أنسَه طوال حياتي: لا تمنحيهم شيئًا أبدًا، فقط اعرضي، تحكّمي في رغباتك، وتصبحين أنتِ المتحكمة في كل مَن حولك».

لم تكن أم مرام ولا مرام نفسها عاهرة بالمعنى الصريح. كانت تحافظ على عذريتها وعفتها ولا تترك لأحد أن يقول عنها نصف كلمة. كانت تقف على الحافة من العهر الصريح، وتكتفي دائمًا بما هو مستتر، معتمدة بذكاء أمها الفطري على خوف معظم الناس من التصريح بما يريدون.

«سمعتك هي المعادل الأساسي لجمالك، كلاهما لا غنى له عن الآخر.

إذا خسرتِ السمعة أصبح جمالكِ بلا قيمة، بل وأرخص مما تتخيلين. وستخسرين عندها كل شيء».

وعبثًا حاولت مرام أن تحضر ورشًا للتمثيل لتطور من أدواتها وبالتالي تزيد من مساحة أدوارها، ولكن هيهات.. لم يكن هناك أمل، فهي تفتقر للموهبة الأصيلة حقًا، وعبثًا أيضًا كانت تحاول الاستمرار في التمثيلية التي رسمتها لها أمها أنهم من علية القوم والمرتاحين، فكان يكفي أن تفتح فمها بأي لفظةٍ أجنبيةٍ ليظهر اختلال مخارج الحروف عندها، أو أن يمر بجانبها مخضرم في شئون النساء فيعرف أن عطرها رخيص، وعدساتها اللاصقة مبالغ في ألوانها ولا تناسبها، وأن رداءها الضيق وأظافرها المطلية تحمل كلها رائحة العطب المكتومة من سريرها ودولابها.

حين مات أبوها، مصدر الرعاية والحنان الحقيقي لها، كرهت مرام كل شيء، وكرهت أمها أكثر من أي شيء آخر. وعند أول عرض زواج لها من أحد المحامين وافقت.

استطاع الزواج أن ينقلها النقلة التي كانت تتمناها: المال والهيئة. كونها زوجته الثانية لم يضايقها ولا يضايق أمها كثيرًا لأن ما دفعه كان أضعافًا مضاعفة مما كانت أمها تقبضه من عرق الطفلة الصغيرة. وكان له شرط واحد: أن تترك محاولات التمثيل الفاشلة. ووافقت هي بالطبع لأنها لم تكن محاولات جدية بالأساس، ولم تكن الشهرة تمثل لها طموحًا بقدر ما كان النهم وراء صناعة حياة غير حياتها. «هذا هو كل ما عرفته في الحياة وكل ما كنت مهيأة لأكونه».

حين ملّ الزوج العجوز منها وطلقها كانت بالفعل قد بدأت في تكوين صداقة بصحفي معروف. حينها أرته خواطرها ومذكراتها فأخبرها بأنها تحف أدبية مخفية، وبدأ في نشرها لها على موقعه الإلكتروني. وهنا شعرت مرام أنها تحصل على تقدير آخر لم تكن تعرفه. تقدير لفكرها ومشاعرها المكتوبة. لم تفكر مرام أو تغاضت عن التفكير بأن إعجابه

بأعمالها ونشره لها كان بسبب رغبته فيها، ولم تفكر مرام أو تغاضت عن التفكير في أن عدد المشاركات والمشاهدات لهذه المقالات كان الفضل الأول فيه للصورة الضخمة التي كانت تصاحب المقال، بوجهها ذي المساحيق المبالغ فيها، وبشرتها الخمرية الساخنة، وشعرها فاحم السواد، وفتحة فمها الداعية التي لا يوازي اتساعها سوى فتحة صدرها.

بسرعة بدأت مرام في التقاط الثمار المبكرة للفضاء الإلكتروني الجديد، ورويدًا رويدًا لم تكتفِ بالمقالات، وأصبحت تكتب على مختلف المنصات حكمًا وأفكارًا قصيرة، مثيرة للجدل قدر الإمكان، عن الرجال والحياة والعمل والنساء والعلاقات الزوجية والأوضاع الاجتماعية والموروثات البالية وربما التاريخ في المناسبات الوطنية والأعياد الرسمية.

العام تلو الآخر تعاظم عدد متابعي مرام. كانت وكأنها تستعد طوال حياتها لهذه الطفرة الإلكترونية التي ظهرت بينما كانت هي في الثلاثين: لقد كانت الحياة المزورة التي عاشتها مع أمها هي النسخة الأولية لمفهوم الادعاء الذي قامت عليه فكرة وسائل التواصل الاجتماعي بعد ذلك. كان سهلًا جدًا على مرام أن تحترف الأمر مبكرًا قبل أن يلتفت له أي أحد. كانت تعرف كيف تلتقط الصورة الجيدة، كيف تقف بالوضع الصحيح، كيف تختار الخلفية، كيف تكون مغرية وقد استدار جسدها بعد الزواج، ولكن لا تكون عاهرة.

كانت تعرف ماذا يريد الناس أن يسمعوا وأن يقرأوا. كانت تعرف كيف تلفت الانتباه. وكأن المخرج الذي كان يصرخ فيها وهي نصف نائمة منذ سنوات بعيدة: «ارقصي!» لا يزال بجوارها حين تستيقظ من النوم كل يوم ويصرخ في أذنها بجانب السرير: «ارقصي!» اعرضي نفسك. كوني متواجدة. لا تتركي الأضواء تخبو.

وأوصلها الصحفي - قبل أن يحبط ويسبها في سلسلة مقالات ستأتي

فيما بعد - بدار النشر المجهولة التي تطارد أصحاب المتابعين الكثر على قنوات التواصل الاجتماعي.. وبدأت كتبها في الظهور.

وزاد تصديقها أن البون الشاسع بين ما تدعيه وبين حقيقتها يمكن أن يقل.

«حتى فوجئت يومًا ما بأنني قد فزت بالجائزة الثقافية الأكبر في الدولة».

وحينها تغير كل شيء.

«لم أكن قد قدمت للمسابقة. في كل تاريخي من الكتب السبعة السابقة لم أفكر أبدًا في الترشح لأي من الجوائز. كنت أعرف تمامًا أن أعمالي ليست من تلك التي قد تقرأها اللجان حتى. كنت سعيدة بالصدى الذي تحدثه بين القراء، وكانت مبيعاتها المضطردة بفضل زيادة متابعيني على السوشيال ميديا كافية لترضيني. لكنَّ أحدًا ما أوعز للناشر أن يتقدم بها. حين أتى الخبر لم أصدق. كانت كالمعجزة التي لم أتخيلها. كنت حتى الآن قد كتبت ستة كتب عن العلاقات وكانت هذه هي روايتي الثانية، والتي ضمنتها نظريات العلاقات التي كونتها عبر السنوات. كانت الرواية في أساسها تجميعًا للمواقف التي كنت أحكيها على صفحتي، أسقطتها جميعًا على بطلي الرواية. سمعتهم يقولون إن الجائزة كانت تسعى وراء المزيد من الانتشار ولذلك منحتها لكتابي نظرًا للمبيعات التي حققها. كنت أعرف ذلك ولم يضايقني. ولكنه منحني درجة من القبول لم أتخيلها. كنت قد سئمت تمامًا السخافة التي اضطررت لتحملها من تكتلات المقاهي اللزجة، ومهما حاولت أن أبعد نفسي عنهم، كنت أعرف جيدًا أنني أحتاج لهم حتى أحصل على اعتراف الوسط وبالتالي أترقى فيه قليلًا. كانت قواعد اللعبة سهلة بالنسبة لي، ولم يكن صعبًا عليَّ أن ألاعبهم وفقًا لما أريد. لم أمنح أحدًا شيئًا أبدًا، وحين حصلت على الجائزة استمتعت بالفرجة عليهم يركضون نحوي، يتملقونني، ويكذبون خلف ابتساماتهم

قائلين إن الجائزة ذهبت لمن تستحق».

فور حصولها على الجائزة عاشت مرام لحظات توهج زادت من هلاوسها أضعافًا، وكأي حدث فقاعي انحسر كل شيءٍ بعد بضعة أسابيع. كاد ذلك يصيبها بالجنون. «لم أكن قد أخذت كفايتي من الاهتمام بعد، كنت أعلم أنها ما هي إلا شهور حتى يحل العام الجديد ويُعلن اسم فائز آخر بالجائزة، وساعتها تتحول عني الكاميرات والأقلام لتتجه نحوه».

وفي إحدى جلسات السهر في بيتها قالت إحدى صديقات مرام، كاتبة أخرى مجتهدة في فراش الكتاب القدامى، لبقية الثلة من النسويات اللاتي يتحدثن كلهن بصخبٍ وسط دخان السجائر وكئوس النبيذ: «الكل يتساءلون كيف استطاعت مرام أن تحقق كل ذلك وهي لم تنم مع أحد؟ يكاد الجنون يطير عقولهم.. سمعت أحدهم يقول إنكِ لا بد سحاقية».

وانفجرن جميعًا في الضحك.

عدا مرام.

جاءتها فكرة.

***

قامت مرام بما اعتبرته أذكى خطوة قامت بها في حياتها: أعلنت عبر جميع منصاتها أنها سحاقية، وأنها تظن أن هذا هو الوقت المناسب كي تتحرر فيه من سجن القيود المجتمعية الذي قبعت بداخله طويلًا.

كان كل ما شهدته مرام في حياتها يُعدها لهذه اللحظة. كان هذا تتويجًا لكل ما عملت هي وأمها من أجله لسنوات طوال. الآن لن ينساها أحد، وستقفز محطات ومحطات في رحلتها التي كادت تنتهي سريعًا.

وانقلب العالم.. وكنت أنا السبب وراء ذلك كله.

استمتعت مرام بالأضواء والسجال الذي كان يطمئنها أنها موجودة. كان ذلك هو نفس مصباح إضاءة الأستوديو الذي فشلت في أن تبقى تحته مطولاً. هذه المرة آتى الاحتفاء من كل العالم. كانت تقرأ المشهد جيدًا، وكانت تعرف من أين تؤكل الكتف، وقواعد التواجد في عالم الألفية والمساواة وحقوق المرأة والإنسان.

«كانت وجهة نظر استراتيجية حسبتها جيدًا. عرفت ماذا سأكسب وماذا سأخسر: العار من أهلي ورفض فئات كثيرة داخل المجتمع لهذا الأمر. ولكني سأكسب الجدل والترجمة واللقاءات والأضواء وربما إن كنت محظوظة بعض المنح. كان ذلك يفوق بكثير ما كان يمكن أن أصل إليه بقلمي فقط. بالطبع كنت أعرف ذلك، إجابة عن سؤالك، ولم يكن خداعي الذاتي قد وصل إلى الحد الذي أصدق فيه أني أكثر من مجرد وجه جميل».

لم تدرك مرام أي شيءٍ عما كان يحدث على الناحية الأخرى. المكالمات التي أتتني وسب الدين والتحذير. لم تدرك مرام تأثير ما فعلته على إنهاء علاقتي المثمرة مع الجهاز طوال سنوات بعيدة. ولم تعرف أنها زادت من اكتئابي الذي أصابني بعد الطلاق بتصرفها هذا. حدث نوع من الذعر من ردود الأفعال التي تولدت من فعلتها البلهاء. الجماعات المتطرفة التي استغلت الأمر. الطوائف الدينية الأخرى التي أدلت بدلوها. الأوساط الثقافية وصراعاتها التي اشتهرت بألفاظها النابية بين فريقي المؤيد والمعارض، دعوات القتل والحرق والتكفير، الفتيات والفتيان الذين أعلنوا شذوذهم تشجعًا مما فعلته مرام، والذي لاقى تشجيعًا هائلًا من الخارج، وهو تشجيع أجج الحركة وزاد من سرعة انتشارها لحظة بلحظة، وكان ذلك أكثر ما يرعب كل المسئولين: أن تتحول تلك الحادثة الفردية إلى فوضى تصبح ذات تواجد حقيقي ومتزايد، والمصيبة أن كل ذلك كانت شرارته تحمل ختمًا رسميًا.

لم تُدرك مرام سوى أنها تريد احتفاءً كانت تنتظره من الضفة الأخرى.

وحصلت على ما أرادت.

***

«أهلا..

أرجو أن تكون بخير.

حقيقة لا أدري كيف أبدأ كلامي إليك. أعلم أنك تكرهني.

لن أدافع عن نفسي. نعم لقد أخبرت كينزو ورفاقنا بمكان تواجدك. كان وجودك مؤلمًا لنا جميعًا. خاصة بعد ما فعلته ماري. كان يجب أن ترحل. وعدوني أنهم سيخيفونك بعض الشيء دون إيذاء.

اليوم علمت أنهم ألقوا القبض عليهم.

أنا لست شيطانة. لست كما تظنني.

لقد أحببتك..

وأعلم أنك كنت تعرف ذلك. وماري أيضًا. ليس فقط لأني حاولت تقبيلك في السينما وأنت رفضت. أعرف أنك لم تخبرها، ولكني متأكدة أنها كانت تعرف حقيقة مشاعري نحوك. لطالما كانت العلاقات المعقدة والمشاعر المركبة جزءًا من علاقتي بماري.

لم أكن لأخاطر بالتصريح بذلك حتى لو من باب الاعتراف بعد ما مرت به علاقتي بماري قبل أن تقابلك. كانت الأمور بيننا قد وصلت إلى حد من التأزم تقاطعنا بعده لثلاث سنوات، لم تعُد ماري للحديث معي إلا بعد أن قابلتك، وبعد أن أسلمت، اتصلت بي وأخبرتني أنها تسامحني على كل شيء، وأنها تبدأ الآن بداية جديدة، ولا بد أن تبدأها بالتسامح والغفران.

في البداية ظننا أنها إحدى تقلبات ماري المجنونة وغير المتوقعة. كان ذلك بعد أن عادت من السفر في إجازة طويلة بالشرق الأوسط. سافرت وحدها لأول مرةٍ في حياتها. زارت عدة بلدان وقضت هناك ثلاثة أشهر

كاملة. كان ذلك حين قابلتك، في نهاية سفريتها على البحر. عادت ولم تكلمني ولكن بعد شهور قليلة قالت لوالديها إنها تريد أن تُسلم. ثم فعلت ذلك. وفجأة بدأت ألحظ تغييرًا في ملابسها حين كنت أقابلها صدفة في الحافلة أو المركز التجاري. لم نكن نكلم بعضنا منذ سنوات كما قلت منذ أن غادرت عصابتنا. في ذلك الوقت وبقدر ما كنت مرحبة بهذا الأمر، بقدر ما كنت أتساءل: علامَ تسامحني. ولماذا تؤكد ماري كلما استمعت إليها أنها تريد أن تبدأ صفحة جديدة.

أما لماذا لم تخبرك ماري أنني كنت واحدة من تلك العصابة فهو أمر لا أعرفه. ربما لأننا قطعنا عهدًا يومًا ما ألا نذكر ذلك الماضي لأحد أبدًا. أن نطوي الصفحة وألا يعرف أي شخص جديد يدخل حياتنا بعلاقتنا بتلك العصابة المقرفة. فقد قاطعناهم ولم نعُد نتكلم معهم أبدًا، حتى إننا كدنا ننسى يومًا معرفتنا بهم. حتى يوم أن قابلنا كينزو في محل الأحذية تجنبت الحديث معه وكأننا أغراب. لقد كبرنا. حين عادت ماري للحديث معي عندما أسلمت ذكرتني بهذا الوعد. كنا لا نريد أن يعرف أحد ما فعلناه. كان ما فعلناه فظيعًا. وكنا قد تعبنا من حفظ الأسرار التي دمرتنا. ولكن كان يجب أن يظل هذا السر بيننا. كان ذلك عهدنا منذ أن كنا أطفالًا: أن تحمي الواحدة منا الأخرى.

ولكني كنت أغار. أغار عليك منها. وكنت أغار أكثر من تلك الفوقية التي كانت تحدثني بها. لم أكن أستطيع تقبل أن ماري وجدت الخلاص أخيرًا. أنها ستبدأ صفحة جديدة وكأن شيئًا في حياتنا لم يكن. حين رأيتها لأول مرةٍ بالحجاب كانت ماري التي أعرفها قد اختفت للأبد. كانت أكثر هدوءًا وسلامًا. كانت كأنها ولدت من جديد عن حق. كان الماضي وكأنه لم يكن بالفعل. وشعرت أني قد تركت وحدي، مع بقية أفراد العصابة، وقد فاتنا الخلاص معًا.

لقد فعلنا الكثير من الأمور المشينة. كنا نظن أن الشباب والطيش والجنون حقنا في الحياة. لم يخبرنا أحد بالصواب وإن أخبرونا لم نكن لنستمع. إذا كانت ماري قد وجدت الغفران وأفلتت من العقاب والشعور

بالذنب أين يتركني هذا؟

هناك الكثير الذي لا يمكنني أن أخبرك إياه؛ لذلك كان يجب أن ترحل، قبل أن تكتشف المزيد.

لقد كنت أنا مصدر غيرة الكثيرين من أبناء عمومتي ومنهم ماري لأنني كنت متفوقة في دراستي. أنا الوحيدة التي استطاعت أن تنهي دراسة الجامعة. وعملت بأفضل وظيفةٍ ممكنة. كل ذلك قمت به وأنا أمارس حياتي الماجنة كما أريد. كانت لديَّ هذه القدرة، ولكني أيضًا كنت أغير.

حين كنا صغارًا، كنت أنا الفتاة الوحيدة وسط المجموعة، وحتى صديقتنا صوفيا التي انتقلت فيما بعد لأستراليا انضمت لنا متأخرة. كان تنمرهم على ماري دائمًا مصدر ضيق لي، ولكني كنت أحسن لعب دور البريئة. كنت أظن الأمر مضحكًا في البداية. وكنت أمنعهم كلما استطعت. وكنت أواسيها كلما أتوا فعلًا مشينًا معها. ولكني في قرارة نفسي كنت سعيدة بأني لست مكانها، وأنها هي الضحية بينما أنا أتمتع بهذه المكانة المميزة وسط الباقين. لم أكترث لأمرها عن حق لأن لا أحد هنا يعلمك أن تكترث لأمر الآخرين. أن تحقق السعادة فقط لنفسك يجب أن يكون هدفك.

هل تذكر مرة في إحدى حواراتنا الطويلة، تلك الحوارات التي كنت تسترسل فيها بالكلام وأنا أكاد أجن بينما أحاول إخفاء انبهاري بكل كلمةٍ تقولها، كنا نتحدث عن أن هناك شيئًا ما، شيئًا غير مفهوم يحدث لبعض الناس عند ولادتهم. يولدون بمكانة معينة. هالة غير معلنة. تكتسب بالولادة وليس عن استحقاق. هذه المكانة لا يتم شرحها أو توصيفها. ولا توضع لها معايير أو تعززها مواقف محددة. إنها فقط تصبح موجودة. منذ أن كنت صغيرة كانت هالتي أني أحظى بالقبول الفطري ممَّن حولي. أنا ذكية وسريعة البديهة وجادة، وفي ذات الوقت مضحكة ولديَّ القدرة على الرفض والقبول كما أريد، دون أن أتنازل عن شيءٍ أو أخسر مكانتي واحترام مَن حولي. الكل رغمًا عنهم كانوا

يعطونني هذه المكانة. كانت مكانة ماري العكس تمامًا. خارج القبول الجماعي لأبناء مدرستنا وعصابتنا. لأني كنت أجمل ربما، لأنها كانت أبطأ في الفهم وأكثر انطوائية وجبانة ربما. ولكن حقيقة الأمر أن هذا ما سار عليه الأمر طوال سنوات، ولم أكن أمانعه، فقد كانت هذه المكانة تتعزز اليوم تلو الآخر، وأكثر ما كان يعززها هو الحط من شأن الأخريات، وهو ما كانت تجيد العصابة فعله، وكأنهم - كما كنت أرى بعين خيالي الطفولي - في مهمة سرية لتعزيز مكانتي الملكية.

ولكن حين تحولت ماري فجأة أبهرت الجميع. وجدتهم كلهم يركضون وراءها. وكانت تمنحهم ما لا أمنحه لأحد سوى بكثير من التحايل والترجي. في السابق كان أحدهم يحاول أن ينام معي أو حتى يقبلني فأتمنع، وأنا أعلم جيدًا أنه سيظل يحاول، وإن منحته ما يريد سيعد ذلك بمثابة مكافأة رائعة فيحافظ عليها بإبقاء الأمر سرًا. حتى إبقاء ما أفعله في الخفاء كان حقًا مكتسبًا دون جهد مني. أما ماري، التي كانت أسهل مني، أكثر سذاجة وبالتالي أكثر وضوحًا، فإنها عانت من الفضيحة والقوالب النمطية المؤلمة، كان ذلك اختيارها حتى تجد مكانها، ولكنها أيضًا أخذت مني الكثير.. أصبحت حين أتمنع على أحدهم يخبرني بأن ماري موجودة.. وأنه ليس في حاجةٍ إلى تحمل تعجرفي وتعاليَ.

وزاد الأمر مع كل فعل جنوني كانت تقدم عليه ماري.. زاد إعجابهم وانبهارهم، وأصبحت هي محط الأنظار والقبول والحديث، ورويدًا رويدًا تراجعت أنا لأصبح في الخلفية.

ولم أكن لأنسى ذلك ما حييت.

كان لماري سحر لم تستحقه مكانتها. وكانت ذات قدرة على أن تدفع الجميع للغيرة بعد أن كانت هي المنبوذة التي لا يراها أحد. لقد استطاعت أن تقنعني أنا بشرب المخدرات. وأن ننام أنا وهي وصوفيا مع الشبان الأربعة الآخرين في منزل أحدهم سويًا. استطاعت ماري أن

تجعلني أفعل أشياء لم أكن أتخيل أن أقوم بها. كنت في قرارة نفسي أجاريها لأني لم أكن أريد أن أترك على الهامش.. تمامًا كما بدأت هي كل شيء لأنها كانت تريد نفس الشيء.

ورويدًا رويدًا سقطنا في ذلك الجنون الذي كانت له آثار خطيرة. لقد آذينا الكثيرين. كنا نسير وراء كينزو مجبورين لنُشبع نزواته العنصرية، فنخرج في الليل ونصطاد أحد المهاجرين المشردين ونوسعه ضربًا. كان ذلك أحد الأشياء البسيطة التي نفعلها. لا أريد أن أتذكر. لقد عذبني هذا لسنوات. دمرني. ولذلك لم أتحمل تخلص ماري من كل هذا العبء بمجرد نطقها للشهادة.

هذه الصورة النمطية عن المكانة الرائعة للنساء هنا. أننا نكتسب مكانتنا الحقيقية بما نفعله وليس بفضل شكلنا ولا جنسنا؟ هذه صورة كاذبة. كلهم يخدعوننا، ويوضع في رأسنا أن الذي يعاملك بطيبة ويتحدث معك يستحق مكافأته لأنه خارج عن المألوف، كلنا بشكل لا إرادي نشعر أننا مجبورون على تقديم المتعة والجمال في شكلنا وملبسنا ووزننا وظرفنا، وإلا فإننا لا نستحق معاملة طيبة. هذه هي المعايير الوحيدة التي ننال عنها القبول.

أنت كنت أول مَن عامل ماري باحترام دون أن يطلب شيئًا. وأول مَن تحدث معها كبشر. عادت منبهرة بك. هي التي جعلتني أحبك قبل أن أراك. رأيت صوركما معًا. حديثك عن الفن والثقافة. كنت تعرف ما يفوق معرفة أبناء مدرستنا مجتمعين. كنت تتعامل بهدوء. كنت مفتونًا بها حتى. افتتانًا حقيقيًا كانت ماري تبحث عنه طوال حياتها.

ثم إنك أيضًا منحتها صك الغفران حين منحتها الإسلام.

كان ذلك يفوق ما يمكن لي أن أتحمله. وكان لا بد لي أن أتحرك. ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أزرع الشك بداخلك تجاهها. لم أقصد الشك، ولكني قصدت فقط أن تعرف مَن هي، مَن كانت عن حق، ما مرت به من اضطرابات وظروف. لم أتمكن من التصالح مع هذا الانبهار الذي

تنظر لها به، هذه الملائكية التي كنت تراها عليها حين لف وجهها الحجاب. كل ما سيطر عليّ هو أن الماضي لا يمكن أن يُمحى، وأنها ليست كما تظنها. لم أكن أريد أن يتغير شيء. لم أكن أريد الماضي أن يغادرها أو يغادرك كما لن يغادر أيًا منّا.

بعد الزواج بدأت ماري رويدًا رويدًا في التغير. بدأ نورها ينطفئ. وبدأت لهجتها في الحديث عنك تتغير. كان السلام الذي وصلت له وكأنه قد بدأ يتلاشى. بدأت تقول لي إنها تظن أن الماضي لن يغادرها أبدًا مهما حاولت. وأنه أصبح جزءًا منها وأنها مقتنعة بأنها لن تكون إنسانة صالحة أبدًا، أن هناك بذرة ما فاسدة بداخلها ولن تستطيع أن تنزعها عنها. بدا أنك قد أشربتها هذه الأفكار، وطبعًا عدت لعادتي القديمة منذ الصبا، ولعبت معها دور المساندة دون أن أعي حتى بيني وبين نفسي أن لي دورًا في هذا كله.

كان كلامها عنك أيضًا يختلف مع مرور السنوات. كلمتني عن تخلف الكثيرين في الشرق. كلمتني عن مشاهداتها عندكم وكيف أن الكذب والخداع لا يختلف عما عندنا كثيرًا. كلمتني عن شكك، ليس في أنها تخونك، لم يكن أبدًا هذا مثار مشكلة بينكما، ولكن عن شكك في ولائها لنفسها ولك لأنها لم تتصالح مع الماضي بعد.

لا أدري ما العطب الذي أصابني وقتها، ولكني للحظة واحدة وأنا أستمع إليها وأشاهد الانهيار التدريجي في علاقتكما لم أفكر أن لي دورًا في هذا كله. تمامًا كما كنت أفعل حين كنت أضمد جراحها وأواسيها بينما ذراعها النازفة تدمي فوق حجري ورأسها على صدري وهي تبكي.

بعد انفصالكما عادت إلى هنا كائنًا محطمًا. رويدًا رويدًا بدأت تبني نفسها من جديد. ولكنها كانت تائهة أكثر من ذي قبل. كل الأسئلة التي كانت تؤرقها بات واضحًا أنها تذبحها الآن. ولم تُعطِ نفسها فرصة، بحثت عن مهرب بسرعة. ما هو إلا عام واحد أو أكثر حتى تزوجت. والباقي أنت تعرفه جيدًا.

لا أدري أين كنت سأصبح لو لم أخرج لأدخن سيجارة في تلك الليلة. لا أدري ماذا كنت سأشعر حيالكما لو لم تجلس أمي لتراعي الأطفال في البيت، أو لو لم يكن أبي قد تأخر وتركناه ليلحقنا. لا أدري إن كان للأسف معنى، أو ما إن كانت ماري تستحق الأسف بعد ما فعلته، أظنها أخذت جنونها إلى أبعد مدى ولم تفشل في أن تفاجئنا جميعًا لمرة أخيرة.

أرجوك لا تعُد إلى هنا مرة أخرى. لا أحد يريد أن يراك.

محبتي..

كارين

***

فتحت الباب لأجدها أمامي. بتشوهها وصلفها ومشاعرها الجياشة. تقف أمامي في فستان برتقالي لامع. فوق كتفيها معطف قصير من الفرو. على وجهها نظارتها المعتادة وحول رأسها الإيشارب المعتاد أيضًا، هذه المرة فقط تغير لونه.

كانت تبدو مثل نجمات الستينيات في السينما.

دلفت عبر الباب دون أن تقول شيئًا. نظرت حولها في المكان دون اكتراث.

- أنا مخمور حتى الموت. حذرتها.

- وأنا أيضًا. قالت بعد فترة صمت.

- كنت في حفل وشعرت بالضجر فهربت. لي ثلاثة أيام أبحث عنك. لم أرد أن آتي ولكن قدمي قادتني إلى هنا.

بعد قراءتي لرسالة كارين عرفت أن الأوان قد حان كي أتوقف عن اقتفاء أثر ماري. انقطعت عن مرام وأغلقت هاتفي وجلست في غرفتي عدة أيام أتم مراجعة ما كتبته بمخطوطة الكتاب. لم أرد أي شيء من

العالم سوى أن أنتهي منه.

ارتميت على طرف السرير مستشعرًا ما سيحدث بعد قليل وسرى التوتر في كل جسدي.

- أعرف أن ما تفعله معي يفوق احتمالك. لو كنت مكانك ما كنت قد استطعت أن أنظر لذلك الوجه أكثر من هذا. أنا ممتنة لك أكثر مما تتخيل، ولكن كان يمكنك حتى أن ترسل لي رسالة قصيرة تعتذر عن مقابلتي مرة أخرى. هل تظنني أتحمل مثل تلك الإهانات الآن؟

- ليس الأمر كما تظنين..

- نعم، بالطبع.

- لا، حقًا. ليس الأمر كما تظنين على الإطلاق. إنه أبعد ما يكون عما في رأسك. أنت لا تعرفين شيئًا.

تخلع الإيشارب ثم معطفها.

يكشف الفستان عن أجمل فتحة صدر رأيتها في حياتي. لم أدرك كم هي طويلة ومشدودة القوام سوى الآن. وكأن معطفها كان بابًا موصد الأغلال، ما إن خلعته حتى انفجر من ورائه عطرها الذي ملأ الغرفة في ثوانٍ. تخلع حذاءها ذا الكعب الطويل كاشفة عن قدم كاملة الاستدارة. لونها الخمري كان كل ما احتجته كي أعود إلى الوطن.

أظل متسمرًا في مكاني أشاهدها بينما تقف أمامي في إضاءة الغرفة الخافتة تخلع ساعتها عن رسغها المرسوم. أتفحص بنظري كل تفصيلة في جسدها. عنقها الطويل رائع الجمال. ذراعاها الطويلان الممتلئان دون زيادة أو نقصان. ثنيات بداية صدرها التي كشفتها حين رفعت ذراعيها لتخلع رباط شعرها وتتركه ينزل على كتفيها. الآن الثقوب في رأسها اختفت وشعرها ثقيل. كلما تفحصت تفصيلة فيها عدت لأصعد بنظري إلى وجهها وأول رقبتها المكرمشة. لا يؤذيني وجهها الآن بقدر ما يذكرني بكل ما اقترفته يداي.. أكاد أسمع تكتكة مفاتيح اللابتوب

وأنا أكتب تقريري..

تقترب مني ثم تقف ملتصقة بي وأنا بعد جالس في مكاني. تستدير وترفع شعرها كاشفة عن ظهرٍ عارٍ بأسفله حد الفستان وسحّاب طويل. أجذبه لأسفل ببطءٍ ليبتعد طرفاه كاشفين عن مزيد من لحمها الذي لا أكاد أقوى على تذوقه.

تستدير نحوي مرة أخرى وتبدأ بإنزال الفستان بينما أرفع رأسي مراقبًا لكل حركة من حركاتها.

هذه الازدواجية بين وجهها البشع وجسدها الرائع تمثل كل شيءٍ لم أفهمه في حياتي. ازدواجية حبي لماري وتدميري لها. اعتزازي بموهبتي وتخلي عن نفسي. افتتاني بهم وكرهي لهم.

- إياك أن تُقبلني.

تقول وهي تفتح رجليها وتجلس فوق حجري بعد أن لم تعُد ترتدي سوى صدريتها ولباسها.

جسدي. أخاف أن يخذلني. الأدوية لم تفلح معي أبدًا. أتذكر انتصابي يوم أن كنت جالسًا أمامها. أتذكر أيضًا أن هذه المرة الأخيرة. لا شيء لأثبته لأحد. أترك نفسي لأتيه في حضنها بين ثنيات ثدييها المختبئين.. حتى الآن.

الآن ينصهر كل شيءٍ مع انصهارنا. تنخلع كل الأقنعة ولا يبقى بيننا سوى وجودنا البدائي. هناء في هذه اللحظة التي نتعرق فيها سويًا تذوب كل خطايا الماضي. لم يخذلني جسدي كما تقول تأوهاتها المكتومة. أتحاشى النظر إلى وجهها ولكني أتذكر كل شيءٍ فلا يفوتني. الآن يجب أن أنظر إليه. الآن يجب أن أقبله. أنا مَن شوهته وأنا مَن يجب أن يدفع الثمن الآن. تُشيح بوجهها عني وهي راقدة على ظهرها. مع اهتزاز جسدينا تنزاح النظارة من على وجهها. عين مغمضة والأخرى الجاحظة تنظر بإرادتها الحرة نحو نقطة ثابتة. أينما حركت نظري تظل

تلاحقني بثباتها. لا بد أنها عين القدر تراقبني ضاحكة من شعوري الجارف بالاستثارة وسط كل هذا التضاد المجنون.

أضع يدها في فمي وأتذكر كارين. أشعر بطعم دماء يتدفق بداخلها. ها هي يد كارين تنضم إلى أيادينا الملطخة بدماء ماري وضحاياها الخمسين. أنا برنيني وماري كانت تحفتي التي حطمتها. أما مرام فهي الضرر الجانبي لعرض قبلته يومًا وأنا جالس على الرصيف. ولكن هل أنا عبقري كبرنيني؟ هل سأجد مَن يبرر لي؟ مَن يكافئني عن فظائعي لأني قد دفعت الثمن مقدمًا بأعمالي الخالدة؟ أنا أيضًا لي أعمال ولكنها لن تصبح خالدة. كل هذه العزلة والوحدة. كل الذي خسرته كي أستطيع أن أكون فنانًا عظيمًا. ماذا كانت النتيجة؟

الآن تسقط نظارتها تمامًا وهي تعطيني ظهرها. أتحرر من ألم وجهها وأنا أحتضن خلفيتها البضة. من بين ملايين اللوحات التي احتفت بالجمال، قليل منها احتفى بقبح المرأة. أتعجب من فنانينا في الشرق، كيف لم يصوروا ذلك التشوه بالشكل الكافي؟ نحن مجتمعات احترفت تشويه النساء على كل مستوى. نحن رجال. برنيني هو الآخر كان رجلًا. هو الآخر احتفى بخلود الجمال، ولكنه شوه كوستانزا، لأنه كان يعرف أنها ستموت لا محالة؟ لأنه كان قد خلدها، وظن ربما أن تمثاله لها كان هو الأصل ولا داعي للحفاظ على ملهمته، تلك التي مثلت له كل دلالات الخداع والكذب؟ ولكنه هو الآخر كان كذابًا، خارج حدود الرخام الذي كان طيعًا يلين بين يديه، كان كذابًا.

الآن كل إيلاج ألجه بداخلها. كل تأوه أمنحها فيه بعض المتعة، أشعر وكأني من خلاله أعوض مرام عما فقدته. أنا مشترك مع أمها والمثقفين وصانعي الإعلانات في خلق ذلك الكائن المشوه الذي يرقد تحتي. كلما شعرت برغبتي تخبو تذكرت أيام ضعفي أمام ماري. وتذكرت خيانتي لأزواج عشرات النساء اللاتي أتين تحتي مثلما هي مرام الآن. تذكرت الرجل الذي جلس بجانبي يومًا ليخبرني بأني أستحق المكانة التي أصبو إليها ولكن المناخ لن يساعدني. وهو سيساعدني. لن تخبو قوتي

ولن يضعف انتصابي لأني يجب أن أقول شيئًا. أسمع بكاءها وهي تزيد من احتضاني وتدفس رأسي فوق رقبتها وكتفيها داخل الوسادة حتى لا أرى وجهها. كلانا يكاد يأتي.

هل تأتين

معه أبدًا؟

حين أفعل أصرخ وأنا مغمض العينين أشاهد مرام وكوستانزا وماري بأشلائهن ووجوههن المتقطعة.

أصرخ في أذنها وبعنفوان كل ذرةٍ من صلبي.

- كان أنا.. كان أنا..

***

«لك ما أردت. اتصل بهذا الرقم وسيصحبك مسئول من السلطات الإيطالية. ساعة واحدة فقط. أتمنى لك التوفيق».

نظرت أمامي عبر النافذة نصف المفتوحة وفي الأفق لاحت أمامي قبة البياتزا. أخفق قلبي في الدق للحظة. نظرت حولي في الغرفة وضجيج الليلة الفائتة يموج في رأسي مصاحبًا لطنين الصداع الرهيب.

قمت بتخفيف ذقني إلى أخف درجة دون أن تكون حليقة تمامًا. هذه المرة الأخيرة التي سأستخدم فيها جهاز التشذيب. تحممت وخرجت بالمنشفة حول وسطي وأشعلت سيجارة في النافذة. اتصلت بالرقم. أتاني صوت شاب بإنجليزية محطمة:

«إن كنت مستعدًا أرسل لك سيارة في الثانية عشرة».

أمامي ساعة. اتصلت بوكالة السفريات وسألت عن أقرب فوج سيسافر. أخبروني أن واحدًا سيجتمع في صباح الغد ويتحرك في اليوم التالي. طلبت أن يضموني إليه وسألحقهم في المساء. قمت بتوضيب حقيبتي الصغيرة ولم أترك سوى الحاجيات القليلة التي سأستخدمها

في بقية اليوم.

أخرجت البطاريات الجديدة ووضعتها في جهاز التسجيل. أخذت حقيبة صغيرة وضعت فيها دفتري الذي يحوي الأسئلة وعلبة سجائر وعدة أقلام. أدخلت الهاتف والشاحن وجواز السفر والمحفظة وجهاز التسجيل. قمت بتجربته وإعادة تشغيله فوجدته يعمل على خير ما يرام.

كانت خطواتي الثقيلة تزيد من بطئي، ولكني رغم ذلك تمكنت من ارتداء ثيابي الأنيقة التي أعددتها بعناية لهذا اليوم. بدلة كاملة وقميص مكوي وربطة عنق كحلية لامعة. بعد أن انتهيت ووضعت المعطف الثقيل فوق ذراعي نظرت في مرآة الدولاب العتيق.

في الموعد المحدد كانت سيارة الشرطة من طراز ألفا روميو تقف أمامي. نزل منها شرطي نظامي سمين بملامح جادة على وجهه وحياني برسمية. جلست بجواره بينما شرع في القيادة بمهارةٍ وسط شوارع روما الضيقة.

بعد برهةٍ وصلنا إلى الطريق السريع. توقف لوضع بعض البنزين فاشتريت لنفسي وله كوبين من القهوة. بدا ممتنًا رغم أنه لم يقل شيئًا. طوال الطريق لم يتحدث. فقط أجابني حين أشرت إلى ساعتي عدة مرات أن الطريق سيستغرق ثلاث ساعات. عرفت من إجابته أنه لا يتحدث كلمة واحدة من الإنجليزية، وأن صمته المطبق لم يكن تعجرفًا شرطيًا أجنبيًا ولكنه كان ببساطة ارتباك من التعامل مع أجنبي يبدو له أنه ذو حيثيةٍ ما، بدليل أنه يقله بسيارة الشرطة إلى فلورنسا.

على حافة جبال الألبينينو الساحرة عبرت السيارة بنعومة وثقة. كان الجو باردًا وغائمًا على غير عادته في ذلك الوقت من العام. لا يزال الربيع بعيدًا.

حاولت أن أعيد ظهر الكرسي إلى الخلف وأريح رأسي قليلًا ولكني شعرت بأن ذلك من قلة الذوق. كنت قد استعدت كل نشاطي بعد أن

بدأت المسكنات في عملها مصحوبة بالكافيين. لم تعترني رغبة في النوم أو التكاسل، وحاولت بكل قوتي ألا أفكر فيما أنا مقبل عليه. قررت أن أمضي الوقت في كتابة رسالة مطولة لمرام.

لا أذكر متى غادرت بالأمس، ولكني أذكر أننا جلسنا على حافة الشرفة ندخن السجائر ونطالع روما الهادئة بعد أن انتصف الليل. صببت لكلينا كأسين من نبيذ مزارع إمرسالوي الذي عدنا به من زيارتنا لها سويًا. جلسنا في صمت طويل. يسكرنا جمال اللحظة البديعة وارتواء ظمأنا. كان كلانا قد تحرر من سجن جسده في تلك الليلة.

على الرغم من أنني لا أعرف بشكل جازم مَن الذي ألقى عليها الحامض، ولكني شعرت بأن معرفة أني المتسبب فيما حدث لها بشكل ما قد يمنحها بعض العزاء. لم أكن لأرحل وأنا أحمل عبء مرام أيضًا فوق ظهري. يكفيني أن مرثيتي لماري جاءت متأخرة للغاية.

توقفت عن كتابة الرسالة في حين ضرب الشرطي المكابح فجأة وهو يطلق اللعنات. رفعت رأسي لأجد غزالة برية تقف في منتصف الطريق، رافعة رأسها نحونا ناظرة بتحدٍ بينما تعبر إلى الناحية الأخرى من الطريق. من على منحدر الجبل على يميننا رأيت كومة صغيرة من التراب. فتحت النافذة التي غطاها بخار تنفسنا وقطرات المطر من الخارج لأرى غزالين صغيرين في عمر الشهور ينزلان متعثرين. مد أحدهما قدمه الأمامية في تردد، بينما كان الآخر يتحرك في دائرية نشطة ويقفز يمينًا ويسارًا. عادت الأم إليهما وبدأت في تشممهما ودفعهما برفق حتى يخرجا إلى نهر الطريق. بعد لحظات هدأ كلاهما وبدآ بطريقتهما المضحكة في التحرك بخطوط متعرجة عابرين أمامنا مرة أخرى بينما تلحقهما أمهما التي وجهت نظراتها الساهمة لنا بعينين كاملتي الاستدارة وكأنها تحذرنا من أن نتحرك خطوة.

حين أنهت عبورها الآمن مع صغيريها فتح الشرطي نافذته وأخذ يوجه لها السباب بينما يواصل التحرك.

أما أنا فقد ظللت أرقبها قدر الإمكان من فتحة نافذته بينما تتوارى منحدرة إلى أسفل آخذة معها قلبي ولب كياني.

***

وصلنا إلى فلورنسا قبل الثالثة بقليل. ظللنا في منحدر صعود طوال الدقائق العشر الأخيرة من الرحلة. وهناك ظهر مجمع سجون سوليتشانو الممتد على سفح الجبل. بمبانيه البيضاء الدائرية المحاطة بسور مرتفع يمتد إلى عدة مئات من الأمتار، وقف المجمع الذي يضم أعتى مجرمي المافيا الإيطالية، والإرهابيين، والمخربين، وحفنة من الوزراء السابقين. توقفت السيارة أمام بوابة خرسانية ضخمة، واقترب منّا جندي ملثم مدجج بالسلاح والمعدات الثقيلة. كل ملابسهم بالأسود الكامل. الجو هنا أكثر برودة لارتفاعنا عن سطح البحر. تبادلا بعض الكلمات ثم قال لي مرافقي: «باسابورتو». أعطيته جواز سفري فناوله للحارس الذي دخل إلى الغرفة الصغيرة وعاد به بعد دقائق.

انفتحت البوابة الكهربائية ودلفت السيارة إلى الداخل. سرنا في الطريق الفردي لمدة خمس دقائق تحيطنا من الناحيتين أرض مزروعة بالحشيش المقصوص بعناية. وصلنا إلى مبنى صغير بدا كأحد المباني الإدارية. «أنديامو أنديامو» كرر الضابط السمين ففهمت أنه يطلب مني النزول. ما إن فتحت الباب وفردت ظهري حتى تقدم نحوي شاب ممشوق القوام في بدلة إيطالية أنيقة. مد يده مصافحًا.

- مرحبًا بك. أنا ستيفانو، تحدثنا على الهاتف.

كانت ابتسامته واسعة وشعره شديد النعومة. ذقنه النابت لا يكشف أبدًا أنه شرطي. تساءلت عن راتبه الذي يتيح له شراء ملابس بدا أنها فاحشة الغلو.

- أتود كوبًا من القهوة؟

- أفضل أن نبدأ فورًا، عليّ اللحاق بطائرتي بعد بضع ساعات.

أشار لي بمصاحبته وبدأنا نقطع الساحة المفتوحة بخطى سريعة تفاديًا للمطر الخفيف الذي يسقط.

- ممتاز. لقد أرسلت لنا شرطتهم كل الأوراق الثبوتية والتقارير اللازمة لاستقبالك. كذلك أرسلت لي المحققة روابط لمقالاتك، أعترف أن إنجليزيتي لم تساعدني على قراءتها كلها ولكني أعجبت بتحليلك الدقيق للأمور. بالطبع لن أنكر أن الزاوية التي تتناول منها الأمر قد تثير حفيظة الكثيرين. لقد كان القبض عليه بالنسبة لنا انتصارًا رائعًا ولكن للأسف أتى بعد الكارثة التي خططها ونفذتها زوجته.

لاحظت أننا نسير نحو مبنى السجن الرئيسي.

- ليس هناك الكثير من الإرشادات التي تحتاج إلى معرفتها. سوف تقوم بمقابلة السجين في إحدى غرف التحقيقات. أعلم أن خيالك الصحفي ربما صور لك أنك ستشاهد أحد السجون من الداخل وتمر من بين أقفاص المساجين، ولكن هذا ليس الحال في الواقع للأسف. لقد تم نقل السجين إلى غرفة استجواب أولي مراقبة بالكامل بالكاميرات التي تسجل الصوت والصورة.

بينما ندخل المبنى ونمر على بوابة التفتيش كان يواصل حديثه ببطء بينما يشيح بيديه كلما لم تسعفه الذاكرة بالكلمة الإنجليزية المناسبة.

- لسلامتك سوف تجد حارسين مسلحين يقفان معكما بالغرفة. أفترض أنكما ستتحدثان بالعربية لذا لا تقلق من سرية حوارك الصحفي فلن يتم تسريب شيء منه. هناك ساعة واحدة فقط مسموحة لهذه الزيارة. هناك ماكينة لإعداد الشاي والقهوة. لا تحاول التواصل جسديًا مع السجين بأي شكل من الأشكال. سوف يكون موثقًا بالأصفاد من قدميه ويديه إلى المقعد الذي يجلس عليه.

سلمتهم الحقيبة التي قاموا بتفتيش محتوياتها بدقة، ثم قام أحد الحراس الواقفين بتفتيشي ذاتيًا مربتًا جوانب جسدي وضاغطًا بلطف على جيوب بنطلوني وحول وسطي. خلعت الحذاء ووضعته ليمر من

جهاز الكشف.

واصلنا المرور عبر عدة ممرات صغيرة بعد أن عبرنا الباحة الواسعة التي يتوسطها مكتب استقبال محصن بزجاج شفاف. خلفه جلس عدة أفراد يتحاورون بصوتٍ عالٍ مع ضباط ومحققين وموظفين. بدت مثل صالة استقبال في مؤسسة استثمارية كبرى.

صعدنا بضع درجات إلى الدور الأول. اختفى الضجيج فجأة ومررنا بهدوء وسط بعض المكاتب ذات النوافذ الزجاجية. في آخر الممر كان باب غرفة عريض بعرض الحائط كله. كانا بابين كبيرين كأبواب غرف الجراحة في المستشفيات. أمامه يقف حارس آخر واضعًا يده خلف ظهره، فوق حزامه تدلت حافظة مسدس ضخم.

توقف ستيفانو عن السير فجأة حين وصلنا. يتحدث بصوتٍ خفيضٍ الآن.

- في حال احتجت إلى أي شيءٍ فقط انطق باسمي بصوتٍ عالٍ لأحد الحارسين وسوف يقوم باستدعائي. سوف تبدآن في الثالثة والنصف بالضبط وبالتالي فإنني سأدخل إليك في تمام الرابعة والنصف لأصطحبك مرة أخرى إلى هنا. استرح هنا لعشر دقائق وسيقوم الحارس بإدخالك في الموعد.

هززت رأسي شاكرًا وجلست على الكرسي الصغير بجانب الباب. نظرت في الساعة فوق رأس الرجل فكانت الثالثة والثلث.

حين علم رئيس التحرير أنني قد نجحت في ترتيب لقاء لأحاور محمد قابل طار فرحًا. أصابته المفاجأة بتلعثم في الكلام. أرسل لي كل ما احتجته لتغطية رحلتي إلى إيطاليا. كذلك كافأني بمبلغ كبير وضع في حسابي.

كان طلبي من المحققة هو أن أجلس مع قابل، وفهمت هي من الوهلة الأولى أن هذا الطلب وإن كان مغلفًا بستار رغبتي في إجراء حوار

صحفي لجريدتي إلا أن الهدف الحقيقي من ورائه كان رغبتي في لقاء الرجل الذي قتل زوجتي.

كان قابل بالنسبة لي هو الحلقة الأخيرة في السلسلة الدامية التي أدت إلى هذا الحادث. إن تفجير الكاتدرائية كان عملية استغرقت سنوات لإعدادها. بدأت منذ يوم ولادة ماري، وشارك في إعدادها كل مَن قابلتهم بدءًا من والديها، وأصدقائها، وزملاء الدراسة والمجون، وأنا، وكانت نهايتها بمحمد قابل. الرجل الذي ضغط على الزر الأخير الذي حول ماري ومَن معها إلى أشلاء.

لم تكن هذه محاكمة. ليس لديَّ ما أحاكمه عليه. منذ أن توصلت إلى أنني سبب فيما حدث، وأن كلينا نفس الشخص، كلينا أتى إلى الدنيا ليُحدث نفس الأثر من الدمار والخراب لمَن حوله، منذ أن وصلت إلى هذه القناعة عرفت أنني لا يمكن أن أرحل إلا حين أقابل غريمي. لم يكن عدوًا لي، ولكنه أقرب إلى كائن متشح بالسواد مثلي. تنافس كلانا على إيذاء امرأةٍ واحدة. حتى لو لم يكن ذلك عن إدراك منه، أنه ينافسني. كان يجب أن أجد إجابات لأسئلة لا تزال باقية لم تجبني عليها رحلتي حتى الآن.

هل كان يحبها؟ كان يجب أن أعرف إن كان يحبها. هل كانت تحبه هي؟ كيف استطاع أن يملأ رأسها بهذه الأفكار ويحركها حتى تُقدم على ما أقدمت عليه؟ لا زال هذا السؤال معلقًا دون إجابة. هل كانت تعتريه الوساوس التي اعترتني، أم أنها وجدت عنده القبول الذي كانت تبحث عنه طوال حياتها؟ هل منحها الحضن الذي فشلت أنا فيه، فكافأته بأن خضعت لإرادته كاملة حتى ماتت وتركت خلفها ابنتهما الرضيعة؟

سؤال آخر كان يؤرقني عندما ركبت الطائرة من أرض الوطن إلى حيث دُفنت ماري: هل كان أكثر مني رجولة؟ أكثر مني فحولة؟ هل انتصر في المضمار الذي فشلت فيه؟ لا أدري إن كان أدائي مع مرام هو السبب أو ما عرفته عن ماري من قطع الأحجية التي جمعتها طوال

الأسابيع الماضية، ولكني لم أعد أفكر في هذا السؤال كثيرًا. ربما يكون السبب في عدم اكتراثي بهذا الأمر الآن أن كل شيءٍ يستوي حين تعرف النهاية. لا يهم إن كان البطل طيبًا أم شريرًا طالما أنك عرفت أنه يموت في النهاية. أردت فقط أن أعرف كم أشبهه.

هل عرفت معه الله كما لم أعرفه لها؟ حتى لو كانت معرفتها مشوهة ولكن هل كانت بإيمان حقيقي؟ بماذا كانت تفكر ماري في تلك اللحظة الأخيرة قبل أن تضغط زر التحكم؟ بماذا همست لرقية وهي تودعها للمرة الأخيرة؟ بماذا كانت تفكر؟ لماذا لا تعودين كي تخبريني يا ماري مَن كنتِ حينها؟ كيف فعلتِ بنا هذا؟

طرحت عليها السؤال وهي تجلس أمامي بقميصها الجينز الواسع والتنورة السوداء الفضفاضة وحذائها الرياضي، بينما يغطي رأسها الإيشارب الأرجواني الزاهي الذي ارتدته ذلك اليوم عندما زرنا المتحف. جلست أمامي وتعجبت من جنوني المطلق الذي أتى بي إلى هنا. «صوت رأسك الذي لا يسمعه سواك سيذهب بك إلى حافة الجنون، ويومًا ما لن تعود أبدًا». ها أنا يا ماري أجلس على أعتاب آخر رجل عرفتيه.. علّ بقايا رائحتك لا تزال عالقة به. سوف أذهب إلى آخر العالم كي أقتبس قبسة واحدة من بقايا روحك لا تزال هنا. لو سرت ملايين الخطوات حتى أقبض بيدي على شيءٍ منك سأفعل. أيرضيكِ هذا؟ أيعوض شيئًا ممَّا فعلت؟

تلاشت ماري قبل أن تجيبني حين دخل رجل الأمن المتجهم مجال نظري طالبًا مني الوقوف. فتشني مرة أخيرة ثم أشار لي نحو الباب.

عدلت من ثيابي وفردت ظهري وأخذت نفسًا عميقًا بينما أنظر ساهمًا نحو الباب الأصم.

ثم خطوت نحوه ببطء.

***

يتمتع محمد قابل بكاريزما لا يمكن إنكارها. أجلس أمامه وتفصل بيننا طاولة عريضة، وأنظر في عينيه لأجدهما تشعان ذكاءً جليًا. هناك نوع من الحضور الطاغي لقابل يجعلك تستمع إليه رغمًا عنك. بل وقد تقتنع بما يقول فقط لأنه يعرف أكثر منك.

كانت بنيته رياضية تختلف تمامًا عما تصورته. لم يكن الشاب المعدم الذي تخيلته. بشعره الأسود الفاحم ولحيته الكثيفة، كان يجلس بتحدٍ مخيف ونظرات حديدية في رداء السجن البرتقالي.

حين دخلت منذ لحظات جلت بنظري في الغرفة. كانت غرفة تحقيقات مثالية كتلك التي نشاهدها في الأفلام: مربعات الإضاءة البيضاء موزعة بتناسق في السقف. الحوائط مبطنة بإسفنج مغطى بجلد رمادي عازل للصوت. على اليسار كانت مرآة عريضة بطول الحائط، لا بد وأن وراءها غرفة المراقبة والتسجيل، وأمامي كان الحارسان اللذان أخبرني بهما ستيفانو. حين جلست وصارا على يميني كان قابل في مواجهتي. ومن خلفه رأيت انعكاسي في المرآة.

وأنا أسحب الكرسي ألقيت عليه السلام كما يريد أن يسمعه.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رد السلام كاملا بحروف مفخمة. لاحت في عينيه سعادة بكلامي العربي. بدا أصغر مني بكثير.

فتحت حقيبتي وأخرجت منها حاجياتي متحاشيًا النظر نحوه. تحدثت إليه بالعربية بينما أضبط جهاز التسجيل.

- أشكر لك قبولك الحوار. قيل لي إنك تتحدث العربية جيدًا. ولكن إن كنت مرتاحًا أكثر بالحديث بالإنجليزية فلا بأس.

حرك يديه الضخمتين فوق الطاولة. السلاسل تصدر صوتًا مكتومًا.

- مرحبًا بك أخي الكريم. بارك الله فيك.

كانت درجة حرارة الغرفة معتدلة للغاية، ولكني رغم ذلك شعرت بحرارة شديدة حتى بعدما خلعت المعطف فور دخولي. الآن اطمأننت لإجابة أول سؤال كان يقلقني. إنه لا يعرف مَن أنا.

ضغطت زر التسجيل ووضعت الجهاز في منتصف المسافة بيننا.

- الوقت ضيق لذا دعني أبدأ مباشرة. أنا لست هنا لأدينك أو أهاجمك، وفي ذات الوقت لن يكون حوارنا فرصة لك كي تقنع القراء بوجهة نظرك أو ما تظن أنك حققته. فلنقل إنني مهتم أكثر بالجانب الشخصي في حياتك وحياة منفذة العملية. أريد أن أعطي الجمهور صورة عن حقيقة الأشخاص الذين يخوضون هذه الحرب.

هز رأسه دونما تعبير. أردت أن أكون حاسمًا ومتوازنًا، وألا أتيح له فرصة للعدائية أو الرفض.

- في البداية يهمني أن أعرف القليل عنك. نشأتك وتكوينك. خلفيتك بشكلٍ عام.. أيًا كان ما يأتي على ذهنك فقط قُله.

نظر إلى أعلى مفكرًا قليلًا. شاربه الحليق يستفزني. لو كان قد أبقاه وهذب لحيته قليلًا لبدا أكثر وسامة بكثير. ترى هل رأته يومًا حليق الذقن كما رأتني؟

- بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي المصطفى خاتم النبيين. لا أعرف حقيقة من أين أبدأ. ولدت في بلدةٍ صغيرةٍ تبعد عن العاصمة ما يقرب من 500 كيلو متر. نشأت لأب يحفظ القرآن وأمي كانت ربة منزل. اهتم أبي الذي كان يعمل في التعدين أن أدرس القرآن وعلوم الدين من صغري. واصلت الدراسة بتفوق وكنت أنجح إخوتي. ووفقني الله أن أكون أحد الأوائل فتم إرسالي بعدها لأدرس الهندسة بالعاصمة. وهناك تعرفت على إخوة في جماعة الشباب المسلمين وزاد التزامي في تلك الفترة. تقدمت بعدها إلى بعثةٍ في دولةٍ أوربية، حيث تم إرسالي إلى هناك لأتمم الماجستير.

- هل انضممت للجماعة الأصولية في ذلك الحين أم بعد ذلك؟

- بحلول نهاية عام الماجستير الأول كنت قد شاهدت كل فحش الغرب الكافر. بالطبع لم أكن أحتاج لقرائن كفر هذه البلاد بعد ما رأيته من قتل وتفجيرات واحتلال لبلادنا، ولكن مشاهداتي أكدت لي أن الظالمين قد جاوزوا المدى.

- ولكن القرب من هذا المجتمع كان كفيلًا بأن يريك جانبًا آخر من هذا العالم.

- حقًّا. شاهدت الانحلال والبغضاء في كل جانب. كذلك عرفت كم يكرهوننا وكم امتصوا من دمائنا وثرواتنا حتى صاروا متخمين بالنعمة إلى هذا الحد. في الوقت الذي يموت فيه آلاف الأطفال والشيوخ العزل برصاص الكفار، يعيشون هنا في نعيمهم يفعلون كل ما يُغضب الله.

- وكيف تم تفعيل التجنيد؟

- حين كنت أعود لزيارة عائلتي في الإجازات كان شيخي، الشيخ منصر زابمارد عليه رحمة الله، يتابع سير دراستي وأحوالي، وهو الذي طلب مني الانضمام لمساعدة الإخوة في حربهم ضد الطغاة. لا أريد أن أطيل عليك، قصتي لا تختلف عن الآلاف الذين نذروا حياتهم لخدمة الإسلام ورفعة لواء الدين. من أي بلد أنت أخي الكريم؟

أخبرته كاذبًا باسم دولةٍ أخرى. لا بد أن ماري يومًا ما أخبرته من أي بلدٍ كان زوجها الأول. لم أشأ أن يربط.

- وفي أي مرحلةٍ قابلت السيدة ماري فريدريك؟

امتعض حين ذكرت الاسم.

- كانت خديجة عليها رحمة الله إحدى المرتادات على المركز الإسلامي. كنت حينها قد أنهيت تدريباتي في موطني على السلاح والمتفجرات والتخطيط الاستراتيجي، وكان المطلوب مني أن أكمل

دراستي بتفوق حتى أحصل على منحةٍ للدكتوراه فأواصل بذلك تواجدي بأوربا.

مَن تكون خديجة؟ حين أشار لها بهذا الاسم شعرت أنه يتحدث عن إنسانةٍ أخرى. تذكرت أن الصحفي الفرنسي السخيف قد أشار لها بهذا الاسم من قبل، رغم أن الإعلام لم يتداوله على الإطلاق. لا أذكر إن كنت أنا أم كانت هي مَن رفض أن تغير اسمها بعد الإسلام. أظنها كانت هي. تريد الحفاظ على شيءٍ من هويتها، ألا تفقدها تمامًا، وكنت أوافقها أن ذلك التغيير الشكلي لا يعني شيئًا، وإنها إن ولدت ماري ستظل ماري طوال حياتها ولن يغير من ذلك شيء. خديجة. تذوقت الاسم في فمي بعض الوقت. حاولت أن أربطه بها ولكني وجدته لا يناسبها. لا أدري لِمَ ولكني شعرت ببعض الارتياح.. ربما تكون تلك التي تزوجته امرأة أخرى غير التي أحببتها.

- وكيف تطورت علاقتك بها؟

- كان كلامنا يتم في أضيق الحدود. عرفت منها أنها مرت بتجربة زواج سيئة، ولكنها كانت لا تزال تحافظ على إسلامها على خير ما يكون. كانت أَمَةً صالحة لكن مشوشة. كنت في ذلك الوقت أبحث عن الزواج ليس فقط لأعف نفسي ولكن أيضًا لأضمن استقرارًا أكثر في أوربا. ورغم أني لم أنَل ثواب إسلامها، إذ تم هذا بفضل زوجها السابق، إلا أني وجدت أم رقية زوجة مسلمة صالحة. رغم أن إسلامها كان قد مر عليه بضع سنوات إلا أنها كانت لا تزال مثل الصفحة البيضاء التي يمكن كتابة الكثير بها.

- ومتى كانت اللحظة التي قررت فيها الزواج بها؟

- بعد حصولي على الماجستير تم قبولي في جامعة إيطالية للدكتوراه. أرسلت لها في طلب الزواج على يد شيخ المركز الإسلامي، ووافقت على الفور.

أحتاج لسيجارةٍ كما الموت.

- وهل حدثتك عن حياتها قبل الإسلام؟ أو عن زواجها السابق؟

- لم نتطرق لهذا الأمر كثيرًا. كما أخبرتك لم تُتح لي فرصة الحديث معها عن قرب سوى بضع مرات تُعد على أصابع اليد الواحدة. ولكني عرفت أنها تشاركني كراهية هذا العالم الغربي، وأنها لم تكن تجد نفسها وسطهم بأي شكل مهما ادعوا تقبلهم لإسلامها. كانت أيضًا قد عاشت في دار إسلامية مع زوجها السابق ولكنها وجدت أنها لا تختلف كثيرًا عن دار الكفر ها هنا. كان دائمًا لديها شعور بالواجب تجاه دينها وأنها لم تقم تجاهه بما يكفي. بارك الله فيها ولا نُزكي على الله أحدًا ولكني أحسبها من الشهداء.

هل كان ينحني ليعقد رباط حذائها المنفك كما اعتدت أن أفعل؟

- هل تريد أن تشرب شيئًا؟

- أنا صائم ولله الحمد.

قمت نحو الطاولة الجانبية الصغيرة وأعددت بعضًا من الشاي. أثناء انتظاري لغليان الماء استدرت نحوه.

- تزوجتما لثلاث سنوات، وأنجبتما ابنتكما، كيف جاءت فكرة أن تقوم هي بتفجير نفسها في بلدتها؟

- هذا سؤال يطول شرحه.

- سيكون هذا السؤال لَب الحوار. العالم ينتظر ليفهم. هل تخاف الإجابة؟

- ليس لديَّ ما أخسره، لقد اعترفت مسبقًا، ولا أبغي الآن سوى الشهادة.

انتهى الماء من الغليان وصببته في الكوب السيراميكي الأبيض

النظيف. أعود إلى مكاني مرة أخرى.

أخذت أقلبه بهدوء دون أن أنظر نحوه.

- تفضل..

- بحلول زواجنا وانتقالنا إلى ميلانو كانت داعش قد صعدت إلى الساحة، كان شيخي قد انفصل عن القاعدة منذ زمن. انتظرت أي جديد منه وأتتني الدعوة عبر إحدى غرف الدردشة الخاصة بإحدى ألعاب الكمبيوتر. جاءت الأوامر أن نسافر من روما إلى إسطنبول وبعدها نتحرك نحو سوريا. شددوا على أن أصحب زوجتي معي. أخبرت خديجة بالأمر. بدا عليها التردد في البداية ولكني طمأنتها. «شهر واحد فقط ونعود». حزمنا حقائبنا وخرجنا في سبيل الله. كان ذلك وقت الإجازة الصيفية من الجامعة. بعد عشرة أيام كنا قد وصلنا إلى مقر الدولة الإسلامية. هناك تلقينا التدريب اللازم وقضينا جل وقتنا في تلقي الدروس. كانت أم رقية محط إعجاب وقبول النسوة هناك لالتزامها التام بكل أمور الشريعة وحماسها الشديد لتطبيقها. على الرغم من شظف العيش وصعوبة الظروف وحرارة الجو إلا أنها بدت سعيدة ومتسقة مع كل ما يحيطها.

- هل قالت لك ذلك صراحة؟

- بضع مرات. أخبرتني بأنها تشعر لأول مرة أنها تنتمي لمكانٍ ما. لجماعةٍ ما. وأن كل النسوة هنا أخواتها. أخبرتني بأنها تشعر بقبول الله لها وأنه لا بد وأنه يحبها لأنه اختارها لأن تكون جزءًا من هذه الجماعة التي تبتعد عن المعصية. «هذا هو الإسلام الذي عرفته وأحببته بحق، ما رأيته في البلدة الأخرى لم يكن إسلامًا أبدًا»، كانت تقول. أظن أنها في هذا التوقيت حملت بابنتنا رقية.

جسدي يتقطع.

- بعد انتهاء مدة المعسكر طُلب منّا العودة لحياتنا الطبيعية هنا. بعدها

ببضعة شهور، وبينما كانت في أواخر الحمل، أتتني خديجة يومًا بفكرتها.

- أن تقوم بتنفيذ عملية في بلدتها؟ أهذه كانت فكرتها؟

- نعم. أخبرتني بأنها تشعر منذ أن عادت من سوريا بأنها تلفظ كل مظاهر الحياة في أوزبا، وحكت لي عن رؤيا أتتها وهي نائمة تسير فيها داخل الكنيسة التي كانت ترتادها وهي صغيرة، ولكن هذه المرة وهي مرتدية خمارها. عاودها الحلم عدة مرات وفي كل مرة ينتهي بنفس النهاية: وهج هائل لطاقة من النور. عدت إلى شيخي فأخبرني بأن أصبر حتى تضع مولودتها ثم نرى. طوال الشهور المؤدية إلى الولادة لم تكن تفكر أو تقول شيئًا سوى اشتياقها للحظة التي ستتم فيها الأمر. ظلت تمليني وصيتها لابنتنا، وتسألني عن كل التفاصيل من اختيار المكان والتوقيت وهكذا. كانت الفكرة بالنسبة لها كما قالت لي بسيطة: هذه البلدة التي خرجت منها هي نموذج مصغر لكل عهر وانحلال حياة الكفر، من دعارةٍ ومخدرات وإلحاد وجشع ونهم وإيذاء وكراهية للإسلام والمسلمين. لن يشك فيها أحد أبدًا وهي متواجدة هناك. وجودها ليلة عيد الميلاد في قداسهم سيعني تواجد عدد كبير من الناس في مكان واحد، كما أن إتمام المهمة داخل دار عبادتهم يحمل رسالة قوية. «سيستفيق العالم من غفوته حين يرون أن واحدة منهم هي التي استُشهدت وسطهم، وسنُسكت بذلك الألسنة التي تقول إن هذه العمليات يقوم بها الحاقدون من الشرق فحسب. سيفهم جميعهم أن رسالة دولة الإسلام رسالة كونية بحق تطلب الإذعان من الكل دون تفرقة». كررت الأمر على مسامعي أكثر من مرة، وحين قمت بإبلاغهم بخطتها جاءت الموافقة أخيرًا بعد شهور طويلة.

ماري؟ ماري قالت هذا؟ إلى هذا الحد آذيناكِ؟

- وضعت ماري مولودتها وظلت عند رأيها؟

- بدأنا الاستعدادات للعملية قبلها بشهور. مَن سيصنع القنبلة في بلدها

وكيف سيتم تسليمها لها. شدة التفجير المطلوبة وغيرها من التفاصيل.

- احكِ لي عن ليلتكما الأخيرة معًا قبل سفرها. أعتذر عن السؤال الشخصي مسبقًا ولكن كما أخبرتك. البعد الشخصي أهم شيء.

بدا عليه الضجر، ولكنه لا يزال يفضل الجلوس معي عن العودة إلى زنزانته. إلا أن عينيه، بذكائهما الثاقب، قد بدأتا تتفحصاني بشكل مختلف.

- لم يكن من شيءٍ غير اعتيادي. استيقظت هي في الفجر وصلت. كانت قبلها قد أقامت الليل وحدها. بعدها ظلت تقرأ في المصحف حتى الشروق. قامت بتنظيف المنزل بالكامل. بعدها أعدت الفطور وأيقظت رقية. أنهيت اليوم في الجامعة وعدت مبكرًا حتى أقضي بعض الوقت معها. كانت رقية عند جارتنا. تحدثنا لبضع ساعات ثم..

- تحدثتما؟ فقط؟

صمت ونظر لي لبرهة. تجاهل سؤالي دونما أي ملمح من الغضب على وجهه.

- ثم زارتنا بعض العوائل الصديقة من المجتمع الإسلامي وسلموا عليها. بالطبع لم يكن أحد منهم على علم بالعملية، ولكنهم أتوا لتوديعها قبل سفرةٍ طويلةٍ عند أهلها. نمنا مبكرًا. هكذا كان اليوم.

كيف كانت مواقعة الوداع بينكما؟ فِيمَ كانت تفكر ماري؟ هل كانت تفكر بي؟ هل كانت تفكر بي في كل مرةٍ تنام معك؟ هل كانت تفكر بابنتها التي ستتركها دون رجعة؟ كيف نامت مع زوجها وهي تعرف أنها ستقتل نفسها في اليوم التالي؟ هل أجبرها هو؟ هل بكت؟ هل بكيا؟ كانت ذاهبة لتقتص من ضحايا عدوان الكفار؟ مستحيل. ماري أذكى بكثير من أن تقتنع بهذا الكلام. إنه لم يعرفها. تمامًا كما لم أعرفها إلا خلال الأسابيع الماضية. ماري لم تكن تريد أن تقتل الكفار أيها الساذج. لقد أرادت أن تنتقم.

- ألم تشعر بأي فضول أن تعرف عن حياتها كيف كانت قبل زواجكما؟

مسح تحت أنفه بعصبية.

- أخي الكريم، ما يشغل الناس بما كان بيني وبين امرأتي؟ ربما أنت لا تعرف الكثير عن الحياة هنا، ولكن بقدرِ ما الكل يستوي، كل مَن تدخل إلى الإسلام تكون لديها حكاية أو أخرى مع عالم الكفر، ولأن الفطرة التي خلقها الله بها تغلبها، فإنها تختار الرسالة الحق. لا يوجد فارق بين واحدةٍ وأخرى، الله هو مَن كتب عقدنا في السماء منذ الأزل.

- العالم ينظر نحوكما الآن بكثير من الكراهية. أنتما في نظر ضحايا المذبحة مجرد قاتلَين. أيًا كانت الأيديولوجية التي تتبعانها، فإن العالم لا يشتري هذا الآن.

- ماذا تريد أن تعرف إذن؟

نظرت في ساعتي، تبقت نصف ساعة.

- لقد كانت زوجتك إذن حطام حضارتها، وحين عرفتها كانت قد تبنت هوية جديدة، ولنسمها خديجة كما تريد، وأصبحت خديجة زوجتك، وأم لابنتك، ولكن ماذا عن تلك السنوات الثلاثين التي عاشتها قبلك؟ كيف كانت حياتكما معًا؟ هل عرفت حقًا مَن هي؟

- عرفت عنها ما يكفيني.

ولكنك لم تعرف أنها كانت الأخت المنسية وسط ستة إخوة. لم تعرف أنها كانت محط تنمُّر أصدقائها في المدرسة وأنهم انتهكوها جسديًا ونفسيًا. لم تعرف أنها حاولت الانتحار عشرات المرات. لم تعرف أنها كانت تذوب خجلًا إذا ما أطراها شخص بكلمة أو اثنتين وأنها كانت تخاف أن تقرأ بصوتٍ عالٍ حتى لا يضحك عليها أحد. لم تعرف أنها أحبتني وأني خيبت ظنها. أنت لم تعرف عنها شيئًا. أنت لم تعاملها كإنسانة، أنت كنت مثلي عاملتها كشيء. عاملتها كقنبلةٍ موقوتةٍ تنفجر

وقتما أردت. وأنا عاملتها كإسقاط لكل نواقصي.

ربع ساعة. كان الوقت قد حان لأتخلى عن حذري.

- ولكنك لم تعرف تاريخها في بلدتها. هذا التاريخ الذي حسبما عرفت من الأطباء النفسيين أنه قد يكون مسببًا لرغبتها في الانتحار. خاصة أنها ليست المرة الأولى التي تحاول فيها.

نظر لي بتساؤل مندهش. لأول مرةٍ يبدو وكأنه سيفقد سيطرته على نفسه.

- ماذا تقصد؟ أي انتحار؟

ابتسمت وعدت إلى الكرسي مرتاحًا.

- أقصد أن ماري فريدريك كانت شخصية ذات ميل للتطرف، والرغبة في جذب الانتباه ونيل القبول ممَّن حولها، وكانت تعاني مزيجًا من العقد النفسية نتيجة حياتها الصعبة التي أشك أنك تعرف عنها شيئًا، ولذلك فإن محاولتها للانتحار كان أمرًا متكررًا منذ سنوات مراهقتها الأولى، ويبدو أنها لم تتخلّ عن هذه الرغبة أبدًا.

أنتِ لم تحاولي الانتحار أبدًا ونحن سويًّا يا ماري. ولا مرة.

- كيف عرفت كل هذا؟

- لقد عدت لتوي من بلدتها. قضيت هناك شهرًا أتقصَّى عمَّن كانت ماري.

- خديجة يا أخي. اسمها خديجة.

- طمسك لهويتها بادعاءٍ ساذجٍ لن يغير من حقيقة الأمر شيئًا.

إنك لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتأكد أنها فعلت هذا الفعل فقط لأجل الرسالة والقضية. النظرية التي تقول إنها انتحرت لها ما يؤيدها بقوة.

- ومَن يعلم؟ أنت؟ أنا الذي عاشرتها وعرفتها.

- عاشرتها نعم. عرفتها مستحيل. لو كنت عرفتها لكنت عرفت مَن هي عن حق. ربما لا أحد منَّا يعرف إنسانًا بحق. ربما يحدث ذلك بعدما يرحل.. بعد أن يقول الزمن كلمته. ولكن ماري لم تكن خديجة التي تزوجتها. أنا موقن من ذلك.

يصمت دون رد.

- كيف كانت ماري كزوجة؟ هل كانت مطيعة؟ هل كنت ترتاح في التعامل معها؟

يعتمل في رأسه شيء ما. العرق النافر في رقبته يخبرني بذلك.

- كانت خير زوجة وخير أم. لم تكن تُكثر من الحديث أبدًا. لم تكن تجادل، لم تتأخر يومًا عن واجباتها، عرفت جيدًا دور الزوجة المسلمة الحقة، كانت تدعمني في كل شيءٍ أقوم به، وكانت علاقتنا أساسها المودة والرحمة والسكينة الهادئة. لم تأتِ بما أشكو منه أبدًا، ولم تعارضني يومًا، وكانت تعرف مكانها ومكانتها خلف رجلها وفي خدمته. على الناحية الأخرى لم أقصر نحوها أبدًا وعاملتها كما أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم.

هززت رأسي له مبتسمًا وأنا أتيقن مع كل كلمة من أني أجد إجاباتي التي كنت أبحث عنها منذ اليوم الأول.

هذه ليست ماري. مستحيل. مَن يتحدث عنها ليست هي. إنه لم يحبها، وهي عرفت ذلك منذ أول وهلة، ولكنها لم تكن تهتم. لقد كانت محاكاة فقط. مجرد محاكاة. ماري مطيعة؟ مستحيل. هذه أضحوكة. لم يكن هذا ما كانت تبحث عنه.

- لقد خدعتك ماري وأفهمتك أنها تريد أن تتزوجك وتصبح جزءًا من الفكر الذي تعتنقه. ربما حتى في قرارة نفسها كانت، بميلها الأزلي للتطرف، تظن أن هذا ما تريده هي الأخرى، ولكنها في لحظة ما عرفت

ما يشغلها بحق. نعم وجدت عندك الشيء الذي لم تجده عند أي أحد من قبل: عدم السؤال عن ماضيها. نعم وجدت وسط جماعتك ما لم تجده أبدًا وسط جماعتها: القبول والرعاية. ولكن أجزم لك أنه لم يمر يوم دون أن تفكر في جروحها النازفة. لقد كان ما أحدثناه بها أعمق من أن تنساه. لقد أرادت أن تنتقم. أرادت أن تموت، ولكنها أرادت أيضًا أن تنتقم.

- أحدثناه؟ مَن أنت؟

- كنت أظنك أذكى من هذا. الجبناء عادة أذكياء. هكذا تواصلون البقاء.

نظر إلى الحارسين وتحدث معهما بالإيطالية بغضب. نظرت في ساعتي.

- لم أنتهِ بعد. لا تزال لي عشر دقائق. قلت لهما بإنجليزية حاسمة.

- هل فكرت لماذا اقترحت ماري أن تقوم هي بالعملية؟ ألم يكن ممكنًا أن تقنعك باصطحابها والقيام بالعملية سويًا؟ كان سهلًا أن تقدمك لأهلها وتدخلك الكنيسة.

- لقد انتهى الحوار فيما بيننا. لا أدري ماذا تريد ولِمَ أتيت إلى هنا ولكن تذكر أن مجيئك إلى هنا لن يمر مرور الكرام..

- افعل ما شئت. ولكن كن رجلًا ولو لمرةٍ واحدةٍ قبل أن تموت. أنت لا تعرف كم ليلة قضيتها منتظرًا تلك اللحظة التي أقابلك فيها. أجب عن سؤالي.

- كانوا ليشكوا بالأمر، هم يعرفون أصولي ولن أخضع لطقوسهم ولو من باب المجاملة. لماذا أتيت؟

- إنك لم تعرض الفكرة أصلًا. لأنك جبان. لو كنت رجلًا عن حق. لو كنت قد أحببتها عن حق لكنت قد قمت بذلك نيابة عنها. ولكنهم هناك

يعلمونكم عدم الرجولة.

- أيها الحقير النجس، هل هذا ما جئت لتقوله. مَن أنت لتحكم إن كانت قد استشهدت أم انتحرت. مَن أنت لتدخل إلى نيتها.

وقفت بينما كان يموج بين أغلاله:

- أنا مَن كان غافلًا مثلك. أنا مَن ظننت أنني رجل وأنني أعرف كل شيءٍ وأنني قد قبضت روحها بين يدي، ولكني الآن أستفيق. ربما بعد فوات الأوان، ولكني جئت لأخبرك بشيءٍ واحدٍ فقط: في تلك اللحظة التي يقتادونك فيها إلى الإعدام، وأنت تسير بخطوات مثقلة نحو نهايتك، سوف تظل معذبًا بسؤالٍ واحدٍ فقط: هل كان الأمر يستحق؟ هل كانت المرأة التي ظننت أنني أعرفها هي مَن أعرف حقًّا؟ هل قامت ماري بتفجير نفسها من أجل دولة الحق أم انتحرت انتقامًا من كل مَن آذوها؟ لقد تيتمت ابنتكما، وسوف تتربى على أيدي هؤلاء الكفار، وتكبر لتصبح كل شيءٍ تكرهه أنت وظننت أنك تحاربه. هذه الفتاة التي من صلبك، كم من رجل سيواقعها وهي مخمورة ما إن تتم سن التكليف؟

ضحك فجأة بصوتٍ عالٍ:

- أنت مخبول. نيتها لا تهم. الثمن لا يهم. لا يهم أي شيء. ما يهم هو أنها قد أخذت معها خمسين من الكفار. أنها أذاقتهم مرارة الألم والموت. أنها جعلتنا محط أنظار العالم. كل شيءٍ حدث بيني وبينها كان مقدرًا حتى تتم الرسالة، حتى لو لم تكن تلك نيتها، هذا لا يغير من الأمر شيئًا. كلنا جنود في حرب طويلة لن تنتهي.

حملت حقيبتي وأشيائي ونظرت لرجلَي الأمن. توجه أحدهما نحو الباب ليفتحه وتحركت أنا خلفه. كان الآخر قد توجه إلى قابل وبدأ في فك رباطه ليساعده على القيام.

قبل أن أخرج استدرت نحوه مرة أخيرة. كنت أحدث نفسي أكثر مما أحدثه: «أخبرني هل كنت تعقد رباط حذائها؟ هل كانت تضمك بعد أن

تنتهيا وتبكي بين ذراعيك؟ هل كنت تقضي الليل ساهرًا ترمقها؟ هل كنت تجمع مناديلها الورقية؟ تشم ملابسها حين تغيب؟ لا لم تكن. أعرف أنها لم تمنحك أبدًا تلك النظرة التي نظرتها لي وأنا أحدثها عن برنيني، ولم تبكِ لفراقك بكاءها يوم أن غادرتني. إنك حتى لم تجرحها كما جرحتها أنا بحبها لي. الآن أفهم. إني أتحمل اللوم سعيدًا وصاغرًا، لأني كنت نافذًا بحق. أما أنت.. أنت لا شيء. مجرد محرك حزين لسلسة من الأحداث البائسة».

خطوت إلى الخارج بينما كان يزوم في الداخل، تلاشى سبابه مع انغلاق الباب العازل. وجدت ستيفانو في انتظاري. بدا عليه التأثر الشديد.

كان يسمع حوارنا بالكامل من وراء المرآة الزجاجية، وبجواره كان يجلس مترجم فوري بملامح عربية.

ماري،

أكتب إليكِ الآن في تلك الليلة التي يخاصمني فيها النوم.

لا أعلم من أين أبدأ. أكتب إليكِ وأنا أنتظر عودتكِ من السفر بينما أحضر حقائب سفري. يا للمفارقة!

أعتقد أنه من الأفضل أن أكتب كل ما يدور في رأسي، بدلًا من أن أداريه أو أذكره وسط مناقشاتنا الحامية، مما يؤدي إلى مزيد من المشاكل ولا يحل شيئًا أبدًا. أريد أن أكتب لكِ دون تحضير أو ترتيب، فقط أترك كل أفكاري تخرج على الشاشة علّها تريحني بعض الشيء. علّنا نفهم ماذا يحدث!

منذ أن سافرتِ لم أحصل على النوم الكافي. لا آكل، لا أركز على العمل كما يجب لي، وببساطة لا أستطيع أن أتمتع بأي شيء. لا أكتب، لا أقرأ، وأتجنب الحديث مع أي أحد، وفي ذات الوقت أرتعد من مجرد فكرة البقاء في البيت وحيدًا.

أفتقدك.

ربما من الأفضل أن أبدأ من حيث نقف الآن. بعد أكثر من ثلاث سنوات من الزواج.

أعلم أنكِ غير سعيدة. بل لا أبالغ إن قلت إنكِ تعيسة أيضًا. قبل سفركِ ببضعة أيام عدت من الجامعة لأجد أنفكِ محمرًا ووجهكِ بلا نقطة دم واحدة. حاولت أن أفهم ماذا ألمَّ بكِ؟ لماذا كنتِ تبكين؟ ولكنكِ لم تُعطني جوابًا شافيًا. أنتِ تشكين من عدم اهتمامي بكِ. تقولين إنكِ تحتاجين إلى اهتمامي وإني لا أحبكِ كما كنت أحبكِ في البداية. ولكن أنتِ لا تشبعين. أنا حبي لكِ لم يتغير. أنتِ المهووسة بالاهتمام. لقد تحول إلى مرض. لا تمر ساعة في اليوم لا تطالبينني فيها بأن أجلس وأتحدث معك بالساعات. إذا جلست لأكتب قاومتِ الكتابة بإزعاجي أو استدراجي إلى الفِراش، ولو لم يفلح ذلك افتعلتِ مشكلة كي تأخذ تفكيري. صرتِ تغارين من كتبي، أصدقائي، المقهى، العمل، المحاضرات، الطلبة، القراء. تغارين من فيسبوك وتويتر، تغارين من أهلي وإخوتي رغم أنهم لا يظهرون كثيرًا. تريدينني لكِ وحدك، تملكًا وهوسًا. أعلم أني أمنحكِ ما لم يمنحه أحد لكِ من قبل، وأنه لزام عليَّ أن أعوضكِ عن كل ما فات، وأن أكون مثاليًا، كاملًا. أن أكون الطبيب الذي يُضمد جراحكِ وكسوركِ، أن أترك العالم من أجلكِ. أن أظل في حالةٍ مستديمةٍ من إثبات الحب طوال الوقت، ولكني لا أقدر على أن أفعل هذا طوال الوقت. هذا كثير. أنتِ متطلبة للاهتمام بشكلٍ يفوق قدرتي بمراحل يا ماري. وكأن حياتي يجب أن تتمحور حولكِ فقط، وكأن ليس لي الحق في أن أفعل شيئًا غير ذي صلةٍ بك. لقد طلبت منكِ أكثر من مرةٍ أن نذهب لطبيب نفسي. نتحدث معه. ربما ينقذنا. أنتِ بالذات تحتاجين إلى ذلك، ولكنكِ كالعادة تستخفين بكل ما أقوله.

هناك حاجز ما. غير مرئي. غير مفهوم. موجود فيما بيننا. أحاول قدر استطاعتي أن أفهم ماذا حدث. عامنا الأول كان سعيدًا. كان رائعًا.

ولكنَّ شيئًا ما تلاشى فيما بيننا رويدًا رويدًا.

لقد توقفتِ عن إعداد الإفطار لي. أصبحتِ لا تستيقظين معي وأصبحت أفطر وحدي كل يوم حتى صار أمرًا اعتياديًا. تنامين ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة في اليوم. تهربين إلى مجموعة الزوجات الأجنبيات التي تعرفتِ إليهن مؤخرًا. أعلم أنكِ وجدتِ فيهن الكثير مما تفتقدينه هنا، وأعلم أن اهتمامهن بالدين والدروس وحفظ القرآن أمر جيد ويُسعدك، ولكن هذه ليست هي الحياة. حتى الآن ترفضين تعلم العربية. وترفضين أن تتعرفي إلى أصدقاء جدد هنا. وترفضين صديقاتي وقريباتي ومعارفي. أنتِ في حالة رفض وشكوى طوال الوقت. في ذات الوقت طلبت منكِ أكثر من مرةٍ أن ننتقل إلى الحياة في بلدكِ ولكنكِ ترفضين. أنا لا أعلم كيف أريحكِ. كيف أجعلكِ سعيدة. أنتِ دائمًا قلقة. دائمًا غير مستقرة وغير مرتاحة. هناك دائمًا مشكلة ما، موضوع ما، لا بد وأن يكون موجودًا. لا أذكر أني شعرت بالسلام منذ وقتٍ طويل. أتعلمين، لقد قمت بحساب الفترات التي سافرتِ فيها لزيارة أهلكِ وأخذ «إجازة» من هنا فوجدتها حوالي ثلث المدة التي مرَّت على زواجنا حتى الآن. كيف لا ترين أن هذا أمر يدعو للتساؤل؟ لماذا تكرهين الاستقرار؟ لماذا لا يهدأ الشيطان الذي بداخلكِ ولا يريد أن يستكين؟

لقد تعبت من تمردكِ الدائم. من لسانكِ الطويل وكلماتك النابية. في عراكنا تصيحين دائمًا بعلو صوتكِ. تُصيبكِ انفجارات غضب مفاجئة. تكسرين الأطباق كما فعلتِ المرة الفائتة. هذه النوبات حين تحدث تخيفني. لا أخاف منكِ بالطبع، ولكن أخاف من المستقبل. لا أريد أن تصبح حياتي بدونكِ، ولكن في نفس الوقت إن استمرت الأمور بهذا الشكل، كيف سنكمل؟

هل هو الملل؟ هل هو ما يقتلك؟ لعبة زواجنا باتت مضجرة بالنسبة لك؟ أم أنها لعبة الإسلام؟ هل الاهتمام الذي حصلتِ عليه ممَّن حولكِ حين أتيتِ بهذا الفعل قد خبا؟ هل اهتمام الزواج والزفاف و«ماري

المجنونة التي تحجبت وتغيرت تمامًا» قد انحسر فاكتشفتِ أن هذا ليس ما أردتِ؟

دائمًا ما تكررين على مسامعي: «أريدك أن تحارب من أجلي»، أحارب مَن؟ أنتِ وأنا نعيش تحت سقف واحد منذ أربع سنوات. لماذا أحارب؟ أنتِ بجانبي. لقد انتهت حربنا، حاربنا الماضي وحاربنا المحيط الذي يفصل بلدينا وحاربنا اختلاف الآلهة وحاربنا أصولنا وأعراقنا، كل ذلك حاربناه كي نكون في منزلٍ واحد، بيتٍ واحد. نكون أسرة. كم من مرةٍ رجوتكِ أن نأتي بطفل وأنتِ ترفضين؟ لقد تعبت من خوض هذا الحوار معكِ. ظننت الزواج سيكون استقرارًا، سكينةً. دافئًا. أخبروني أنه كذلك. منذ اليوم الأول أتحمل مسئولياتك. أتحمل وجودك وأدفع ثمنًا لم أرد أن أدفعه. لأني أحبك. بحق أحبك. لا زلت متمسكًا بكِ، بنا. أريد أن ننجح. أريد أن نتمكن حقًا من أن نحقق السعادة التي يرجوها كلانا، ولا زلت أؤمن بأن ذلك ممكن. كفانا حربًا. تعبت. لماذا لا تسكنين؟ هل الحياة الطبيعية، الهادئة والمستقرة تضجرك؟ أم أنه أنا؟ ظننت أنكِ قد اكتفيتِ من حياة المغامرة. ألم تتأذي بما يكفي؟

لا أعلم ما بكِ. حقًا. إنكِ لا تظهرين أو تقولين شيئًا، هذه هي طبيعتك. البرود والبعد والاختفاء، وأصبح الاستثناء هو الدفء. الاستثناء القليل والنادر. لماذا أنتِ قادرة على التحكم بمشاعركِ بهذه الطريقة إذا كنتِ كما تدعين تشعرين بها بهذه القوة؟ أم إنكِ لا تستطيعين إظهارها رغمًا عنك؟

إني أحاول البحث عن إجابة لكل هذه الأسئلة. عن تفسير لكل هذه التصرفات. ولا أجد. حين تحدث لك هذه النوبات من التقوقع داخل نفسك. حين تغطين رأسكِ في السرير وتنامين بالأيام. حين لا تردين عليَّ وترفضين إخباري بما بكِ، وتكتفين بالبكاء والصمت والانعزال داخل فقاعتكِ الخاصة، تتركينني عرضة لهلاوسي.

إن فوزي بالجائزة جعلني محط أنظار الكثيرين. وتمر السنوات وحتى

الآن لم أنهِ روايتي الجديدة التي ينتظرها العالم. منذ إعلاني فائزًا بها بات الكل ينتظر ما سأقدمه. الآن بدأوا يقولون إنني أصبت بلعنة الجوائز التي تدفع المبدعين الكبار إلى النضوب مبكرًا. ولكنهم لا يعلمون أنني لا أجد المناخ الملائم ولا البال الرائق للكتابة. إنكِ لا تساعدينني على الإبداع بأي صورةٍ من الصور. لقد أصبحتِ عبئًا عليّ بهذه التصرفات المجنونة. الآن فقط أدرك أنني أدور في فلككِ منذ وقت بعيد دون أن أشعر. ماري دائمًا متضايقة يجب أن أروح عنها. ماري مريضة يجب أن أراعيها. ماري تشعر بالملل يجب أن أفعل شيئًا مثيرًا. ماري ماري ماري..

لماذا أنتِ مدللة إلى هذا الحد؟ هل هذا ما علموكِ إياه؟ أنكِ تحصلين على ما تريدين، حسنًا الأمور هنا لا تجري بهذه البساطة. نحن هنا لا نسقي كل شيء بالملعقة كما يحدث عندكم. هنا النجاح استثناء. والفرصة استثناء. والراحة مصادفة. هنا لا شيء سهل. الاستيقاظ والنزول إلى الشارع معاناة يومية. لن تجدي شيئًا سهلًا هنا. لقد أخبرتكِ بهذا الأمر آلاف المرات قبل زواجنا وحتى الشهر الماضي، ولكنكِ تصرين أن تُسيري الأمور بطريقتكِ أنتِ وحدك، بدون أي استعداد للتنازل أو المرونة أو التفهم. إما طريقتي وإما فلا. لقد حاولنا أن نعثر لكِ على وظيفة. أكثر من مرة. وكلما نجحنا في ذلك لم تكملي بوظيفتك الجديدة أكثر من بضعة أشهر ثم تتركينها. إما بدعوى أن المناخ لا يلائمك، أو أن أحدًا يضايقك، أو أنهم لا يتحدثون لغتكِ ولا الإنجليزية جيدًا، أو أن أفعال الناس وطريقتهم هنا تجعلكِ تكرهين كل شيء هنا. هل فعلًا الأمر بهذه السخافة؟ أم أن الوقت قد حان كي نعيد النظر في مبرراتك تلك؟

لا أطيق قناعتكِ المقيتة بأن كل الناس لعبة في حياتكِ تتلاعبين بهم متى شئتِ ثم ترمين بهم حين تضجرين؟ أبواكِ وإخوتكِ يطيعونكِ في كل شيء. كارين تفعل لكِ كل ما تريدينه وقتما تطلبينه. أصدقائي وصديقاتي يحاولون إكرامًا لي، وأنا دائمًا أراعي احتياجاتكِ هنا، ورغم

هذا لا ترضين أبدًا. دائمًا لديكِ ما تشكين منه.

هل أشك في أنكِ تحبينني؟ لا. هل أشك في أنكِ تريدين أن ينجح زواجنا؟ أيضًا لا. هل تحاولين التغير لإنسانة أفضل تليق بهذه العلاقة الجديدة في حياتها؟ حسنًا، أنت تحاولين. ولكن هل تحاولين بالطريقة الصحيحة؟ بشكلٍ صادق؟ هل تواجهين كل شيءٍ كما يجب؟

أظن أن الوقت قد حان لأن نجد بعض الإجابات.

ولا أظن أن الإجابة صعبة. إن كل هذا يحدث لأنكِ لم تواجهي الماضي كما يجب. لأنكِ أزحتيه كالتراب تحت السجاد دون أن تتطهري منه عن حق.

أنا موقن أن رحلتكِ مع الإسلام كانت جزءًا من هذا التطهر، ولكن موقفكِ تجاه العلاقات والجنس لم يتغير أبدًا. تقولين إنكِ لا تتذكرين أي شيءٍ من هذه الأيام، وإنكِ لا ترتبطين بها بأي شكل، وإنها لا تؤثر عليكِ أبدًا، ولكن أنا أعلم، فقط أعلم، حين أنظر إليكِ وأنتِ شاردة أمام التلفزيون أو حين نتحدث في السرير أن شيئًا من هذا لم يغادرك. أنا لا أعلم مَن أنت. ولا فيما تفكرين. هناك شيء ما في رأسك. شيء لن تخبريني إياه أبدًا. شيء أعلمه جيدًا ولكني لا أستطيع أن أقبض عليه.

هل أطلعكِ على سر؟ هناك عادة واظبت عليها طوال العام الأول من زواجنا. كل ليلةٍ حين تنامين، أدخل على المواقع الإباحية المجانية وأبحث عن فيديوهات جنسية منزلية. كان ذلك لأنكِ أخبرتني بأنكِ كنتِ تسكرين لدرجة أنكِ تستيقظين دون أن تعلمي أين أنت. ولذلك لم أثق في حكمكِ حين سألتكِ إن كنت سأفاجأ بفيديو جنسي لكِ على الإنترنت يومًا ما قبل زواجنا. لقد اعتدت في تلك الفترة أنكِ تكذبين كثيرًا حول ماضيكِ، أو حول أشياء حدثت بينكِ وبين بعض أقربائك. أو أناس نقابلهم صدفة في الشارع. دائمًا ما كنتِ تكذبين، وحين أشعر بذلك وأضغط عليكِ كانت إجاباتكِ تتغير. وفي الحقيقة أنها تتغير عدة مرات حتى تتوه الحقيقة. وكنتِ تبررين كل ذلك بخوفكِ مني، أو لأنكِ

لا تريدين التذكر، أو أو أو.. وكنت أصدق وأعطيكِ الفرص المرة تلو الأخرى لأني أعلم أنكِ تحبينني عن حق، ولكن لا بد أن الماضي هو ما جعلكِ هكذا فلا يجب أن ألومكِ أو أجبركِ على دفع الثمن. لقد وعدتكِ أن أبقى بجانبكِ مهما حدث.

إني أستطرد.. المهم أنني كان يجب أن أبحث بنفسي. أدخل كل يوم على موقع من المواقع وأكتب اسمكِ أو اسم بلدكِ أو تنويعات من هذا القبيل. عشرات التنويعات. أنتظر النتيجة حتى تظهر وقلبي يكاد يتوقف. أشاهدهم جميعًا وأنا لا أقوى على التنفس، متوقعًا بين كل مشهد والآخر أن أجد وجهكِ مشوشًا في حركة كاميرا عنيفة. حين وجدت أحدهم يواقع فتاة تشبهكِ قمت بإعادته عشرات المرات لأني لا أستطيع التمييز إن كانت أنتِ أم لا. إن كانت لهجة بلدتكم أم لا. وحتى حين لم أجد سمة مميزة لكِ بدأت أبحث عن فيديوهات صورت في الوجهات السياحية التي سافرتِ إليها. في الملاهي الليلية وعلى الشواطئ والمراكب.

ماذا لو في إحدى سهراتك الماجنة أخرج أحدهم هاتفه ليصور هذه الفتاة العارية وهي ترقص غارقة في تيه الخمور الرخيصة؟ هل تتخيلين إلى أي مدى ذهبت كي أعرف مَن أنتِ؟ لقد توقفت عن البحث لا لشيءٍ سوى لأني لم أعد أستطيع أن أمضي المزيد من الليالي وسماعات أذني على رأسي أقضي ساعات وساعات في البحث. كم ليلة المفروض أن أظل مستيقظًا بعد أن تنامي وأنا أبحث؟ كم ليلة من المفروض أن أقضي كتلك الليلة التي قضيتها في منزل والديك، أو على الأريكة، أو في روما، أو كهذه الليلة الآن؟

هل تذكرين في بداية علاقتنا حين شبهت يديكِ بيدي ماري العذراء في لوحة دير جويس؟ ضحكتِ، وكان لكِ أن تضحكي، فأنا كنت من السذاجة لأن أكون مسحورًا بيديكِ بينما بالنسبة لكِ كانت معايير الجمال والافتتان الحقيقية بجمالكِ هي الإطراء على مفاتنكِ وقدراتكِ في السرير أو حمامات الملاهي أو السينما أو السيارات. في كل مرة

maktabah.blogspot.com

أشعر فيها بالقرب الجسدي منكِ أتذكر تلك الصور والعشرات غيرها التي حكيتيها لي، ويغلبني التقزز لدرجة ليس فقط أن أفقد انتصابي ولكن أشعر برغبة حقيقية في التقيؤ.

لقد تحدثنا عن أيامكِ الجامحة كثيرًا، وأخبرتني كم كنتِ غبية. وأن هذا هو السبب وراء ما حدث. ولكني مرةً أخرى أجد أن هذا أمر صعب التصديق. هل حقًا كانت هذه معاييرك؟ أن يكون الولد نظيفًا ومهذبًا ولا يتحدث عنكِ لبقية أبناء الحي؟ أعتقد أن عاهرة ستضع هذه المتطلبات في زبونها. تقولين إن الأمر بدأ من عقلكِ كفتاة تريد الحصول على القبول ممَّن حولها، وإنكِ تريدين أن تسمعي منهم أنك جميلة وذائعة الصيت بين شلل الأصدقاء، وأنتِ صغيرة وهو ما كان يجب أن تدفعي ثمنه في مجاملات جنسية؛ لأنكِ كنتِ تريدين الاهتمام وأن ينظر لكِ الكل ويتحدثون عنكِ بوصفكِ الأجمل والأكثر جموحًا بين صديقاتك. ماري التي لا تقول لا لأي شيء. ولكنهم في الحقيقة عاملوكِ كعاهرة، وأنتِ قبلتِ ذلك كعاهرة أيضًا.

لقد جعلتيني أكره الجنس. لا أشعر أبدًا بأني جزء من العلاقة. حين تغمضين عينيكِ وتذهبين بعيدًا في تلك اللحظة التي ألج فيها بداخلك، أشعر وكأننا نحاكي شعورًا تعرفينه جيدًا، وتستخدمينه لتصلي إلى نشوتكِ الأخيرة. كلما التصق جسدانا شعرت بأنني أبعد عنكِ أميالًا وأميالًا. بأنني مجرد أداة تخدم هدفًا بداخلك. بداخل جسدكِ وعقلكِ واحتياجك، بدلًا من أن أكون طرفًا يشاركِ لحظة مقدسة من لحظات الوجود.

أتعلمين؟! في بعض الأحيان أسرح في التفكير وأتخيل ماذا لو كنت قد تزوجت فتاة عربية؟ بالأحرى عذراء. بالطبع كانت ستكون لدينا نفس الخلفية الثقافية المشتركة. ولكن شيء آخر يأتي إلى ذهني. العذرية ليست بين فخذيك. العذرية مفهوم، حياة، فهم للعالم، قدرة على حفظ النفس وحمايتها بأقل قدر من الندوب، وعيش حياة محترمة، نظيفة، ثابتة، مستقرة، واضحة، بدون أفكار مسبقة، بدون مقارنات، بدون

maktabah.blogspot.com

نظرة متدنية للذات، وبدون عقد مدفونة بسبب تجارب مهينة. والأهم، وجود حس استكشاف عذري يمكن لكلينا مشاركته على نفس القدر.
أحد أهم الجوانب في أي علاقة هي الاحترام. بالنسبة لي على الأقل. أن أرى المرأة التي أحب كأجمل وأكمل ما تكون عليه النساء. أن أضعها في مرتبةٍ أعلى من كل مَن حولي، وأن تفعل ذات الشيء بالنسبة لي. لا أعلم لماذا أجد الأمر صعبًا أن أراكِ هكذا. لقد احتقرتِ نفسك، رخّصتِ نفسك، تركتِ نفسكِ كأداة لمتعة الآخرين حين كنتِ صغيرة مرة تلو المرة تلو المرة. ولا أنفك أفكر، بحلول الوقت الذي عرفتكِ فيه، كيف أصبحت؟

هل أبدو غير حساس أو غير مراعٍ؟ أعتذر. لقد حاولت فعل ما هو صحيح لوقت طويل، وكانت النتيجة أني أبدأ حوارًا معكِ وأنتهي بمحاورة نفسي. دائمًا عليَّ أن أسأل الأسئلة وأجد الإجابات وحدي. حتى إذا كانت لديك، فإنكِ لن تمنحيني إياها، وتردين دائمًا: «ما الهدف؟ سوف تظل تفكر وتعيد التفكير أيًا كان». حسنًا، نعم أنا أفكر، ربما إذا منحتني إجابات صادقة كان ذلك سيُحدث فرقًا، وأقصد إجابات صادقة عن حق، إجابات قد لا تريدين حتى أن تقوليها لنفسك، وأنتِ مَن تحتاجين لهذه الإجابات قبل أن تكون لي.. ولنا.

تقولين إنكِ لم يتم توجيهكِ أو تربيتكِ في إطار دين أو منظومة أخلاقية معينة، وإن كل الناس في ثقافتكِ تفعل هذا، وإنكِ كنتِ تعيشين في الجاهلية، ولكن يبدو أن ما افتقدتِهِ بحق لم يكن الدين أو التوجيه، كان احترام الذات. هذه «الفطرة» كما يسمونها في دروسك، أن كل الناس تولد بقدرٍ من الكرامة مسطورة بداخل كل منّا، ولكنها كانت مفقودة عندك. لم تهتمي بها ولو بقدرٍ ضئيل. كانت معدومة بداخلك. هل تظنينني ساذجًا لأقتنع بأن كل النساء الأوربيات يفعلن ما فعلتِهِ أنتِ؟ بالطبع لا. أبسط مثال على ذلك كارين، استطاعت أن تعيش حياة طبيعية تمامًا دون أن تسقط في هذه الدوامات الغبية.

ويقودني ذلك للسؤال الذي يدور في ذهنكِ الآن وأنتِ تقرئين هذا

maktabah.blogspot.com

الكلام: لماذا أصر على نبش الماضي؟ لماذا لا نستطيع المضي قدمًا وقد أصبحت أنا إنسانة جديدة الآن؟ فقط اقبلني كما أنا. ولكن، هل أنتِ بالفعل إنسانة جديدة؟ هل بالفعل لم يظهر الماضي مرة أخرى أبدًا؟ مهما كان ما حدث لكِ فقد ترك علاماته غائرة بداخلك. هل قمتِ بالتوقف والتفكير وإعادة التفكير مرات ومرات والتطهر من كل ذلك؟

أنا لا أسعى للحكم عليكِ. أعلم أنكِ لا بد تضحكين الآن من قولي هذا. ولكني بالفعل أريد منكِ أن تشفي من كل هذا وتتطهري منه لتصبحي إنسانة جديدة كما تحلمين. الأمر لا يتم بنطق بضع جمل ولا بمحاولة محاكاة حياة جديدة. إنه يتم عن حق حين نغتسل من كل هذا فلا يعود يطبع ببقاياه علينا. هذه الندوب يجب أن تمحى من روحكِ تمامًا حتى نستطيع أن نحيا الحياة التي نتمناها.

ماري...

أنا لا أستطيع الحياة بدونك. أيامنا معًا كانت ولا تزال أجمل ما مررت به في حياتي. أنا لا أملك من أمري شيئًا بدونك. أحتاجك. أحبك. الهواء الذي تتنفسينه، أحب اقتسامه معك. لا أريد من الحياة شيئًا غير ذلك. أريد أن تكوني معي. في كل خطوة. لقد أخطأت. كثيرًا كثيرًا أخطأت. ولكني أريد أن أصلح كل شيء. لن أنسى ما حييت أنكِ سامحتيني بعد ما قلته ليلة زفاف أختك. أعلم أنكِ لمتِ أباكِ لأني كنت مخمورًا دون أن أدري، ولكنكِ بداخلكِ كنتِ تتألمين. وأنا لم أعد لذكر الأمر مرة أخرى، ولكني أعلم أنكِ لم تنسي. وأنا حاولت بكل استطاعتي أن أنسى. أتمنى أن أعود لأجدكِ كما كنتِ دائمًا. تحبينني. تتفهمين. تدركين أن المحيط هو ما يفصلنا ولكن حبكِ يغطي كل المحيطات، والأراضي، والجليد. ليس هناك في هذا العالم ما هو أسمى من الحب. وليس هناك ما هو أقسى من فقدانه. لا أريد أن أفقدك. لا أستطيع. ولكننا نتعذب. أنتِ تعيسة. وأنا الآخر لا أظن أني أستطيع أن أكون تعيسًا أكثر من هذا. فقط كوني كما تمنيت. كوني كما أردت. كوني ذلك الملاك الذي رأيته يومًا على شاطئ البحر، حورية ظهرت لي

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

فجأة فكانت تجسيدًا لكل الكمال في الحياة. كوني ماري العذراء التي اقتفيت أثرها طوال حياتي في كل اللوحات والتماثيل وانتظرت أن أركع عند ركبتيها بحثًا عن الخلاص. سنجده سويًا. أنا على يقين.

أظن أني تعبت من الكتابة. أعتذر إن كانت أفكاري تبدو مشتتة وربما غير مفهومة. حاولت أن أقول كل شيء بكل الوضوح والشفافية الممكنين. أنا آسف إذا ما آلمك هذا. لم أقصد ذلك أقسم لكِ. ليست لديَّ حلول. لقد تعبت من محاولة إيجاد أيٍّ منها. لا أظن أنني أستطيع أن أفعل أو أحاول أكثر من ذلك. الأمر برمته متروك بين يديك.

لن أتخلى عنكِ أبدًا. عنًا. مهما حدث. لآخر أيام عمرنا. وبعدها..

زوجك المحب

أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية

والمميزة والنادرة بصيغة PDF

تابعونا على الموقع الرسمي

www.maktabbah.blogspot.com

أو على قناة التيليجرام

maktabbah.blogspot.com

t.me/alanbyawardmsr

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

القسم الرابع

أورورا

«ظاهرة كهربية طبيعية تتميز بظهور شرائط ضوئية ملونة في السماء، خاصة قرب القطب المغناطيسي الشمالي أو الجنوبي. تحدث هذه الظاهرة بسبب تفاعل جزيئات مشحونة من الشمس مع ذرات الطبقة العلوية من الغلاف الجوي. تسمى أيضًا بأضواء الشمال «اللاتينية: أورورا بروياليس»، أو أضواء الجنوب «أرورا أوستراليس» وفقًا لموقعها الجغرافي».

جوجل

وصلت أوسلو في مساء اليوم التالي للقائي بقابل...

وأنا في انتظار الطائرة أرسلت للجريدة الأجزاء المنتقاة من حواري مع قابل. أخبرت رئيس التحرير بأنني بهذا أكون قد أتممت اتفاقنا، وأنني سأسافر في إجازة ولن أرد على الهاتف. «لا تحاول الاتصال بي»، حذرته. كذلك أنهيت رسالتي لمرام وأرسلتها لها. أرفقت بها كل تقاريري الموثقة التي كنت أحتفظ بها. «سيكون هذا أفضل انتقام لكِ أليس كذلك؟ لا شيء لديكِ لتخسريه»، كتبت لها في نهاية خطابي. كان مرثية طويلة حدثتها فيها عن الذاكرة وخداعها، عن التسرع في الحكم على الآخرين، عن الندم والحزن وقبح البشر، وعن عدم فوات الأوان للتصالح مع الماضي. حدثتها أيضًا كيف أنها جاءت كنقطة نهاية لخط طويل كنت أسير عليه، وإجابة لقائمة طويلة من الأسئلة كنت أسألها لنفسي. لم أعتذر لها ولا مرة. الاعتذار عما فعلته بها جرم لا يجرؤ عليه أحد.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

اتصلت أيضًا بناشري وأخبرته بأن مسودة الكتاب ستصله على بريده الإلكتروني في خلال أيام، طلبت منه أن يتابع بريده الإلكتروني لأنني سأرسل ملاحظات النشر أولًا بأول كلما خطرت لي. هيأته أيضًا إلى أن يُبقي كل الاختيارات متاحة.

وصلت إلى أوسلو في تمام الحادية عشرة مساءً. درجة الحرارة تحت الصفر بخمس درجات. هذه برودة لم أختبرها أبدًا من قبل.

توجهت مباشرة إلى الفندق الذي يقيم فيه الفوج السياحي، في اليوم التالي أيقظني مرشد الرحلة ورحب بي. نزلت إلى الإفطار وقابلت السائحين القادمين من مختلف أنحاء العالم. عرفني إلى المجموعة. واضح أنهم باتوا يعرفون بعضهم البعض الآن بشكل فيه حميمية، معظمهم من الشباب الصغير القادم من مختلف أنحاء أوربا وأمريكا. ثلاثة منهم من المصورين المحترفين الذين «يطاردون الأورورا في كل مكان»، كما قال أحدهم. بشكلٍ أو بآخر ظننت أنهم معتادون على هذا البرد القارس الذي لا أفهم كيف يمكن أن يعيش فيه أي أحد.

- أنت لم ترَ شيئًا بعد، أوسلو تُعد جنة مقارنة بالجحيم البارد في ترومسو. قال عجوز أمريكي مرح.

أنا الآخر الآن في غاية اللطف والسعادة والخفة. لا أدري لِمَ ولكن مخي يصر على أني لا أخوض هذه الرحلة وحدي أبدًا.

- لا تقلق، الجو جاف للغاية، ما نسميه البرودة الجافة ها هنا، لذا طالما أنك ترتدي الملابس المناسبة فليس هناك ما يقلقك. قال المرشد السياحي. كان رجلًا أربعينيًا ممتلئًا، يشبه النرويجيين في كل شيء: شعر أصفر فاتح وعينان زرقاوان ووجه محتقن باللون الوردي.

تناولنا الإفطار وتركوا لنا ساعتين كي نستعد بأرديتنا الثقيلة. أخرجت الحلة والعدة التي اشتريتها من محل متخصص في بيع أدوات التزلج ورحلات السفاري في روما، القبعة الصوفية، والأفرول الحراري، والمعاطف العازلة، والكنزة الصوفية ذات الرقبة الطويلة، والحذاء

maktabah.blogspot.com

اتصلت أيضًا بناشري وأخبرته بأن مسودة الكتاب ستصله على بريده الإلكتروني في خلال أيام، طلبت منه أن يتابع بريده الإلكتروني لأنني سأرسل ملاحظات النشر أولًا بأول كلما خطرت لي. هيأته أيضًا إلى أن يُبقي كل الاختيارات متاحة.

وصلت إلى أوسلو في تمام الحادية عشرة مساءً. درجة الحرارة تحت الصفر بخمس درجات. هذه برودة لم أختبرها أبدًا من قبل.

توجهت مباشرة إلى الفندق الذي يقيم فيه الفوج السياحي، في اليوم التالي أيقظني مرشد الرحلة ورحب بي. نزلت إلى الإفطار وقابلت السائحين القادمين من مختلف أنحاء العالم. عرفني إلى المجموعة. واضح أنهم باتوا يعرفون بعضهم البعض الآن بشكل فيه حميمية، معظمهم من الشباب الصغير القادم من مختلف أنحاء أوربا وأمريكا. ثلاثة منهم من المصورين المحترفين الذين «يطاردون الأورورا في كل مكان»، كما قال أحدهم. بشكلٍ أو بآخر ظننت أنهم معتادون على هذا البرد القارس الذي لا أفهم كيف يمكن أن يعيش فيه أي أحد.

- أنت لم ترَ شيئًا بعد، أوسلو تُعد جنة مقارنة بالجحيم البارد في ترومسو. قال عجوز أمريكي مرح.

أنا الآخر الآن في غاية اللطف والسعادة والخفة. لا أدري لِمَ ولكن مخي يصر على أني لا أخوض هذه الرحلة وحدي أبدًا.

- لا تقلق، الجو جاف للغاية، ما نسميه البرودة الجافة ها هنا، لذا طالما أنك ترتدي الملابس المناسبة فليس هناك ما يقلقك. قال المرشد السياحي. كان رجلًا أربعينيًا ممتلئًا، يشبه النرويجيين في كل شيء: شعر أصفر فاتح وعينان زرقاوان ووجه محتقن باللون الوردي.

تناولنا الإفطار وتركوا لنا ساعتين كي نستعد بأرديتنا الثقيلة. أخرجت الحلة والعدة التي اشتريتها من محل متخصص في بيع أدوات التزلج ورحلات السفاري في روما، القبعة الصوفية، والأفرول الحراري، والمعاطف العازلة، والكنزة الصوفية ذات الرقبة الطويلة، والحذاء

maktabah.blogspot.com

المعد للجليد والمبطن بالفرو، وزوجين من الجوارب الصوفية والقفازات السميكة.

نزلت بعدها إلى بهو الفندق وأنا أكاد أموت من الحر. ابتسم الجميع في إحراج ما إن رأوني.

- من المفترض أن ترتدي هذه الملابس هناك وليس من الآن. قالت شابة صغيرة وهي تضحك واضعة ذراعها حول حبيبها الأسمر.

حطت الطائرة بعد ساعتين في مطار ترومسو الصغير. غادرنا المطار في سيارات ضخمة نحو القرية النائية التي سنقيم فيها لثلاثة أيام. مررنا بوسط المدينة الصغيرة ببيوتها الخشبية الملونة المطلة على جبال الجليد. ظلت العربات تواصل الصعود في مجموعات متتالية بين الجبال بخطوط متعرجة قاسية. واصل المرشد شرحه المستمر عبر الشاشات المثبتة بتابلوه السيارة، إذ لم يكن معنا في العربة ولكنهم بحيلةٍ تكنولوجيةٍ ما كانوا يبثون كلامه عبر الشاشة.

كان الغروب قد بدأ بالفعل. بدا ساحرًا ونحن نطالع أفول الشمس خلف الجبال والبحيرات التي تسبح وسطها كتل الجليد الضخمة بحوافها الحادة. بدأ الليل يظهر جليًا في السماء. الجو جاف وخالٍ من الأمطار، فقط ثلوج في كل مكان. نظرت في ساعتي فكانت لا تزال الثالثة عصرًا.

نزلنا أمام الأكواخ الجليدية. لم أفهم الحكمة من أن أقيم في فندق مبني من الصقيع الخالص. رنت ضحكات ماري بين جنبات الجبال الثلجية وهي تراقب عدم ارتياحي للمغامرة. «لقد ولدت عجوزًا»، كانت تقول.

الفندق الجليدي خلاب بكل ما تعنيه الكلمة. عبارة عن مجموعة من الأكواخ الصغيرة بقباب جليدية منخفضة. تغرق ممراته الصغيرة وغرفه الضيقة في إضاءات ساحرة بألوان مشبعة. على جوانب صالة الاستقبال كانت تماثيل جليدية غاية في الجمال: طيور عملاقة،

maktabah.blogspot.com

أسماك، آلهة نوردية ومخلوقات أسطورية، وأم من أهل الإسكيمو تحتضن ابنها.

استقبلتنا فتاة شقراء مغطاة بالكامل بملابس من الفرو. «الهدف من الفندق هو الاحتفاء بالطبيعة والفنون. كل ستة أشهر يذوب الجليد بالكامل، ثم يأتي نحاتون من كل أنحاء النرويج لنحت الفندق وغرفه بتصاميم جديدة ليظل في حالة إعادة إحياء مستمرة. البار مفتوح من الواحدة ظهرًا وحتى التاسعة مساءً. الوجبات الساخنة متوفرة في الأوقات المحددة فقط، ويمكنكم الاطلاع على كل الأنشطة الترفيهية على الشاشات المثبتة بغرفكم».

ذهبت إلى غرفتي ورقدت على السرير الجليدي المغطى بفراش من الفرو ونظرت إلى القبة فوقي. طالعتني على الأركان أميرات طائرات، نصف بشر ونصف تنانين، بتموجات جليدية تخرج من أفواههن وتنصهر في إعجاز مع السقف.

البرودة رهيبة. ما هذا العبث يا ماري؟ كيف يمكن لإنسان أن يظن أن هذه المعاناة مغامرة تستحق أن تحكى؟ ألم يكن الأفضل أن نظل في البيت ونتابع حلقات المسلسل من دفء الأريكة متدثرين بالألحفة والقطتين؟

«لقد ولدت عجوزًا يا زوجي الحلو»، تضحك وهي تدفن نفسها داخلي بينما تحتضنني بشدة وتُقبّل وجنتي. «لديك بشرة صافية رائعة. أحبها كثيرًا. يا لك من محظوظ!»، تغمغم بينما تريح رأسها على صدري.
«ولكن في قلبك، أنت عجوز وحزين. سوف نصلح هذا العطب لا تقلق».

أذهب في نوم عميق قبل أن تتلاشى..

***

في المساء خرجنا إلى وادي تاموك. هناك كانت تنتظرنا كلاب الهاسكي واقفة برباط طويل إلى زلاجات جليدية. اتخذ كل اثنين منّا مكانهما

maktabbah.blogspot.com

بداخلها، وبعد صفارةٍ مميزةٍ من مدربها انطلقت الكلاب الست التي تجرنا تركض في جنون مرح.

أمسكت وجسدي يتماوج بالدرابزين كي لا أقع. أمامي كانت سيدة أرجنتينية تصرخ في سعادة مطلقة. لم أتخيلها ماري بقدر ما كنت أنا أيضًا أسمح لنفسي بالابتسام بل والضحك من طرافة المنظر. نباح الكلاب وصراخنا يشيع في الفضاء الواسع المظلم من حولنا جوًا من البهجة. ينير طريقنا عدد من حملة المشاعل الذين يركبون زلاجات أخرى حولنا. تضم مجموعتنا خمس زلاجات إلى جانب تلك التي اتخذها منظمو الرحلة. أحد المصورين يلوح لنا ويصرخ من زلاجته التي تجري بجوارنا كي نبتسم ليلتقط لنا صورة في هذه المغامرة الجامحة.

«ربما كنتِ على حق يا ماري. ربما كانت هذه مغامرة تستحق أن نخوضها»، قلت لها وأنا أبتسم للكاميرا.

مرت بنا الكلاب على منحدرات ووديان عدة، تعجبت كيف تعرف طريقها بهذه الدقة وتركض كلها خلف بعضها في هذا النظام والالتزام. وبينما نسير متسارعين وأنا ممسك بالدرابزين التفتت لي مرافقتي وأمسكت بركبتي وهي تشير إلى أعلى وتصرخ فرحة بالإنجليزية: «انظر، انظر»!

رفعت رأسي صوب السماء.

وعندئذٍ رأيتها.

***

وصلنا إلى مكان المخيم الذي أعدوه لنا. رموا بقطع لحم نيء للكلاب اللاهثة من فرط الركض، ونزلنا نحن نركض نحو النار التي أوقدت وكانت بانتظارنا. سعادتنا بالدفء لا توصف. وحين بدأوا في توزيع أكواب الكاكاو الساخنة بينما ينتهون من طهو الطعام، كنت في الجنة.

maktabah.blogspot.com

- إنها ليست بالقوة التي كنت أتوقعها.

قال الأمريكي العجوز بخيبة أمل. كانت الأضواء الملونة قد بدت في السماء فعلًا ونحن في طريقنا إلى هنا، ولكنها كانت باهتة، ثابتة، وتكاد تختفي متلاشية في سواد السماء المضيئة بالنجوم.

- أتفهم مضايقتك، هذه هي الطبيعة الأم، مطاردة الأورورا ليست بالأمر السهل، ولكني متأكد من أننا قبل مغادرتنا من هنا سوف نحظى بمنظرٍ بديعٍ لا يوصف. قال المرشد.

استطرد بعدها في شرح ظاهرة الشفق القطبي من الناحية العلمية، كذلك تكلم عن مكانتها الأسطورية التي ألهبت خيال القدماء.

- أورورا هي إلهة الفجر. تستيقظ في آخر كل ليلةٍ وتجدد نفسها ثم تركب عربتها وتعبر السماء مغطية إياها بضوء الشفق لتعلن عن قدوم النهار الجديد. ومن هنا جاءت التسمية.

تناولنا طعامنا حول النار وجلسنا لنتسامر. قدَّم كلٌ منَّا نفسه، وحاولت أن أكون مقتضبًا قدر الإمكان. لم أرد أن يعرف أحد عني شيئًا، ولم أرد أن أعطي السيدة الأرجنتينية أي فرصةٍ للتقرب، باعتبارنا الأعزبين الوحيدين في الرحلة. لم آتِ وحدي، فماري معي، وربما رقية أيضًا. رقية؟ ماذا تفعل الآن؟ علّها نائمة متدفئة في حضن جدتها أو ربما إحدى خالاتها التي ستقوم صغراهن في الأغلب بتبني رقية كما عرفت، أو علها بين أحضان كارين؟

منذ أن وصلت إلى روما كانت تلاحقني مكالمات فريدريك وأولجا القلقة. اختفائي المفاجئ أصابهم بالارتباك. اضطررت إلى الرد حين أتيت إلى هنا. رددت في رسالة. لم أكن أحتمل الاستماع إلى صوتهما أو صوت رقية مرة أخرى. لا رغبة لي بتوديعهم ولا طاقة. كلما ألحت عليَّ فكرة البقاء من أجل رعاية رقية أتأكد أكثر من صواب قراري بالرحيل. إن كنت أحبها بحق فيجب أن أبتعد عنها قدر الإمكان. أبتعد بمسافات

maktabah.blogspot.com

ومسافات بقدر ما يمكن للبعد أن يكون.

«أنا بخير. لا داعي للقلق. لا أدري إن كنت سأعود مرة أخرى. بلّغ سلامي لأولجا ورقية. ارعوها بكل حنان واهتمام. تذكروا أن تجنبوها أخطاءكم التي كانت مع ماري. اتركوا لها اختيار مَن تريد أن تكون، وتختار أي دين تريد، ولكن حاولوا أن توفروا لها الحماية من كل شيء. احكوا لها عن ماري التي عرفتموها وأحببتموها. لا تحكوا لها عني». كتبت لفريدريك. لم أقرأ رده الذي أتاني بعدها بقليل.

حين أنهينا العشاء أخبرونا بأن لدينا نصف ساعة للتجول فوق قمة الجبل لتأمل النجوم، بعدها نجتمع هنا كي نعود أدراجنا للفندق.

- لا تذهبوا بعيدًا، فلتبقوا دائمًا أمام ناظري، المنطقة هنا موحشة. حذرنا المرشد السمين ونحن نتفرق في كل اتجاه.

قمت للتمشية وأنا أطالع الجبال الموحشة من تحتي. كنت فوق العالم، في أبعد نقطة فيه، وليس على بالي سوى مقابلتي مع قابل، وما أخبرتني به كارين في خطابها الإلكتروني الطويل.

***

الآن أنهي اقتفاء أثر ماري، أنتهي من تكوين حياتها مرة أخرى كقطع أحجية غير متناسقة، رصصتها بجوار بعضها البعض ظنًا مني أنني سأعرف ماهية العطب الذي أصابها.

كان يمكن لماري أن تكون سعيدة. لو لم تنشأ في بيئةٍ تضغط عليها وتطالبها بالكمال في كل وجهٍ من الأوجه لكانت سعادتها ستصبح احتمالًا واردًا. وحين تركت كل هذا ظنت بسذاجتها المفرطة أن السعادة تنتظرها على الضفة الأخرى، معمية بنظارتها الأوربية البلهاء التي صورت لها أن السلام ينتظرها في الشرق، ولم تدرك أن هذا الشرق بكل ما يرزح تحته من ضغط تاريخي وانهيار قيمه الجوفاء هو التشوه بعينه. التشوه هنا كما هو هناك، وحين ضاقت بها الدنيا، ظنت ماري أن

maktabah.blogspot.com

الملاذ الأخير هو الانتقام.

إنها ليست ضحية. لقد اختارت المرة تلو الأخرى أن تتمادى في اضطرابها. وأن تذهب لأكثر الاختيارات تطرفًا وشططًا. أن تؤذي نفسها وتؤذي مَن حولها.

ولكني فعلت بماري ما أجدت فعله دومًا. أحببتها بكل كياني، ثم شرَّحتها ألف مرةٍ بدون أن أشعر. شرَّحت نفسيتها وتاريخها وتركيبتها. ظللت أحكم عليها وعلى تصرفاتها في كل فرصة استطعت أن أستغلها. كانت تمنحني الكثير والكثير من الفرص لأنها كانت تفعل ما تحسن فعله هي الأخرى: الكذب. كان ذلك أكثر ما يقتلني في معرفتي بها. إنها تنكر كل شيء. تنفي كل شيء. تغير الحقائق. تعرف أن هناك شواهد ودلائل على أمور كثيرة، أو حتى هناك إحساس صادق بداخلي ينشأ من ملاحظتي لتصرفاتها، ولكنها دائمًا كانت تنكره. الحقيقة أني لم أكتفِ بإدانتها بالكذب فقط، ولكني بحثت في أسبابه وجذوره. حاولت أن أفهم دوافعها حتى لا أصبح مجرد إنسان جاهل يحكم على مَن أمامه بسطحية. ولكنها لم تُتح لي الفرصة أبدًا.

كنت أخاف دون أن أشعر أن تتركني. أن أفشل في الحفاظ عليها تمامًا كما فشلت في الحفاظ على نزاهتي حين قبلت دوري ككاتب للتقارير. الآن فقط أدرك بكل وضوح أن تخليَّ عن نفسي مقابل المجد الزائف لا يختلف كثيرًا عن تخلي ماري عن جسدها. كلانا كان يبحث عن القبول. كلانا كان يريد أن يشعر بأنه موجود ومرحب به وسط الدوائر التي كانت تلفظه.

كنت متنمرًا مثلهم تمامًا. لم يكن ما ظننته وقلته عن ماري افتراءً، ولكنه كان في ذات الوقت تصيدًا لكل ضعف فيها. تصيدًا الهدف منه ألا أكون أنا أمام نفسي الأضعف. الأضعف بحبها والأقل استحقاقًا له. لم أرَ في نفسي الرجل الذي يمكنه أن يحتضن تلك الفتاة التي هربت من كل الذين كذبوا عليها وآذوها. كانت تريد أن تتقوقع على نفسها في كنفي،

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

ولكني رأيت نفسي أكبر من أن أفعل ذلك.

لقد سحقت ماري لأنني لم أعرف طوال حياتي سوى إيذائي لنفسي. كان يتعاظم ذلك الاستنتاج بداخلي اليوم تلو الآخر منذ أن تركتني ماري وغادرت بعد أن قرأت خطابي المشئوم، ولكني لم أكن من الشجاعة أبدًا أن أواجه. خفت أن أكون أضعف من رجال كثيرين عرفتهم. لم أدرك أنها لم تكن تهتم بهذا. كنت أعرف جيدًا جدًا أن ما تحتاجه هو أكثر من ذلك بكثير. هو ما رأته فيَّ وعرفته مني يوم أن تعارفنا. هو ما جعلها تحبني. قدرتي على تفهمها والكلام الشغوف الخارج من القلب. رؤيتي الرومانسية الساذجة.. تلك الرؤية الشرقية الأصيلة للحياة. كان هذا ما تبحث عنه ماري وكان هذا ما وجدته معي. ولكنها لم ترَ أنه مجرد غطاء رقيق شفاف سيسقط عند أول اختبار. سقط مرارًا ومرارًا وكانت هي تتحمله لأنها تظن أنها تدفع ثمن ما اقترفته من قبل. كانت تتحملني كعقاب بعد أن ظنت أنني المرفأ الأخير الذي ترسو عليه سفينتها في أمان. رحلت ماري ومعها مات حلمي باستعادة السعادة مرة أخرى.

كم من خطاب كتبت لها؟ كم من مقال كتبته وأنا فيها أفكر؟ كم من مرة جلست مخمورًا على الأرض أمام دولابها الذي لم أمسسه منذ أن غادرت أتأمل حاجياتها، وأحاول جاهدًا دون نجاح أن أستعيد كل رداء متى ارتدته وإلى أين ذهبنا يومها، وماذا كانت ذكرياتنا في هذا المكان أو غيره؟

ما نفع الذكرى في خضم بحر النسيان؟ الذكرى، ذلك الكيان الخداع الذي جعلني أظن أني في مأمن مع ماري حتى لو كانت قد رحلت، ثم طمأنني بأنني قد نسيتها، كرهتها حتى نسيتها. ولكني لم أكن قد فعلت، هذا ما عرفته يوم أن استيقظت لأجد أشلاءها متناثرة أمامي على شاشة التلفزيون.

كنت أظن أن اختياري بالانتحار كان نابعًا من اليأس الذي اعتراني من

maktabah.blogspot.com

أن أعثر على سعادتي مرة أخرى، ولكني أدرك الآن، مع كل قطعة مغناطيس أعدتها إلى مكانها وتخففت من ثقلها أن الانتحار كان قرارًا ناتجًا عن رغبةٍ واحدةٍ فقط: التخلص من ذلك الثقل الرهيب الذي أحمله ما بين ضلوعي. ثقل نفسي التي أكرهها، ثقل الفراغ من حولي الذي يضغطني من كل اتجاه، خلو الحياة ممَّن أحب، ممَّن يمنحني السلام والسكينة، فراغ لن تملؤه الزجاجات ولا السباب ولا النجاح الزائف ولا الإطراءات. ما قالته كارين، ما فعلته وفعله أفراد العصابة وفعلته ماري وفعلناه جميعًا، أليس هذا تجسيدًا للكراهية والشر المطلقين في هذا العالم؟ الغيرة. يا إلهي! الغيرة هي مَن قتلت ماري ومعها خمسون من الأبرياء المذنب بعضهم.

وإذا كان سؤال بقائي من أجل تنشئة رقية ما يزال مطروحًا، فقد جاء لقائي بمرام كي يجيب عنه مرة واحدة وبحسم لا يهزه شيء: أنا طاقة شر لا بد وأن تختفي من هذا العالم. إنها أفضل حالًا كثيرًا إن تربت بعيدًا عني، أيًا كان مصيرها، فلن يكون أفضل أبدًا بجواري. لن أصلح ما أفسدت. لا أقدر يا ماري. حتى لو كانت على اسم أمي لأنكِ أردتِ أن أربيها، حتى لو كانت هذه رسالتكِ الخفية التي أرسلتها لي قبل أن ترحلي، أن أصلح ما أفسدته معك، فلن أقدر. أنا آسف إن كنت أخون وصيتك. ها أنا مرة أخرى أخذلكِ تمامًا كما خذلت نفسي.

ولكن الآن باتت جيوبي خاوية. لم تعُد تحتوي على أي قطع مغناطيس تجذبني إلى هذا العالم. الآن أنا أكثر خفة، أكثر فراغًا وأكثر ثقلًا عما كنت طوال حياتي.

***

اليوم الثاني للرحلة. نقضي النهار بأكمله داخل الفندق. أحمد الله على وجود قاعة الطعام الخشبية بنظام التدفئة. هي المكان الوحيد داخل الفندق غير المبني من الجليد. أجلس طوال الساعات الماضية لأنهي مراجعة الكتاب، وكلما أنهيت قسمًا أرسلته للناشر. بقي ما أكتبه الآن، لا

maktbah.blogspot.com

أدري إلى متى سأظل أكتب، ولكني لا أجد سلوى إلا في الكتابة وحتى اللحظة الأخيرة، والتي لا أدري متى تأتي. كلنا في انتظار أن تستيقظ أورورا لتنثر الشفق في السماء وتطل علينا من عليائها.

ولكني سعيد ومرتاح هنا. لقد حققت لها شيئًا أرادته. لم نرَ الأضواء الباهرة بعد يا ماري، ولكني أعدكِ أن نفعل. أنا واثق في أنكِ سترسلين الإشارة. متى تتجلين؟

***

نهاية اليوم الثاني، لا شيء جديد يحدث. فقط جلسات السمر والتجول في الخارج. أواصل الاستماع للموسيقى في أذني متجنبًا الحديث معهم قدر الإمكان. «عن طبيعة ضوء النهار» لماكس ريختر و«مولاي رحمتك» لأليجري تواصلان اللعب في أذني طوال اليوم دون أن أحاول تغييرهما. الأولى ملائمة إلى حد الكمال لهذه الأجواء التي تحوطني، بينما الثانية كانت ستكون آخر ما تسمعه ماري قبل أن تضغط على زر التفجير.

***

اليوم الثالث. بعد نهار قصير أتى الغروب بسرعة، ربما قبل الثانية ظهرًا. راقبت الشفق من شرفة الفندق المطلة على بحيرة متجمدة. فجأة جاء المرشد راكضًا. «اجمعوا حاجياتكم بسرعة. سنتوجه لجزيرة لابلاد، لقد ظهرت هناك».

ركضت إلى غرفتي. حلقت ذقني بالكامل. طالعت وجهي في المرآة ورأيته لأول مرة كما لم أرَه منذ سنوات. ارتديت كل الأطقم. اصطحبت معي شاحن الهاتف المتنقل. ألغيت الرقم السري من على هاتفي. قلبي يدق وجلًا. لا أكاد أتخيل ما أنا مقبل عليه.

***

الآن نركب عربات الجيب الضخمة. تسير مسرعة حافرة آثارها في

maktabbah.blogspot.com

الثلج. السماعات في أذني والهاتف في يدي، أدون ملاحظاتي للناشر في تطبيق الملاحظات على هاتفي. مسحت كل الأيقونات على الشاشة بحيث تكون هي الوحيدة فيسهل العثور عليها. تركت ملحوظة سريعة لإخوتي وللمحامي.

تعبر السيارات بجنون فوق البحيرة الجليدية بينما الظلام يلفنا. من بعيد تظهر السماء مشتعلة بلهيبٍ برتقالي وكأنها حمم بركان تتخللها ألوان الأحمر الدامي. ينقشع الجبل عن مجال رؤيتنا ونصبح مرة واحدة أمام فراغ هائل.

في حياتي لم أرَ مثل هذا الجمال. كل ما رأيته من صنع الإنسان لا يعدو كونه محاولة لمحاكاة ما تحمله الطبيعة. هذا هو الكمال. هذا هو شعاع العبقرية مجسدًا الذي ضرب برنيني وكارافاجيو وكل العظماء. أراه أمامي متجسدًا.

تتوقف العربات في ساحة جليدية واسعة، نحن الآن فوق العالم وأقرب ما نكون للسماء ولا شيء يلوح أمامنا في الأفق سوى بساط سرمدي منشور. نركض جميعًا في الخلاء رافعين رؤوسنا إلى أعلى وناظرين حولنا بأفواهٍ مفتوحةٍ وتأوهات الذهول تند عنّا جميعًا.

تلمع السماء فجأةً بأشعات تركوازية وحمراء وكأنها على وشك الانفتاح لتهبط منها الآلهة. إنها رقصة. رقصة شرائط الضوء تحتفي بالحياة. كتل ضوئية هائلة الحجم تقطع السماء من كل ناحية. لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا من قبل. السماء مشبعة بصبغة غنية من الأرجواني بينما تتراقص وسطها الحبال الخضراء والزرقاء بتدرجاتها العديدة على خلفية خلابة تبدو في الأفق إلى ما لا نهاية. تتخلل النجوم والسحب والأشياء جميعها. هذا هو أعظم ما رأيت في حياتي دونما شك. أخرج هاتفي لأصور علهم يستخدمون الصور للغلاف.

أجلس والموسيقى لا تزال تصدح في أذني ذائبة في الموسيقى الاستاتيكية للسماء. أجلس على الحافة ومن تحتي أخدود عميق من

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

الثلج الأسود. آخذ نفسًا عميقًا وأنا أبتسم لماري المتجسدة أمام عيني وسط الأضواء الباهرة، مرتفعة عن الأرض، سابحة في الفضاء، غامرة الشعور، كاملة الجمال، كاملة الوجود. أنا في نهاية الرحلة. أنا فوق العالم. أسير في الثلج مبتعدًا عمَّن أتوا معي وصاحبوني في رحلتي الأخيرة. أسير شاخصًا ببصري نحو السماء التي ليس أمامي غيرها. أنا في آخر الطريق فلكل طريق نهايته.. ولكل كتاب خاتمته.. ولكل حياةٍ موتها. أنا نقطة التقاء الثلاثة. على الجهة الأخرى بعرض السماء ومد البصر تضوي ماري متوهجة بجمال شرائط الضوء الباهرة. ترقص بفعل اضطراب في السماوات العليا تمامًا كما رحلت بفعل اضطراب أرضي. ها قد تركت كل شيءٍ وأتيت كي أتلاشي في هذا الضياء وأحقق الرؤيا التي حلمتِ بها.. حين رأيتِ نفسك تتوهجين في بقعةٍ من الضوء الباهر.. أتيت لأصحبكِ في هذا الموت.. هذا الفناء.

أطرافي تتجمَّد، تنفسي ثقيل. وخز يضرب قدمَي الغائصتين في الثلج. عظامي تؤلمني والدموع تتجمَّد في مقلتي. الصقيع يصيب بطارية الهاتف بالعطب. يريد أن يغلق. أضربه في ركبتي بقوة. أغلق الخط على هؤلاء البلهاء الذين يواصلون الاتصال بحثًا عني. أرفع رأسي وأنا لا أزال أواصل المسير دونما توقف. أطالع أفق السماء اللا نهائي غير عابئ بنصف جسدي الغائص الآن في الثلج.. انفجارات الجمال لا تزال ترتعد.. انفجارات تتوهج في السماء تمامًا كما كان وهج انفجارك.

لأن لكل طريق نهايته.. ولكل كتاب خاتمته.. ولكل حياة موتها.. هل كتبت ذلك من قبل؟ لا يهم.. ها أنا أنتهي من رحلتي، وأختم كتابي، ولم يبقَ إلا موتي.. أمد يدي نحو السماء علِّي أقتبس شيئًا منكِ، علِّي أتلاشى في هذا الضياء وأصبح.. مثلكِ.. اضطرابًا نورانيًا يتفجر بلا ألم، بلا معاناة، بلا إدراك للزمن.. لا ماضٍ هنا ولا حاضر.. فقط ومضات كنبضات القلب الذي آن له أن يتوقف..

ماري أنا...

maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

.. تمت ..

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com
مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com